القيم الذاتية العليا
المطلقة والمشروطة

بقلم

نايف عبد الرحمن العبيدان

اسم الديوان : القيم الذاتية العليا المطلقة والمشروطة
اسم المؤلف : نايف عبد الرحمن العبيدان
رقم الإيداع

٢٠٢٣/١٩٠٢٠

الترقيم الدولي

٩٧٨-٩٧٧-٦٩٧١-٨٠-٦

المدير العام : أحمد عبد السميع
رئيس مجلس الادارة
اكرام عيد

لا يسمح بإعادة طبع ونشر هذا الديوان أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه أو نسخه في أي نظام إلكتروني أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر وإلا تعرض فاعله للمسائلة القانونية.

اهداء

إهداء هذا الكتاب لكل شخص يسعى لتحقيق النمو الشخصي والاجتماعي، ولكل من يريد تحقيق السعادة والنجاح في حياته.

وشكر خاص لكل من ساهم في إنجاح هذا الكتاب، ولكل من ساعدني في جمع المعلومات وتنظيمها وتحريرها، ولكل من ألهمني بأفكاره وتجاربه الشخصية.

شكرًا لكل من دعمني وشجعني على العمل على هذا المشروع، وأتمنى أن يكون هذا الكتاب مفيدًا للجميع.

نايف العبيدان

كلمة المؤلف

القيم الذاتية العليا المطلقة والمشروطة هي موضوع مهم لدراسة الإنسان وتطويره، فهي تعبر عن القيم الأساسية التي يتعين على الفرد الالتزام بها في حياته. وتعتبر هذه القيم مطلوبة لتحقيق النجاح والتفوق في الحياة، وتشمل الصدق والعدالة والصبر والتسامح والإيمان والتضحية وغيرها.

ومن أهم الأسباب التي دفعتني لكتابة هذا الكتاب، هي التعرف على أهمية هذه القيم وكيفية تحقيقها وتطبيقها في حياتنا اليومية. ففي عالمنا الحالي، تعاني المجتمعات من انحرافات وخلل في القيم الأساسية، مما يؤدي إلى تدهور الأخلاق والسلوك الإنساني.

ولذلك، سأقوم في هذا الكتاب بتناول هذه القيم الذاتية العليا بشكل مفصل، وسأحاول توضيح معانيها وأهميتها وتطبيقاتها في حياتنا اليومية. كما سأتحدث عن العوامل التي تؤثر على تحقيق هذه القيم وكيفية التغلب عليها، وأيضًا سأقدم نماذج وأمثلة حول الأشخاص الذين تمكنوا من تحقيق هذه القيم ونجاحهم في الحياة.

وأخيرًا، سأقدم في هذا الكتاب نصائح وخطوات عملية يمكن للقارئ اتباعها لتحقيق هذه القيم في حياته، وبذلك نساعد على تحقيق النمو والتطور الشخصي والاجتماعي.

نايف العبيدان

محتويات الكتاب

إهداء	**3**
كلمة المؤلف	**4**
تقديم	**7**
تمهيد	**8**
قانون الوفرة	**12**
قانون الوفرة ومبادى الأفراد وقيمته الأخلاقية	**13**
الفصل الأول: القيمة الذاتية العليا مفهومها وخصائصها	**15**
الفصل الثانى: مفهوم القيم الذاتية فى المجتمع المعاصر Contemporary Society	**27**
الفصل الثالث قيم ذاتية ومتجهات ذاتية الثقافة والتنشئة Culture and Socialization	**41**
الفصل الرابع :الثقافة والزمن الاجتماعي Culture and Social Time	**79**
الفصل الخامس : تحليل القيم الأخلاقية	**98**
الفصل السادس : ماهية العمل الإنسانى والتشافى الذاتى الأسرة Family	**104**
الفصل السابع التشافى بالقراءة والتشافى الروحى	

الدين والمعتقدات

Religion & Belief 135

الفصل الثامن : توزان العمل الإنسانى مع القيمة الأخلاقية

القوة والسلطة والسياسة والدولة

Power, Authority, Politics & State 156

الفصل التاسع :إرتباط الأخلاق بالنية وماهية القصدية

الانحراف والجريمة

Deviance & Crime 168

الفصل العاشر :القيم الأخلاقية العليا فى الفلسفة وعلم الإجتماع

التعليم

Education 184

الفصل الحادي عشر : مذهبا نيشه والذرائعية

التحضر والحضرية

Urbanization & Urbanism 196

الفصل الثاني عشر

التغير الاجتماعي، السلوك الجمعي والحركات الاجتماعية

Social Change, collective behaviour Social

Movement **209**

مراجع الكتاب 220

تقديم

كان موضوع القيم ولا يزال مجالا خصبا للدراسات الفلسفية التى تقوم على التأمل والتجريد .

وأثناء مسيرة هذه الدراسات خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر بدأ علماء الأنثروبولوجيا الخضارية وعلماء الإجتماع يضمون جهودهم إلى جهود الفلاسفة .

ومع إنتهاء الحرب العالمية الأولى تفجرت طاقة الإبداع عند مستكشفى هذا العلم الجديد من أمثال فلويد أولبورت فى الولايات المتحدة الأمريكية ويخترف ويدلينجفى الإتحاد السوفيتى .

ومع إنتهاء العقد الثالث من القرن وابتداء العقد الرابع كان هذا العلم الجديد يقف على قدميه ويبدء خطوات الطموح حول دراسة موضوعات بالغة التعقيد جاء فى مقدمتها موضوع القيم .

ومنذ ذلك الحين والدراسات النفسية الإجتماعية تتقدم وتتفرع وتتشابك حول القيم كجانب بالغ الأهمية فى سلوك البشر .

الناشر

تمهيد Preface

كتاب القيم الذاتية العليا ليس عملا سهلا في عالم تتبدل فيه المفاهيم والقواعد الاجتماعية تبدلا سريعا يصعب معه الإمساك بخيط من خيوط المجتمع الذي اعتدنا عليه. ولكنها في الوقت نفسه ليست عملا خارقا يرقى الى فتوحات طارق بن زياد او نابليون بونابرت، الكتابة عن القيم والأخلاق ليست وجهة نظر يمكن تبديلها او تحويرها او حتى الاستغناء عنها، انها بفهمنا، صناعة عقلية صالحة للاستهلاك المعرفي ولكنها غير صالحة للترويج في عربات الباعة المتجولين او تجار الشوارع الخلفية وهي من وجهة نظر فيزيولوجية تشبه ولادة طبيعية بدون مشرط جراح ولكن لابد لها من أساس معرفي يعمل بمثابة مطهر من اجل ان لا تصبح الولادة ناقصة، ويصاب الجنين بفيروسات ما بعد الولادة. هذه الولادة تحتاج عقول مدربة وايدي ماهرة والا لأصبح كل الناس قابلات مأذونة او طبيبات توليد او علماء اجتماع. المهارة يمكن تخزينها ويمكن تطويرها ويمكن نقلها الى أخرين عبر عملية تدريب قد تطول لسنوات، وكذلك نفعل في حقول المعرفة كلها، ولذلك أخذنا في الاعتبار:

أولا: أنه من بين الكم الهائل من المعلومات التي تنطوي عليها أدبيات علم الاجتماع، قمنا بانتقاء موضوعات ذات أهمية للعالم والمتعلم والتي يمكن ان تعطي صورة شاملة للعلم، اذ لا يمكن لأي باحث مهما اجتهد تغطية حقل المعرفة الاجتماعية بالكامل.

ثانيا: لدينا يقين بان هذا الكتاب من شانه ان يرقى بالوظيفة التربوية المزدوجة لعلم الاجتماع، فمن جهة نرى انه ذو قيمة لحقل المعرفة

الاجتماعية، حيث يمكنه ان يبرز الطبيعة المميزة للعلم والملامح الرئيسة للتحليل الاجتماعي، وسيكون أداة معرفية مهمة للثقافة العامة حتى لأولئك الذين لم يتسن لهم دراسة هذا الحقل المعرفي.

ثالثا: عمدنا قدر المستطاع الى تحديد مفاهيم العلم بمهارة احترافية وعلى درجة من الوضوح والشفافية

رابعا: ان الكتاب في الأصل لأهل الاختصاص، ولذلك ابتعدنا عن تبسيط المفاهيم لدرجة تفقد الكتاب المنهجي محتواه الأكاديمي، وتقدم طعاما بائتا يسبب عسر هضم للمتعلمين.

هذه الاعتبارات نظن انها ستكون مفتاحا لأكثر المغاليق صعوبة، فهي من جهة تفتح باب المعرفة الاجتماعية للطالب والمعلم في ان واحد، وفي الوقت ذاته تقدم مفاهيم العلم دون اخلال بطبيعتها التربوية والثقافية، ومن جهة أخرى من شانها ان تفتح عين المتعلم على كيفية النظر للظاهرات الاجتماعية التي تحدث في كل لحظة حولنا ليلا ونهارا وقد لا نجد لها تفسيرا واضحا من دون اساسيات الفكر الاجتماعي بنظرياته وأدبياته ومناهجه.

وفوق كل هذا فان ادراكنا للعالم الذي يحيط بنا بعين مفتوحة بكل الاتجاهات لا بنصف عين، من شانه ان يغير سلوكنا تجاه الناس والاحداث، فلو نظرنا لظاهرة الطلاق مثلا فإننا لا نستطيع ان نعطي احكاما حول المرأة التي لا ترغب بالعيش مع رجل لمجرد انها تزعم ان الرجل لا ينفق عليها، كما لا نستطيع ان نصدق الرجل الذي لا يريد العيش مع امرأة لمجرد زعمه انها لا تجيد الطبخ، كلاهما يسوق أسبابا لا تشبه الأسباب، وعالم الاجتماع لا يتكهن ولا يتنبأ كما يفعل الدراويش او خبراء الانواء الجوية، ولا يحب

الأسباب التي تخرج من فم الزوجات اللواتي تزوجن بفرمان ولا الرجال الذين تزوجوا إرضاء للعشيرة التي لا تؤمن بالذرية من غير الذكور. عالم الاجتماع لديه مهارة مئة عام من البحث والاستقصاء، مائة عام من الفكر الذي يتجاوز الأسباب المباشرة التي يخترعها النساء والرجال للتخلص من الشريك بأقل الخسائر الاجتماعية والأخلاقية والمادية أيضا.

الظواهر المحبطة، والظواهر المؤلمة والظواهر التي تصادر منا هويتنا وتحتجز جوازات سفرنا في نقاط تفتيش وهمية كثيرة وكثيرة، نلوك بعضها بكلا الفكين ثم نلفظها، ونبقي بعضها تحت النظر حتى نجد لها تفسيرا عند ابن خلدون او ميرتون او كارل ماركس.

السلاح الذي يقدمه علم الاجتماع لتلاميذه ومؤيديه، يفوق السكاكين والأسلحة النارية والعبوات الناسفة المخبأة تحت الثياب، لان لعبة الأسلحة في فن الحرب قد تفشل فشلا ذريعا في مقاومة شائعة، وقد تفشل فشلا ذريعا في تغيير اتجاهات الناس حول الموائد العبثية لتجار السياسة وتجار الدين وتجار الافيون.

البعض يقول اننا لا نحتاج الى علم الاجتماع كما نحتاج الى الطب والهندسة والكيمياء والفيزياء والرياضيات، لأننا جميعا يمكن ان نكون علماء اجتماع طالما اننا نحيا في بيئة اجتماعية، ونعرف حدودها وتركيبها الفيزيائي ومكوناتها من القيم والعادات والتفاعلات التي نختارها والتي لا نختارها، وهذه النظرة المحدّبة هي التي تأتي بخراب البلدان وخراب العمران لأنها نظرية واحدية الجانب. الطبيب لا يستطيع ان يكون مهندسا، كما ان المهندس لا يستطيع ان يكون طبيبا، لان المعايش كما يقول الجاحظ تستلزم

تنوعا مهنيا ولو كان الناس جميعا على مهنة واحدة لفسدت الأرض وعندها كما يقول ابن خلدون لا أحد يعمل نجارا او حدادا او مزارعا. وفي ذلك يقول الامام علي (ع) ان الرعاع إذا اجتمعوا خرّبوا وإذا تفرقوا نفعوا، قيل له قد علمنا الخراب في اجتماعهم فكيف ينفعون في تفرقهم، قال كلٌ يذهب الي مهنته، النجار الى نجارته والخباز الى مخبزه والتاجر الى تجارته والصانع الى مصنعه، فينتفع الناس منهم. التوازن المهني غاية لكل تقدم وحاجة لكل مجتمع.

وبعد هذا لا نحتاج الى علم لكي نحصل على وظيفة تعود علينا بمردود مالي فقط، لأننا نستطيع ان نحصل على ثلاثة اضعاف العائد المادي من تجارة السمك او البصل او بيع الفلافل على ناصية الشارع. الذي يدرس علم الاجتماع ينبغي ان يؤدي رسالة مفادها: ان لم تكن قادرا على استخدام المعرفة من اجل حياة أفضل للمجتمع، عليك ان تترك هذا الميدان وتبحث عن عمل اخر.

الباب الاول

قانون الوفرة

قانون الوفرة
ومبادئ الأفراد وقيمته الأخلاقية

يعتبر قاعدة الوفرة واحدة من المفاهيم الرئيسية في علم الاقتصاد. تقوم هذه القاعدة على فكرة أن الموارد في العالم محدودة، بينما الرغبات والاحتياجات للأفراد غير محدودة. وبموجب هذا القانون، فإن الوفرة تنشأ عندما يكون هناك احتياجات غير محدودة وموارد محدودة، مما يؤدي إلى ظاهرة المنافسة على الموارد النادرة.

تعتبر مبادئ الأفراد مؤسسة هامة في قانون الوفرة. ففي ظل هذا القانون، يمتلك الأفراد حرية الاختيار والتصرف في الموارد التي لديهم، وذلك بما يتماشى مع رغباتهم واحتياجاتهم. هذا يشجع الأفراد على اتخاذ القرارات الاقتصادية الأفضل لهم، مما يحقق الاستدامة والازدهار الشخصي.

من القيم الأخلاقية الرئيسية التي يتضمنها قانون الوفرة، هي قيمة الحرية والمسؤولية. فالحرية في اتخاذ القرارات والتصرف في

الموارد الشخصية للأفراد تعزز إرادتهم الشخصية وتعزز تفكيرهم الاقتصادي الذاتي. بالمقابل، يجب أن يعي الأفراد المسؤولية المرتبطة بقراراتهم الاقتصادية، حيث أنها قد تؤثر على أفراد آخرين وعلى المجتمع بشكل عام.

بالإضافة إلى ذلك، يتطلب قانون الوفرة من الأفراد أن يكونوا على دراية بفهم العرض والطلب والقوى السوقية. فالقدرة على فهم هذه المفاهيم الاقتصادية الأساسية تمكن الأفراد من تحليل السوق واتخاذ القرارات المستنيرة. على سبيل المثال، إذا كانت الموارد المطلوبة نادرة تجاهلها بعض الأفراد قد يؤدي إلى ارتفاع الأسعار وتفاقم العجز في الموارد.

بالختام، يعد قانون الوفرة ومبادئ الأفراد جوهرية في فهم عمل الاقتصاد وتحقيق التوازن بين الموارد المحدودة والاحتياجات اللا محدودة للأفراد. تعزز هذه المبادئ الحرية والمسؤولية، وتحث الأفراد على تطوير الوعي الاقتصادي واتخاذ القرارات المستدامة. بالتالي، فإن فهم قانون الوفرة وتعزيز قيمه الأخلاقية يعزز النمو الاقتصادي ويسهم في تحسين الحياة الاقتصادية والاجتماعية للأفراد والمجتمع بشكل عام.

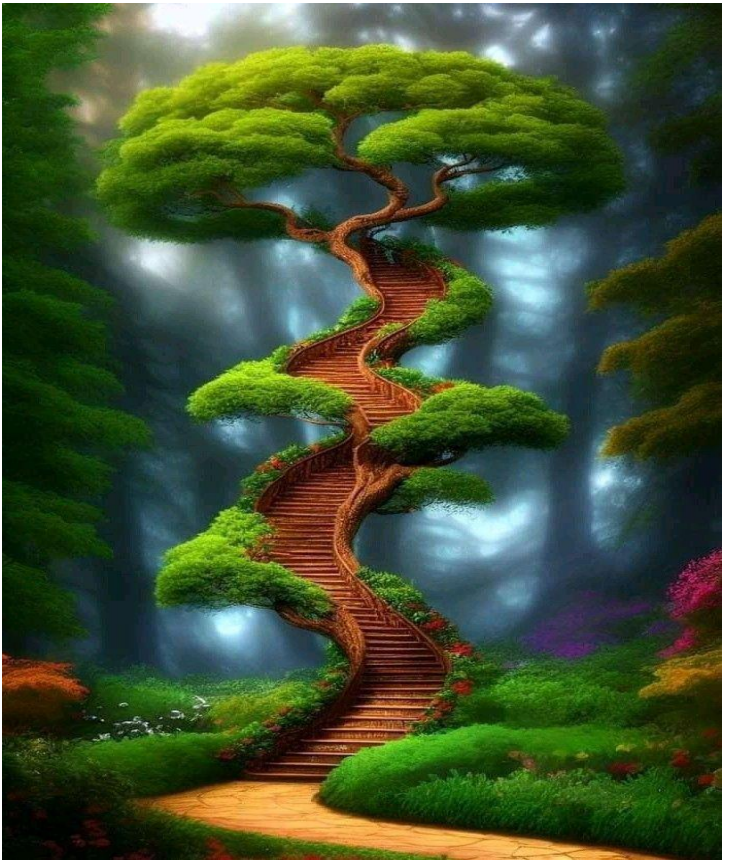

الفصل الأول

القيمة الذاتية العليا مفهومها وخصائصها

تمثل القيم الذاتية العليا مجموعة من الأفكار الأخلاقية التى ترتبط بالمجتمع والتى تقترن بالإحتياجات والمشاعر الإنسانية ودائماً يستخدم علماء الإجتماع مصطلح القيم لتوكيد الخير والرغبة المتأصلة لدى المجتمع .

فالقيمة الذاتية هى الإعتقاد بالشئ المرغوب فيه بشدة فهى عبارة عن رغبات وأهداف تعتمد إجتماعيا على عملية التكيف والتنشئة الإجتماعية فالقيمة هى فكرة مشتركة حول تصنيف بعض المبادئ المتعددة فى المجتمع من حيث إذا كانت خير أو شر .

وتعتبر تلك الغايات مشروعة فهى التى تحدد ما هو الشئ الذى يستحق دائما العناء من أجله والسعى دائماً على تفسير بعض هذه القيم أو جميعها وذلك من خلال بعض المعايير التى تتوافق مع المجتمع وبالتالى فإن القيمة الذاتية تعتبر من المفاهيم الجماعية المرغوبة ويعتبر هذا المفهوم بالتحديد جيداً إذا كان هذا سليماً أو غير سليم وبالتالى غير مرغوب فيه من قبل المجتمع وغير لائق فى الثقافة المجتمعية .

فالقيم جزء لا يتجزأ من فلسفة الإنسان الشخصية ومن خلال نظرته للحياة والعلاقات المتبادلة مع الأخرين ،وذلك لأن القيم رغبات وأهداف **تعتمد** فى ذاتها إجتماعياً ، ويتم إستيعابها والتكيف معها من خلال الإنخراط فى المجتمع البشرى .

فى القرن الحادي والعشرين، وسط عالم من التحديات التي تهدد مستقبل الانسان في كل مكان، ليست أسلحة الدمار الشامل وحدها، ولا تقنيات المعلومات، ولا التفكك العائلي، ولا الجريمة المنظمة ولا الفساد السياسي ولا البطالة ولا التعليم ولا الصحة ولا الفقر، ولا غياب العدالة، ولا الطمع

ولا سوء الإدارة ولا التغير المناخي ولا التلوث البيئي، وانما كل هذه التحديات مجتمعة. الان مازالت لدينا فرصة لان نتحكم في مصائرنا عبر العمل من اجل حياة أفضل، هل هذا مجرد ضرب من الاماني ام بمقدورنا فعلا ان نساهم في إعادة تشكيل حياتنا وزرع الامل في عقول اجيالنا القادمة.

القيم الذاتية العليا وعلم الاجتماع والمشتغلون به لا يستطيعون مواجهة التحديات وحدهم ولا يستطيعون حمل العبء الذي خلقته شرور الناس واطماعهم، ولكن جهود اهل العلم والمعرفة مع بعضها يمكن ان تنقذ المجتمع الإنساني من الاخطار التي سببها الانسان نفسه. الموضوعات الاكاديمية عادة تعرف من نوع الأسئلة التي تطرحها وبالطريقة التي تجيب فيها على هذه الأسئلة، كل ما يحدث يستثير استجابات علمية مختلفة، فعلماء الطبيعة يستجيبون للكوارث الطبيعية بطريقة تختلف جوهريا عن استجابة العلوم الإنسانية. يقول بروم واخرين (1981) ان حادثة التسرب الاشعاعي في جزيرة الاميال الثلاثة في بنسلفانيا عام 1979 طرحت سؤالا جديا حول مستقبل الطاقة النووية، ولدراسة المسالة انتدبت الحكومة الفدرالية لجنة اغلب أعضاءها فنيين وخبراء بالعلوم الطبيعية وفي وقت لاحق اعترفت الحكومة بخطأ انتداب فريق من الفنيين فقط فاستجابت لنداء مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية فشكلت فريقا مشتركا تأييدا لوجهة نظر المجلس باعتبار ان مشكلة الطاقة مشكلة اجتماعية كما هي مشكلة طبيعية.

الاستجابة لهذه الحادثة الطارئة، أظهرت كيف ان عدة علوم مختلفة جندت مهارات منتسبيها نحو دراسة المشكلة من زوايا مختلفة. في تقويم سلامة استخدام الطاقة النووية، ركز المهندسون، والمتخصصون بالفيزياء النووية

في البداية على مشكلة التصميم، ثم أجهزة الإنذار الفاشلة التي من المفترض ان تعمل في حال حصول عطب. خبراء الصحة العامة ركزوا على قياس مخاطر الاشعاع، بوضع تقديرات لحجم السكان الذين يتعرضون للخطر والعمل على إيجاد طريقة لتقليل آثاره. علماء النفس اهتموا بأخطاء الانسان، مثل ضعف التدريب والتأهيل، والفشل في وضع فريق تحذير على وفق مبادئ علم النفس، وكذلك الضغوط التي يتعرض لها الافراد وتأثيرها على مستوى الأداء اثناء الازمة. علماء الاجتماع انشغلوا بدراسة الشائعات التي انتشرت، والتي من شانها ان تثير الفزع لدى الناس، ودراسة الاختلاف بين من يسعى للفرار من الأماكن القريبة وبين الذين يصرون على البقاء في مواجهة الخطر.

في حقبة الحرب العراقية-الإيرانية (1980-1988) أدركت الحكومة العراقية آنذاك ولو بشكل متأخر بعض الشيء أهمية ادخال علم النفس وعلم الاجتماع والاعلام والتاريخ والاقتصاد الى جانب المدافع والطائرات، وذلك بعد تدني مستوى المعنويات.

هذه القائمة القصيرة من الاختصاصات العلمية التي استخدمت في مواجهة مشكلة واحدة تؤكد الخاصية الانتقائية للعلوم. والواقع ان الانتقائية جزء من الحياة اليومية، فالسائق مثلا يركز بالدرجة الأولى على الطريق، وربما يهتم بتشغيل المذياع. لمعرفة اخبار الحوادث او زحمة المرور، كما ان قراءة كتاب للمتعة غير قراءة الكتاب نفسه بوصفه مقررا دراسيا، وركوب الدراجة الهوائية تختلف عن ركوبها في سباق، وهكذا ينسحب الامر على الموضوعات الاكاديمية التي تعطي اهتماما لأشياء معينة وتهمل أخرى.

والسؤال الان هو الى أي مدى يمكن لعلم الاجتماع ان يساهم في تخفيف الالم والجوع والمرض والخوف من المجهول، سؤال قد تجيب عنه الصفحات القادمة.

وهناك سؤال يطرح نفسه ما هى القيم الذاتية العليا المشروطة منها والمطلقة وماذا يعنى علم الإجتماع ؟ علم الاجتماع هو واحد من عائلة العلوم الإنسانية التي تهتم بدراسة السلوك الإنساني وانتاجه، وهي: الانثروبولوجيا، وعلم النفس، وعلم النفس الاجتماعي، والسياسة، والاقتصاد، والتاريخ، والجغرافية والاعلام، والتي لا تجد بينها حدودا فاصلة واضحة المعالم. و**علم الاجتماع** بشكل أكثر تحديدا هو الدراسة العلمية المنظمة للجماعات الإنسانية، التغير الاجتماعي والحياة الاجتماعية، الى جانب مسببات ونتائج السلوك الإنساني، (Browne 2010 Middleton 1986)

وبما انه يهتم بالسلوك الإنساني فانه يعمل على تحليل الحياة الاجتماعية بثلاثة مستويات:

المستوى الأول: دراسة العلاقات بين الأشخاص interpersonal relations وهذا التحليل لا يعني بالضرورة دراسة العلاقات الحميمة، ولكن يهتم بالعلاقات الحميمة والعدائية أيضا، العلاقات القريبة والبعيدة، العميقة والسطحية، المنفعية والخالية من المنفعة.

المستوى الثاني: دراسة العلاقة على مستوى الجماعة Group relation، والجماعة مفهوم واسع المعنى يضيق ويتسع بحسب فهمنا له، تماما مثل مفهوم المجتمع المحلي، فقد يضيق ليشمل الاسرة او مجموعة اصدقاء في حارة او زقاق، وقد يتسع ليشمل مدينة او امة، فاذا جاء احد من قرية "ساحل

الذهب" مثلا الى مدينة الكوت، فانه سيقول انا من قرية الذهب، فتكون القرية هي الجماعة التي ينتمي لها؛ فاذا غادر الكوت الى بغداد سيقول انا من الكوت، عندها تصبح الجماعة التي ينتمي لها مدينة الكوت بكل مكوناتها الإدارية والسكانية، فاذا غادرها الى القاهرة او بيروت سيقول انا من العراق، عندها يكون العراق كله الجماعة التي ينتمي لها فاذا غادر الى لندن سيقول اني عربي فيكون العرب على الرغم من تنوعهم الديني والعرقي والمذهبي وحدودهم الوهمية وجوازات سفرهم ونقاط تفتيشهم هم الجماعة التي ينتمي اليها. اما الفئات الاجتماعية المتماثلة عمريا او مهنيا او لديهم دخل اقتصادي متشابه فلا يشكلون بالضرورة جماعة اجتماعية، لأنهم سيكونون مجرد فئات اجتماعية او تجمعات إحصائية الا إذا كانت منظمة وتملك قدرا من الديمومة والاستقرار. وفي ذلك تختلف الجماعة عن التجمع، فالجماعة الاجتماعية منظمة والتجمع سائب ومؤقت، مثل التظاهرة السياسية، والتجمع عند بائع الخبز او في موقف الباص او في عيادة الطبيب، بيد ان بعض التجمعات يمكن ان تتحول الى جماعات اجتماعية عندما تنتظم في سياق اجتماعي واضح المعالم، مثل نقابة البناء ونقابة المعلمين ... وهكذا. وتحول التجمعات الى جماعات ذات أهمية كبيرة لعلم الاجتماع.

المستوى الثالث: العلاقات المجتمعية: Societal relations، وهذا المستوى من التحليل يشمل المجتمع كله، والمجتمع الذي يمتلك خصائص ثابتة نسبيا وانماطا محددة يسمى نظاما اجتماعيا، فالمجتمع الذي يقوم على نظام العشيرة او القرابة مثلا هو نظام اجتماعي، والمجتمع الاقطاعي الذي

يقوم على العبودية والاستغلال وامتلاك الأرض وما عليها، وكذلك المجتمع الرأسمالي والمجتمع الاشتراكي ومجتمع دويلات المدن هي أنماط اخرى من أنماط النظم الاجتماعية. ولكل مجتمع من هذه المجتمعات خصائص ثابتة نسبيا. وهذه المجتمعات ومؤسساتها الكبيرة لا تدرس منفصلة عن مكوناتها او مجموعة اجزائها التي يؤثر بعضها على بعض، فالمجتمع الذي يقوم على نظام القرابة مثلا تكون فيه الاواصر القرابية على درجة عالية من الأهمية، وتكون الاسرة قاعدة النظام الاجتماعي، فالمعمل الاسري والمزرعة الأسرية هي امثلة للنشاط الاقتصادي الذي يدار بوساطة الاقرباء، والمجتمع بهذا المعنى أسريّ بامتياز، حيث تقوم الاسرة بمسؤولية حفظ النظام بين أعضاءها، تنتج الطعام وتحدد الواجبات الدينية والدنيوية، وفي هذا النظام يعتمد الاقرباء على بعضهم، يساعدون بعضهم ماديا ومعنويا ويشتركون في تقاسم الافراح والاحزان، كما ان لديهم منظومة قيم تحدد العلاقة بين الصغار والكبار والنساء والرجال والاقارب والاباعد ضمن النسق القرابي. وعلى النقيض فان المجتمع الحديث يقوم على الفردية اكثر من الاسرة الممتدة التي بدأت تختفي، ولكنه هو الاخر يمتلك مؤسسات وأنساق ونظما فرعية تؤثر بعضها على بعض؛ فالمؤسسة الاجتماعية للطب الحديث مثلا، يتم تناولها عن طريق المختبرات، وصناعة الادوية، وردهات المشافي وعيادات الأطباء، ومن هذه المكونات يمكن استطلاع تأثيرها على العلاقات بين الأطباء، والممرضات، والفنيين والاداريين كما يمكن استقصاء تأثيرها على العلاقات بين الصيادلة والأطباء، ووكالات الرقابة الحكومية، ونمط العلاقات هذا يؤثر بدوره على نمط النشاطات في

المشافي، كما ان قبول او رفض الأطباء استخدام عقاقير جديدة لها تأثير على شركات صناعة الادوية، وهكذا يمكن دراسة المجتمع الطبي عبر اجزائه التي ترتبط ببعضها بطريقة الاعتماد المتبادل، وهو في ذلك لا يختلف كثيرا عن المجتمع القرابي الا من ناحية تعدد الأجزاء وتنوعها ودرجة تقسيم العمل وطبيعة النشاط. (Ballantine & Roberts 2009, Broom et al 198l).

لغز الحياة الاجتماعية Puzzle of Social Life

مازال الانسان اكبر لغز على هذا الكوكب، اكتشف القارات وقاع المحيطات وتوغل بعيدا في الفضاء؛ اخترع أجهزة وأدوات قياس وأدوات تواصل تفوق الخيال، صنع وسائل تدمير يمكن ان تقضي على الحياة في دقائق، بنى مدنا عملاقة وطائرات اسرع من الصوت وسفنا تجوب المحيطات، لكنه حتى اللحظة لا يعرف لماذا يتصرف عندما يكون منفردا بطريقة تختلف عن تصرفه عندما يكون في حشد، ولماذا يختلف سلوكه في حفل راقص عن سلوكه في مكان عبادة، ولماذا يسلك سلوكا متحفظا مع والديه ولا يفعل ذلك مع اصدقائه، ولماذا يكون تصرفه مع رئيسه في العمل مغايرا لسلوكه مع مرؤوسه. علماء الاجتماع يحاولون منذ أكثر من مائة سنة معرفة الأسباب التي تجعل الجماعة تتصرف بوصفها وحدة اجتماعية متعاونة أحيانا ومتصارعة أحيانا أخرى، تحاول معرفة لماذا يعاقب الانسان بشدة عندما يرتكب عملا اجراميا ولكنه يكون خارج المساءلة القانونية عندما يمتلك القوة والسلطة ويقتل الالاف او يسلب حريتهم، ولماذا يقتل الانسان انسانا اخر لا يعرفه اثناء الحرب ويكون القاتل بطلا وتعلق على

صدره الاوسمة والنياشين. ولماذا يحتكر بعض الناس السلطة والثروة فيما يعيش اخرون على الهامش، لماذا تعمل الشائعات عمل البنادق او تتفوق عليها أحيانا. هل تعد هذه الظواهر الاجتماعية الغازا تحتاج رموزها الى تفكيك؟ الناس العاديون لديهم معرفة وفهم للحياة العائلية، والنظام التربوي، والعمل، الاعلام والدين، لأنهم ببساطة يعيشون أعضاءً في مجتمع، وهذا يقود بعض الناس الى الاعتقاد بان الموضوعات التي يدرسها علم الاجتماع هي في الحقيقة من البديهيات التي يعرفها الجميع. وهذا اعتقاد خاطئ. علماء الاجتماع اثبتوا عبر ابحاثهم ان فكرة البديهيات فكرة باطلة. فمثلا فكرة، لا يوجد فقر في المجتمعات الاوربية الحديثة، لان الفقراء والعاطلين عن العمل هم كسالى، وان هناك فرص متساوية في الحياة، وان الأغنياء اغنياء لأنهم مثابرون في العمل، وان الرجال طبيعيا متفوقون على النساء، وان الرجال والنساء يحبون بعضهم ولهذا يعيشون مع بعضهم، هذه البديهيات تأكد بطلانها بأدلة ميدانية. المشكلة الأخرى للبديهيات انها ترتبط بقوة بمعتقدات شعب من الشعوب في زمان ومكان معينين ولا يمكن تعميمها على باقي الشعوب، فمثلا ما يراه شعب "الهوبي " أحد مكونات شعب الهنود الحمر عن أسباب نزول المطر يختلف كليا عما يعتقده مدرس فيزياء او ربة بيت امية او رجل دين. شعب الهوبي لديه رقصة المطر التي تستحث الهة المطر لانزال الغيث، ولكن مدرس الفيزياء لديه تفسير علمي يقوم على أساس اصطدام بخار الماء بطبقات باردة في أعالي الجو تتسبب في احداث المطر.

خلاصة Conclusion

الحصيلة التي نخرج بها في هذا الفصل هي ان الظاهرة الاجتماعية التي تحدث لها ما وراءها، أي ان الظواهر ليست كما تبدو، هناك دائما الوجه غير المرئي والذي يحتاج الى مجهود وخبرة علمية للكشف عنه. التدريب الأكاديمي الناقص يمكن ان يقدم لنا باحثين ينظرون في الأشياء بنصف عين، باحثين يتوقفون في منتصف الطريق يتلفتون الى الوراء بحثا عمن ينقذهم من الورطة، لان تأهيلهم ناقص، وتدريبهم ناقص وتفكيرهم ناقص. المعرفة العلمية للإنسان والثقافة والمجتمع تحتاج الى تواصل معرفي مع الاخرين في حقول المعرفة الأخرى، في البلدان الأخرى وربما في الكواكب الأخرى، والا سيبقى الباحث في حدود الرطانة التي لم يفهم نصفها في سني التحصيل الأكاديمي.

التعريف بالقيم الذاتية وعلم الاجتماع الذي قدمناه لا يكفي لرحلة طويلة الأمد، انه مجرد تعريف ضمن مئات التعريفات التي كتبها مفكرون في هذا الحقل، ولكن ربما تكون الخطوة الأولى سببا ليس فقط في التعرف على خصائص العلم ولكن في انشاء علاقة عاطفية معه. كثيرون سيقرؤون نصف المقدمة ثم يرمون الكتاب بأكمله خلف ظهورهم. والقراءة المجزأة لن تترك لدى القارئ اثرا عندما يدخل الميدان. وكثيرون أيضا يكتفون بقراءة عنوان الكتاب ثم يدخلونه عالم الرفوف، وعندما يحتاجون اليه في ابحاثهم ودراساتهم ومحاضراتهم سيجدون صعوبة بالغة في العثور على المعلومة التي تنقذهم من الرطانة التي تعايشوا معها عمرا.

ليس عبثا ترديد البعض قول المتنبي "وخير صديق في الزمان كتاب" واني لأشفق على الجيل الرقمي الذي تعرض لغزو الشبكة العنكبوتية التي اخذت منهم الكتاب واستبدلته بمقولات وخزعبلات والغاز، حتى اصبحت قراءة كتاب عادة قديمة بالية يجب نسيانها، وجل ما اخشاه ان يتحول قارئ الكتاب الى فارس من فرسان العصور الوسطى في ندرته ومثابرته وشجاعته.

الفصل الثانى

مفهوم القيم الذاتية فى المجتمع المعاصر

Contemporary Society

تعريف القيم الأخلاقية

هى مجموعة المبادئ والقواعد والضوابط والمعايير الإيجابية التى تقوم بتنظيم سلوك الفرد والمجتمع وهذه القيم الأخلاقية دائماً تستمد من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة العطرة والتى دائماً يمارسها الإنسان فى حياته اليومية ، وتتمثل القيم الذاتية العليا فى ثلاثة أبعاد وهذه الأبعاد هى :

القيم الدينية

القيم السلوكية الذاتية

القيم الإجتماعية

فالقيم الذاتية العليا تعد من القواعد المهمة والتى تشغل تفكير كبير جدا من قبل العلماء والمفكرين وذلك لأن هذا الموضوع له أهمية قصوى للعملية التربوية وعادات وتقاليد المجتمع .

مفهوم القيمة الذاتية العليا .

القيمة لغة : جمع قيمة : من " قوم أو قوم " و " قام المتاع بكذا " أى تعدلت قيمته به وهى من الفعل " قام " ومصدره (قوم) ولها عدة معانى منها " قوم العود فإستقام " أى عدله فإعتدل و أصبح مستقيماً (الزمخشرى ١٩٩٨) .

كما ذكر أيضاً أن القيم مصدر بمعنى الإستقامة ،والإستقامة :الإعتدال يقال استقام له الأمر ومن ذلك ، إن اللذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون (سورة فصلت ٣٠) ، ومعنى قوله تعالى (استقاموا) عملوا بطاعته ، ولزموا سنة

نبيه صلى الله عليه وسلم ، وفى الحديث الشريف : " قل أمنت بالله ثم استقم " (النسائى ٢٠٠٠-٢٥٦) .

يتضح مما سبق أن القيمة الذاتية فى اللغة لها معان كثيرة ألا وهى :

معنى الإستقامة

التقدير ، تقول هذه السلعة لها قيمة أو قدرها كذا أو تقديرها كذا.

الثبات ، أن يكون الأمر له ثبات ، أو تقول فلان ماله قيمة ، أى ماله دوام على الأمر وثبات (السقيلى ،٢٠١٢) .

أنواع القيم الذاتية

قد تكون القيم الذاتية محددة وتعنى هنا القيم المتوارثة من الأهل والأجداد مثل تكريم الأب والأم أو مثلا إمتلاك منزل أو سيارة وقد تكون هذه القيم أكثر عمومية وشمولية مثل الديمقراطية والصحة والحب وهناك نوعين أساسين من القيم هما :-

القيم الإجتماعية .

وهى القيم المتعارف عليها داخل المجتمعات وهى عبارة عن مجموعة من المعايير المجتمعية التى تقوم على العدل والمساواة داخل المجتمع .

القيم الفردية .

وهى القيم التى تهتم بتنمية شخصية الإنسان الذاتية وتمثل المعايير الشخصية الداخلية وحمايته كالصدق والولاء والأمانة والشرف .

وهناك أنواع كثيرة جداً من القيم الذاتية والأخلاقية منها :

القيم الدينية

القيم الشخصية

القيم المهنية

القيم الروحية

القيم الأخلاقية

وتمثل الأسرة أكبر و أول مصدر للقيم الذاتية حيث يحصل الطفل على قيمته الاولى من الأسرة .

جنون التطور Madness of Development

بعد منتصف العقد التاسع من القرن العشرين، حدثت تطورات تكنولوجية ساهمت في تغيير شكل المجتمعات البشرية تغييرا شاملا. على مستوى المجتمع الواحد تبدلت العلاقات الشخصية، ومنظومات القيم والأخلاق العامة والعلاقات المؤسسية ووسائل الاتصال والضبط الاجتماعي. وعلى المستوى الاوسع صار العالم أصغر من علبة كبريت، وصار بمقدور أي شخص معرفة عادات الشعوب وطبائعها بضغطة زر وفي دقائق. والمؤسف في هذا التطور ان الفجوة بين العالم الأول (الدول المتقدمة) والعالم الثالث (الدول النامية) ازدادت اتساعا. وبفضل هذا الاتساع صارت الهيمنة على الدول اقل كلفة وأكثر فعالية، فانكفأت الدول الفقيرة وتحولت الى كانتونات مستهلكة تتلقى الأوامر عبر اجهزة استشعار عن بعد، فاذا عزمت على التصرف باستقلالية مورست عليها ضغوط اقلها التجويع وأشدها التشريد كما حدث لدول مثل العراق وأفغانستان وليبيا وسوريا واليمن وقبلها الصومال ودول البلقان واوغندا وكوريا الشمالية وغيرها. ومن تأثيرات التطور السريع تبني المجتمعات الأقل تطورا بعض مفاهيم المجتمعات الأكثر تطورا وعاداتها وقيمها، فمثلا المجتمعات العربية التي

نكصت الى الوراء بعد ان استشعرت التحدي القيمي ولاذت بالمظاهر الدينية الشكلية زيا وشعارا وليس سلوكا وفعلا، لم تستطع مقاومة عملية التلاقح الثقافي التي كانت تتغلغل سرا لتقويض المعايير القيمية العربية بصمت، فالعلاقة بين الاناث والذكور في المجتمعات المتطورة تحدث خارج مؤسسة الزواج كما يحدث في عالم الحيوان، فحيثما يلتقي اثنان ويعجب احدهما بالآخر فانهما يذهبان لتكوين علاقة تشبه الزواج ولكنها سرعان ما تنفلت ويذهب كل منهما للبحث عن شريك جديد وتتكرر العملية فتصبح الاسرة المستقرة نسبيا في حكم اللاغية، في البلاد العربية بدأ الناس يحتالون على القيم الدينية والاجتماعية وصاروا يمارسون السلوك نفسه عبر مسميات مثل الزواج العرفي وزواج المتعة وزواج المسيار، وهي تماما تشبه علاقة (Boyfriend & girlfriend) ولكن بحيلة شرعية. التغلغل الثقافي لم يقتصر على تسميم المؤسسة العائلية وانما تسرب نحو تسميم المؤسسة السياسية والمؤسسة التربوية والمؤسسة الدينية ومنظومة القيم الأخلاقية بكامل عدتها وعديدها. في النهاية سيتم تغييب الاسرة تماما، واضعاف الدين الى اقصى حد ممكن وتقليل كفاءة التعليم الى حد التجهيل، والعملية ماضية بهذا الاتجاه ليتشكل مجتمع قائم على الفردية المطلقة فلا الاب ولا الام ولا المدرسة ولا المسجد بمقدورهم إيقاف العجلة التي يركبها الشباب متأثرا بما يرى من انحلال في المجتمعات المتطورة. وبالنتيجة ستظهر اثار امراض المجتمعات المتطورة علينا، وان كان بعضها بدء فعلا بالظهور، مثل انتشار المخدرات وزيادة اعداد الولادات غير الشرعية وتجارة الجسد والجريمة المنظمة والاعتداء على الحقوق العامة، هذا الى

جانب الامراض النفسية لدى الأطفال غير الشرعيين والأطفال الذين يعانون من الحرمان العاطفي بسبب التفكك العائلي. هذه هي "العولمة" التي ستقودنا الى اللامكان.

الإحساس بالمجتمع Making Sense of Society بغض النظر عن درجة تطور المجتمعات ودرجة تعقيدها، فان الانسان سوف لن يتحول الى كائن فضائي يتحرك بطريقة مبرمجة الكترونيا، سيبقى بحاجة الى المجتمع. ربما تتغير درجة الامتثال للمعايير، وربما تتغير انماط الاسرة وربما تتبدل العادات والتقاليد ولكن يبقى الانسان كائنا اجتماعيا كما كان منذ الازل، لا يستطيع ان يحيا في فراغ ولا في فوضى تامة. لقد أدرك دوركهايم مبكرا اول لغز حقيقي للحياة الاجتماعية فالأفراد يموتون، ويولد غيرهم والمجتمع يستمر، انه تماما مثل النادي الرياضي الذي يحتفظ فريقه بخصائصه واسلوبه في اللعب عبر الزمن، على الرغم من ان لاعبيه ومدربيه يذهبون او يستبدلون بغيرهم. ربما يحدث مدرب او لاعب تغييرا جوهريا على مستوى أداء الفريق وأسلوب لعبه ويقوده الى نجاح او اخفاق. بالطريقة نفسها يعمل المجتمع، افراد يذهبون واخرون يأتون، أشياء كثيرة تستمر عبر الزمن، مثل اللغة، والكتابة، والدين، والاسرة، والملكية الخاصة، والادب، والطرز المعمارية والاحساس بالتاريخ والهوية، وهذه أيضا قابلة للتغير والتبدل والتحول، ولكنها تبقى تحت العنوان نفسه، لذلك من الخطأ التفكير بان مؤسسات المجتمع يمكن ان تكون قيدا على الفعل الفردي، ربما تكون المعادلة معكوسة فمؤسسات المجتمع تعمل على جعل الحياة الاجتماعية ممكنة، وتزود الافراد باللغة التي تمنحهم القدرة على الاتصال

والتفاعل، قد تتغير اللغة أيضا ولكن الاتصال والتفاعل عبر اللغة سيبقى ابديا، واللغة احدى مكونات الثقافة، لذلك فان الثقافة ستبقى بكل مكوناتها وستستمر بتزويد الافراد بالمشتركات. ابعاد المجتمع وإحلال الفرد محله لن يجعل الفرد حرا لان الفرد بحاجة الى المجتمع لكي يبقى انسانا او كما قال كارل ماركس (Marx 1976:174) الانسان ليس كائنا مجردا يعيش خارج العالم، الانسان عالمه الانسان والدولة والمجتمع Man is the world of man, the state, and society. لهذا لا يؤيد اغلب علماء الاجتماع حياة الفوضى، ولكنهم يدفعون باتجاه تغيير مؤسسات المجتمع واصلاحها. لنأخذ مثلا العلاقة بين الإباء والابناء والتي تمثل حجر الأساس في بناء المجتمع، قد لا يكون القارئ أبا، ولكنه حتما ابنا او بنتا لأبوين، وهما اللذان يعلمان الأبناء القيام بأدوارهم. والسؤال هو ما الذي يجعل بعض الأبناء جيدين وبعضهم سيئين؟ على افتراض ان الابوين تعرّضا لازمة مالية او صحية وأصبحا بحاجة الى مساعدة الأبناء. هل هم ملزمون بتقديمها لهما؟ في المجتمع الصناعي المتقدم ربما يتعرض الأبناء لضغوط من موظفي الخدمة الاجتماعية لإعانة الابوين، فان لم يفعلوا وغالبا لا يفعلون فان السلطات المحلية قد تقدم بعض العون او تستخدم مدخرات الابوين لمساعدتهما. قد يشعر بعض الأبناء بان عليهم التزاما لمساعدة الابوين، لكن ذلك لا يحدث بفعل ضغط اجتماعي وانما بفعل ضغط أخلاقي. الموقف ربما يكون مختلفا جدا في المجتمعات الأقل تقدما والتي ليس لديها نظام رعاية اجتماعية فعّال لاسيّما في البلاد العربية، حيث ان سمعة الاسرة تعتمد كليا على التوقعات الاجتماعية، فان تردد الأبناء عن مساعدة الوالدين فانهم

ولاشك سيتعرضون لعقوبات اجتماعية (وليست عقوبات رسمية)، عقوبات قد تأخذ شكل الإدانة، او الاستهجان او النظر اليهم بنظرة دونية، وقد تصل العقوبات الى الإهانة المباشرة على مرأى ومسمع افراد المجتمع المحلي، ثم تضرب بهم الامثال للتندر ولتذكير الأبناء بالتزامهم الأخلاقي إزاء الابوين "هل تريد ان تكون مثل فلان الذي ترك امه في المشفى وهو يملك ما يكفي لعلاجها" او "مثل ابن فلان الذي ارسل ابوه لدار العجزة إرضاء لزوجته" مثل هذه العقوبات ستكون روادع للآخرين. ولكن في مجتمع يتجه بقوة نحو الاسرة النووية ونحو الفردية، من المتوقع ان تضعف الروادع الأخلاقية، لاسيما وان خصائص المجتمع المحلي في المدن الكبيرة بدأت تتلاشى وتتحول الاسرة الى وحدة مستقلة وبالتالي ستتولد انماط قيمية جديدة وتوقعات جديدة يكون فيها الأبناء في منأى عن الضغوط الاجتماعية، ويكون على الإباء تامين حياتهم عند الكبر او الحاجة بعيدا عن التوقعات.

في سياق ذلك يقترح علماء الاجتماع (Bilton et al 2002) ان تقوم الهيأة الاجتماعية وأصحاب القرار بإجراءات صارمة لتعزيز قيم اجتماعية مرغوبة للوقوف بوجه التغيير الناتج عن الحريات الفردية السائبة، لكيلا تظهر حركات مثل "طالبان والقاعدة" والحركات المتطرفة الأخرى لتفرض أنظمة بطريركية ظالمة تعود بنا قرون الى الوراء بحجة مواجهة الأفكار الغربية او تعمل كأنها رد فعل على غياب منظومات القيم التي تحمي الانسان وتحمي المجتمع من الانحلال والتفكك.

وفي ضوء ذلك فان السلطة الاجتماعية وسلطة الدولة يمكن ان تؤثر على المجتمع تأثيرا بالغا. أحيانا تفسر بعض الأشياء خطأ، حيث تعد بعض

القضايا الكبيرة وكأنها خارج السيطرة، او هي قدر كُتب علينا، مثل ظهور داعش ISIS او الفقر او الجهل او المرض، ولكن عند النظر اليها بإمعان نجد انها ليست ظواهر طبيعية لا يمكن السيطرة عليها، ولكنها مشكلات من صناعة البشر لها علاقة بالفساد الاقتصادي، والسياسي والثقافي. وامثلة ذلك كثيرة في الغرب وفي الشرق. ففي البلاد المتطورة، ظهر جنون البقر mad cow diseases وانفلونزا الخنازير (Swine flue) وانفلونزا الطيور (Avian Flue) وفيروس الايبولا (Ebola)، يقابها الفقر والمرض وتخلف البنى التحتية، وسوء التعليم والخدمات العامة، في البلدان النائمة، وكلا منهما سببه الفساد السياسي والاقتصادي.

عدد كبير من علماء الاجتماع (Dürrschmidt &Taylor 2007, Giddens 1990) بدأوا يقرعون أجراس الخطر، الى اننا نشهد مرحلة انعدام الثقة بالسياسيين، والعلماء وأدوات السلطة، فالحقبة الحالية دخلت مرحلة العلمانية التامة، وانحسار السلطة الدينية، فيما عدا المساهمة الشكلية في ممارسة الطقوس او المناسبات الدينية، كما ان هناك تناميا ملحوظا في تآكل الثقة في قواعد اجتماعية تقليدية كمؤسسات الدولة، والعلوم، والمهنيين Professionals. في بلادنا العربية سار أغلب رجال الدين فيها على نهج نظرائهم في البلاد المتطورة فحولوا الدين الى لعبة خادعة عن طريقها تم تدمير المجتمع وافساد مؤسساته وذلك عندما لبس اللصوص عمائم واستخدموها لتهريب المخدرات؛ او عندما يؤدون الصلاة والصيام والحج حفاة عراة وتحت جلودهم سكاكين حادة يطعنون بها المجتمع والدين وأصحاب اليقين من الخلف. ان انعدام الثقة بالسياسيين ورجال السلطة

مسالة تقليدية يمكن لحد ما قبولها ولكن انعدام الثقة برجال الدين في مجتمع متدين بالعادة خطير جدا، ذلك لان الدين هوية الانسان والمجتمع وإذا فقد المجتمع هويته تحول الى ما يشبه القطعان الشاردة. علماء اجتماع مثل عالم الاجتماع الألماني Ulrich Beck (1992) حذروا من ان المجتمع المعاصر مجتمع معبأ بالشكوك، متزعزع وغير آمن وهو على حد تعبير العالم Beck مجتمع خطر Risk Society، فعندما يسّوق لنا لحم فاسد وبيض منتهي الصلاحية وفاكهة معدلة جينيا ومنتجات مسرطنة عندها يكون الخطر وانعدام الثقة في قلب الصناعة والزراعة والسياسة والدين وعندها أيضا يكون المجتمع البشري بلا شك على حافة الهاوية. Bilton et al (2002)

هذه صورة المجتمع الحديث، فهل ارتبط الخطر بالحداثة وما بعد الحداثة ثم العولمة؟ لنقف أولا عند مفهوم علم الاجتماع الانعكاسي قبل الوقوف عند اشكالية الحداثة والعولمة.

علم الاجتماع الانعكاسي Reflexive Sociology

علماء الاجتماع الأوائل كانوا يظنون ان علم الاجتماع سيمكنهم من التنبؤ بما سيحدث للمجتمع، ولكن ثبت ان ذلك مجرد طموح، بيد ان هذا الفرع من فروع المعرفة يمكنه المساعدة في فهم لماذا تتجه الأشياء هذا الاتجاه وليس باتجاه اخر، كما يمكنه المساعدة في التفكير ببدائل خلاقة، لهذا السبب أراد علماء الاجتماع المعاصر ان يكون علم الاجتماع علما انعكاسيا. لقد حاولوا فهم المجتمع، ثم عملوا على ضخ المعرفة التي اكتسبوها للحياة الاجتماعية.

يقول جدنز (Giddens 1991: 38) "*الانعكاسية في الحياة الاجتماعية الحديثة تتجسد في حقيقة الممارسة الاجتماعية، التي تتعرض للامتحان بشكل دائم وتعيد تشكيل نفسها في ضوء المعلومات عن اولئك الذين يقومون بالفعل الاجتماعي، ولذلك فأنها تعمل على تبديل خصائصها مؤسسيا مما يستلزم ان نكون على درجة من الوضوح بشأن هذه الظاهرة، فكل اشكال الحياة الاجتماعية جزئيا تتشكل بوساطة المعرفة التي يمتلكها الفاعلون Actors، معرفة كيف تمضي الأشياء قدما... في كل الثقافات الممارسة الاجتماعية تتبدل بشكل تلقائي في ضوء الاكتشافات المتسارعة*" وعلى هذا فان التأثير الفعلي للعلوم الإنسانية سيكون عميقا ولا يستغنى عنه، المجتمعات الحديثة ومؤسساتها تشبه مكائن عاقلة تجمع المعلومات من اجل الوصول الى الفهم الشامل لنفسها. المجتمعات القادرة على الفعل الانعكاسي وحدها القادرة على تعديل مؤسساتها في وجه التغير المتسارع، وهي وحدها القادرة على مواجهة المستقبل بثقة، وسيكون علم الاجتماع الوسيط الرئيس في هذه الانعكاسية.

وعلى أي حال، ان مفهوم علم الاجتماع الانعكاسي ليس اكتشافا عبقريا، ولكنه يمكن ان يساعد على إدراك اهمية الفهم الاجتماعي في عالم اليوم. ولم يقل جدنز فيما تقدم ان علماء الاجتماع يعرفون الاحسن وفي الوقت نفسه لم يقل انهم لا يستطيعون التخطيط للتنمية الاجتماعية. ولكنه أراد ان يقول ان الناس الذين يقومون بتغيير المجتمع ليس علماء الاجتماع، وانما أعضاء المجتمع الذين يملكون نوعا من السلطة والادارة والقدرة على التنفيذ. المعرفة العلمية للمجتمع مصدر يمكن لهؤلاء الاعتماد عليها عندما

يريدون القيام بإحداث تغيير اجتماعي. وفي كل الأحوال فان برامج الإصلاح او الثورة ليست الوحيدة التي تستخدم المعرفة الاجتماعية، وانما كلنا نحتاج إطار عمل معرفي لتفسير عالمنا والعمل من اجله، لذا فان علم المجتمع هو مصدر مهم واحد من بين العديد من مصادر المعرفة، وهذا يعني ان علم الاجتماع لا يقوم بدور الناقد بالنيابة عن افراد المجتمع، ولا يحدد لهم مسار مستقبلهم. ومع ذلك فان علم الاجتماع له بعد نقدي يمكن ان يقدم للناس فهما أفضل لموقعهم الاجتماعي، لاسيما لإصحاب القرار الذين يملكون السلطة والثروة وإمكانيات التغيير.

منذ نصف قرن أكد كولدنر (Gouldner 1971) على ازمة علم الاجتماع الغربي، معارضا بشدة التركيز على النظام الاجتماعي واستمراريته لصالح دراسة التغير والصراع والتجديد الاجتماعي عن طريق الفعل، وكان الحل الذي قدمه إيجاد علم اجتماع انعكاسي، وهو المناسب لعالم اليوم. ومنذ ذلك التاريخ أصبح اغلب علماء الاجتماع أكثر حذرا في التعامل مع فكرة دور علم الاجتماع الرائد في التغيير الجذري، وبدلا من ذلك اتجهوا لتبني ما قاله انتوني جدنز (Giddens 1984) عن فكرة إعادة تدوير Recursiveness المعرفة الاجتماعية، ذلك ان المعرفة الاجتماعية قطعا ليست محايدة كليا او مستقلة بسبب انها تستخدم بوساطة أناس يعملون على تفسير مجتمعهم وإعادة تشكيله، وهذا هو المجتمع الذي يقوم علم الاجتماع بدراسته، لهذا فان دراسته تحتاج الى تجديد، والمعرفة الجديدة ينبغي ان يعاد تدويرها للحياة الاجتماعية.. التفاعل الحلقي او الدائري Looping interactionبين علم الاجتماع والحياة الاجتماعية له نتائج غاية في

الأهمية، لذا يتعين على علماء الاجتماع العمل من اجل تزويد الحياة الاجتماعية بالمعرفة المتجددة عن مجتمع مؤقت وسريع التغيير، وهذا التغير السريع لا تنفع معه القوالب الجاهزة، وعليه فان علم الاجتماع كما يقول بومان (Bauman 1992:213) ينبغي ان يكون "اشبه بدوامة في نهر سريع الجريان، دوامة تعيد تشكيل نفسها باستمرار وتبدل محتواها طوال الوقت، وعلم الاجتماع بهذا المعنى يقوم بتسجيل الاحداث، وتفسيرها واعادتها للمجتمع نفسه".

خلاصة Conclusion

المجتمع المعاصر وصل الى نقطة اللاعودة، فمن الحداثة التي بدأت أصلا مع بداية الثورة الصناعية الأولى الى ما بعد الحداثة او الثورة الصناعية الثانية وصولا الى العولمة، هذه المراحل المتعاقبة كانت بمثابة حربة في خاصرة الانسان والبيئة. والتطور المجنون في تسارعه واندفاعه وانتشاره، سحق ملايين الناس في طريقه ومازال يسحق الملايين وستستمر عجلة التطور في سحق كل أنواع الحياة على الأرض. لقد دفع 150 مليونا من شعب الهنود الحمر ثمن التطور الذي قادته الرأسمالية، التي انتصرت في النهاية على الاتحاد السوفيتي، ووضعت أفكار كارل ماركس في ثلاجة حتى اشعار اخر كما يقول فوكو ياما. يجب ان نعترف ان التطور امر لازم وحتمي لاستمرار الحياة، المشكلة ليست في التطور ذاته المشكلة في الانسان الذي يقود عجلة التطور، ليس الانسان الالي الذي خلقته التكنولوجيا وليس الانسان القادم من كواكب أخرى، انما الانسان الذي يتقن فن الصراع ويتفنن في ابتكاراته من اجل التفوق والغلبة، الانسان الذي يعمل على

استخدام اسنانه الحديدية، ومخالبه ومكائده من اجل الحصول على السلطة والثروة، وهذه الأخيرة سبب كل الشرور التي خلقها التطور. وإذا كان العالم منقسما الى فقراء واغنياء، حكام ومحكومين، رؤساء ومرؤوسين فان العدالة ظلت غائبة ابدا. لقد قامت الثورة الصناعية على عرق العبيد ودموعهم، واستمرت عملية الاستعباد حتى بعد تحرر العبيد، وحتى بعد حصولهم على تامين صحي ومعاش وسرير للنوم، فقد كان عليهم ان يحملوا وحدهم اوزار التطور. العبودية التي رافقت الثورة الصناعية الاولى بشكلها الفض، انتفضت على نفسها بعد حربين عالميتين مدمرتين وشرْعت تشريعات حماية إنسانية، ولكنها سرعان ما عادت الى سيرتها الأولى مع تراكم راس المال الذي زاد من حّدة الاسنان الفولاذية لأصحابها، الذين عملوا على نهش الأرض وما عليها من اجل مصالحهم، وليذهب الجنس البشري كله الى الفناء. لقد كان العالم الألماني دورشميدت محقا عندما وصف مجتمع ما بعد الحداثة على انه مجتمع القرون الوسطى، في إشارة الى درجة وحشيته واندفاعه الاهوج نحو تحقيق الربح باي ثمن. الشعوب الفقيرة في اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية، تقاوم الإبادة بأسلحة بدائية، والعولمة اخر مراحل الجنون التطوري، أرسل اصحابها مصانعهم العملاقة لهذه الدول الجائعة برفقة اساطيل مجهزة بكل أنواع الأسلحة، وعادوا الى استغلال الأرض وما عليها بمنطق العبودية التقليدي نفسه، ساعات عمل طويلة، أجور عمل زهيدة، ومن دون تشريعات ضد التلوث البيئي، ولا الرعاية الصحية، حتى صارت دول بكاملها مقابر للنفايات، ومنها العراق وبلدان عربية وأفريقية ولاتينية اخرى، هذا الى جانب الهيمنة المباشرة

وغير المباشرة، ونشر الرعب النووي والفيروسات الصناعية المعدلة في المختبرات. والان السوق العالمية الموحدة والثقافة العالمية الموحدة التي تقوض الإرث الثقافي للشعوب وتدمجها بما يشبه الماشية في نظام عالمي جديد... اظن ان العولمة وما يرافقها من مخاطر ستقود المجتمع الإنساني كله وليس الفقراء فقط الي الهلاك الحتمي.

لقد تعرفنا في هذا الفصل على ملامح التطور الذي اوصلنا الى ما اسماه عالم الاجتماع الألماني Beck بمجتمع المخاطر، الذي بدأ يقحم المجتمع البشري في المجهول، والذي بدأ يبذر بذور موته المؤجل الى حين، ولكن اليس هذا نتيجة حتمية لأسباب ثقافية وايديولوجية ونفسية. إذا كان الامر كذلك فان الحكمة تستدعي البحث في أصل ثقافة القيم ومصادر قوتها وضعفها وهو ما سيكون موضوع الفصل القادم

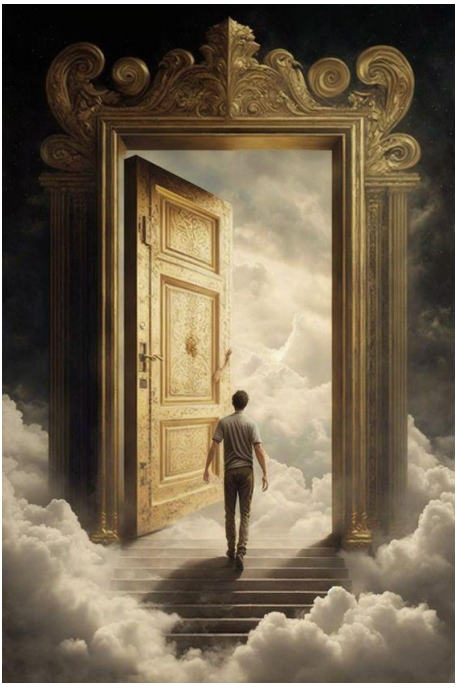

الفصل الثالث

قيم ذاتية ومتجهات ذاتية

الثقافة والتنشئة

Culture and Socialization

إن كلمة القيمة توقع فى اناسى عصرنا سحراً يشبه سحر كلمة وجود والتى تكاد لا تنفصل عنها ونحن هنا فى قلب هذه المتاهة من المناقشات التى يتميز بها دائماً الفكر ابان صنعه : وما ان يتم صنع الفكر ، أى ما ان نجاوزه ، حتى يصبح شأن التاريخ أن يعرفه ويلم به ..... (لافيل : كتاب القيم ج١،ص ١٥٨) يتضح اذاً أن علم العادات الأخلاقية وحده لا يكفى ، أجل أنه يحقق تاريخاً ، ويستخلص بصورة خلفية بعض الإعتبارات الثابتة عبر أحوال السلوك الإنسانى فى لحظة معينة ، ولكن هذه الإعتبارات العريضة انما تضمر نظرات وسطية ، وحقائق إحصائية لا تنفى إمكان الإنحراف عنها ومخالفتها فى مستوى الأفراد والحق أن الواقع الحاضر ، الواقع الذى يصنع الآن يقتضى دائماً قدرا من الإبهام ، وحظاً من عدم اليقين ، وأن قراءة الزمن الحاضر ليست علماً ، بل هى تأويل ظروف .

وقد فطن (لفى برول) إلى ذلك من بعد (دور كهايم) ورأى أن علم العادات الأخلاقية ليس سوى مرحلة أولى من مراحل الأخلاق ولابد من أن يستطيل بفن أخلاقى عقلى " يمثل تطلع الماضى والحاضر إلى المستقبل " واستباق الغد استباقاً فاعلاً بإعتماد معرفة الماضى .

والحق أن من أن من الجائزان يستديم علم العادات الأخلاقية بعلم حفظ الصحة الإجتماعى .

غير أن الإنتقال من علم العادات الأخلاقية إلى الفن الأخلاقى العقلى يقتضى تغييرا جذرياً فى الإتجاه ، فعلماء الإجتماع كانوا يحسبون أن الأخلاق هى شئ معطى ، وجملة حوادث راهنة ، ولكنهم اضطروا إلى الإعتراف بأن

الحادث لا يستغرق الواجب ، وأن الأخلاق تظل فناً ، أى أنها تتناول ما ينبغى أن يكون كما يترتب على كل إنسان إلتزامه فى سلوكه وتصرفه .

ولذا فأنه من المحال صرف النظر عن المبادهة الفردية ، وأن لنجد هذه النتيجة عينها فى بحوث (دور كهايم) ونلاحظ أنه قرر أولاً أن الأخلاق ليست من صنع الأفراد ، بل هى من صنع المجتمع .

ولكنه عاد إلى تبيان فكرة إستقلال الإرادة إستقلالاً ذاتياً ، وأوضح أهميتها وضرورتها ، وهذا يعنى أن إستقلال الإرادة الذاتى يمكن الفرد من الكشف عن نظام المجتمع فى ذاته ، وييسر له الإضطلاع بهذا النظام ، وأن علم العادات الأخلاقية يفوز بحقوقه من جديد ، يقول (دور كهايم) : " أننا نبدأ بالشعور بالقواعد الأخلاقية على نحو سلبى ، ونجد أن التربية تحملها إلى الطفل من خارج وتفرضها عيه فتبسط سلطانها ونفوذها ".

ولكن فى وسعنا أن نبحث عن طبيعتها وعن شروطها البعيدة أو القريبة وعن سبب وجودها .

وبكلمة واحدة ، أننا نستطيع أن نتخذها موضوع علم ، فإذا فرضنا ان هذا العلم قد انتهى وكمل ،أصبحنا أسياد العالم الأخلاقى ورأينا أن الأخلاق لم تعد أمراً خارجياً عنا بل هى منذ زمن بعيد عند منظومة أفكار جلية متميزة ندرك جميعاً صلتها وعلاقتها ببعضها البعض غير أن العالم الأخلاقى الذى نتصور اندماجه فى الضمير الفردى على أنه مثل أعلى نشر الجهود الفردية إلى بلوغه إنما يبعدنا بعدأكبيراً عن مفهوم الوجدان الجمعى الذى نعتبر تصوراته المعطاة أشياء تفرض ذاتها على الفرد .

ولذا فإننا فى الواقع نفقد حقيقة علم العادات الأخلاقية ، بالمعنى الصحيح .

والحق أن أثار (دور كهايم) تنم عن مقصد ميتا فيزيائى خفى يود ألا يعترف به ، ذلك أن العلم الإجتماعى الذى يحلم به لا يتصل بالواقع الراهن الحاضر وإنما ينظر نظرة تنبوء إلى هذا الواقع .

يقول : " لنفرض أن هذا العلم قد اكتمل وإنتهى .." وبهذا القول الفلسفى الجرئ ، ينتقل إلى دائرة المفاهيم القصوى ويعرف الأخلاق بأنها نظام إنتصار العقل الإجتماعى .

ومن البديهى أن هذا الإفتراض غريب عن النظر الوضعى لأن علما من العلوم لا يمكن أن ينتهى " ولا سيما أن علم الإجتماع ، هو من العلوم التى ظهرت فى الفترة الأخيرة ، أبعد من سائر العلوم عن بلوغ منزلة " الكمال والنهاية " ولا يزال حتى اليوم يجهد لتحديد موضوعه وطرائقه .

إن علم الإجتماع علم بالزمان وبالتاريخ ، ولذا فأنه لن ينتهى قبل نهاية الزمان والتاريخ ، أى قبل أن يزول البشر أنفسهم .

وقد عرفنا أفكارا جلية متميزة يعلم علاقاتها كلها بعضها ببعض ، وهذا يعنى أن عصر الحرية الإنسانية على وجه الأرض لن يبدأ فى وقت قريب **مضطرون ، رغم ذلك – إلى أن نعيش منذ الأن ونختار قبل أن تتحقق نبؤة دور كهايم وتصوراته المهدية .**

وأن مذهبه ليقع فى عجز كعجز المذاهب الميتافيزيائية ، ويرجو أن نأمل بعالم أخر لولا أننا نقطن الأن فى هذا العالم ، ونحن لا نطيق التريث حتى تتحقق الإرادة المستقلة استقلالاً ذاتياً.

البرمجة الجمعية للعقل

هوفستيد

ماهية الثقافة What is Culture

يصل سكان العالم اليوم الى سبعة مليارات انسان، كلهم بحسب الرواية الدينية من ادم، وكلهم بحسب نظرية التطور من أصل بيولوجي واحد يسمي Homo sapiens او الثدييات العليا. وعلى الرغم من الأصل الواحد تجد بينهم اختلافات هائلة. بعض هذه الاختلافات لها علاقة بالتقاليد، فمثلا، يلبس الصينيون الملابس البيضاء في المآتم، بينما يفضل الاوربيون والعرب اللون الأسود، الصينيون يعدّون الرقم أربعة رقما مشؤوما، بينما يتشاءم الاوربيون والعرب من الرقم ثلاثة عشر، وفي السياق نفسه، يمارس الانكليز عادة تقبيل النساء في الأماكن العامة، العرب الذكور يقبّلون الذكور في الأماكن العامة، وليس النساء، تقبيل النساء بالنسبة للعرب والصينيين في الأماكن الخاصة فقط، الفرنسيون يقبّلون النساء في الأماكن العامة على الخد من الجانبين (قبلة واحدة على كل خد) البلجيكيون يقبّلون ثلاث قبلات على أي من الخدين، اغلب النيجيريين لا يقبّلون، بل بعضهم يعد القبلة شيئا مثيرا للاشمئزاز. في حفلات الزفاف، في العادة يتبادل العروسان الامريكان قبلة طويلة، الكوريون يعطي العروسان بعضهما البعض انحناءة قصيرة، وفي كمبوديا يضع العريس انفه على خد العروس، واذا سافرنا الى أماكن أخرى سندرك حجم الاختلاف العميق في أشياء مثل عادات الطعام وانواعها، الملابس القليلة التي تغطي العورة فقط او الملابس التي تغطي حتى الاظافر، انجاب عدد قليل او كبير من الأطفال، توقير كبار السن او ابعادهم، مسالمين او عدائيين، اعتناق معتقدات دينية متعددة الالهة او اله واحد، الاستمتاع بأنواع مختلفة من الموسيقى، والطعام والرياضة.

باختصار على الرغم من ان الناس من أصل بيولوجي واحد الا انهم استطاعوا تطوير أفكار مختلفة بعضها جذابة وبعضها كريهة، بعضها مهذبة وبعضها غير مهذبة، جميلة او قبيحة، صحيحة او غير صحيحة. هذه السعة من الاختلاف هي ملامح الجنس البشري و هي التي نسميها الثقافة الإنسانية Human Culture. **فما الثقافة،** يقول هوفستيد Hofstede (1991) كلنا يحمل في داخله انماطا من الأفكار، والمشاعر والافعال الكامنة، التي تعلمناها خلال رحلة الحياة الطويلة، اغلبها تكتسب اثناء الطفولة، حيث يكون الانسان في هذه المرحلة أكثر استعدادا للتعلم والتمثيل (الاستيعاب)، وحالما تستقر هذه الأفكار والمشاعر والافعال في عقل الفرد فإنها تخزن وتدخل عالم اللاوعي (النسيان) قبل الشروع بتعلم أشياء مختلفة اخرى. وباستخدام المقاربة الاجتماعية sociological analogy مع الطريقة التي تتم فيها برمجة الكومبيوتر، فان دخول الأفكار والمشاعر والافعال الى العقل، تكون بمثابة برمجة للعقل software of the mind وهذه لا تعني بالطبع ان الانسان يمكن برمجته كما يبرمج الكومبيوتر، ولكن سلوك الفرد يصبح قابل للتنبؤ بسبب دخول البرمجة العقلية التي حدثت بعد رسوخ الأفكار والمشاعر والافعال. وعلى الرغم من ن الفرد لديه قابلية لتعديل البرامج العقلية التي اكتسبها فان مصدر البرمجة العقلية الوحيد هو البيئة الاجتماعية التي ينمو فيها الفرد ويكتسب مكوناتها عن طريق الخبرات المتراكمة للحياة اليومية. البرمجة تبدا أولا داخل الاسرة، وتستمر ضمن حدود الجيرة ثم تتولى المدرسة المسؤولية مع جماعة اللعب والأصدقاء the peer group وأخيرا جماعة العمل. هذه السلسلة من

مؤسسات المجتمع تحقن كل منا بافيون الثقافة على شكل جرعات متوازنة ومتدرجة وتستمر معنا حتى ندخل في الغيبوبة الأبدية. اول جرعة ثقافة ناخذها مع الحليب عندما نخلق قائمة من الرموز تفهمها الام وتستجيب لها، من نغمة الصرخة التي نطلقها تعرف الام - بعملية تواصل عجيبة – اذا كنا نشكو من الجوع او العطش او الحر او البرد او نحتاج استبدال اثوابنا الداخلية او نريد بعض الحنان بالالتصاق بصدر الام او النوم على كتفها او تمريرة يدها على شعورنا او قبلة تطبعها على جبيننا، عملية التواصل الرمزية هذه تعطينا اول تابو Taboo في حياتنا وأول مكافأة ومنها نعرف قيمة الحلال والحرام ومنها ايضا نتعلم التمييز بين الحب واللاحب مثلما نميز بين الليل والنهار، وحين نصل سن العاشرة نكون قد شربنا الثقافة كلها بحيث يصبح من الصعب جدا انتزاعها منا او نسيانها، تصبح موجها لا غنى عنه لسلوكنا اليومي ولكل حياتنا. المدرسة والجيرة وجماعة الأصدقاء وأخيرا جماعة العمل كلها مجتمعة تعزز الأفيون الذي شربناه مع الحليب مع اول كلمات النفي وأول كلمات الاستحسان التي تنطقها الام وهي تغطينا بيد وتربت على اكتافنا باليد الأخرى، وهي تضع يدها تحت الغطاء لتبديد مخاوفنا وتغنينا لكي ننام منذ ذلك الوقت نتعلم متى يتعين علينا ان نحصل على الاهتمام ونتجنب النواهي والزواجر، ومن نغمة صوتها نعرف الجمال ونميزه عن القبح ومن نظرة عينيها نعرف الرضى من الغضب، ونميز الرحمة من الطغيان، كل الذين يأتون بعدها لا يزيدون كثيرا ولا ينقصون كثيرا، مهمتهم الأولى مباركة ما قامت به الام اوالتحذير مما نهت عنه، باختصار الاسرة تبدا وباقي هيئات المجتمع تعزز وتقوي الأساس الذي بنته

الاسرة، هكذا تتسرب الثقافة الينا مثل الهواء الذي نتنفسه بدون وعي وبدون قصد وبدون الحاجة لان تذهب الى البقال لتشتري منه نصف كيلو ثقافة او نصف كيلو هواء، لا تحتاج ذلك لانها تأتي اليك لا شعوريا وانت تأكل على المائدة وانت تراقب أبويك وهما يصليان وهم يتشاجران او يتبادلان كلمات الود، تتعلم السلوك الثقافي عندما تضع قدمك الصغيرة في حذاء ابيك رغبة منك في ان تكون مثله، او عندما تقوم ألبنت الصغيرة بوضع قلم الحمرة على شفتيها لتماثل امها. والبرمجة العقلية تختلف باختلاف البيئة الاجتماعية حتى داخل المجتمع الواحد، فالذي ينشأ في بيئة قروية او في حي شعبي يكتسب برمجة عقلية مختلفة كليا عن البرمجة العقلية لإنسان اخر نشأ في بيئة مرفهة او بيئة موبوءة او بيئة دينية. **عمليات البرمجة العقلية هذه هي الثقافة**. والبرمجة العقلية تتقرر فيزيولوجيا عن طريق الخلايا الدماغية. طبعا لا نستطيع ان نلحظ البرمجة العقلية بشكل مباشر، كل الذي يمكننا ملاحظته هو السلوك: الكلمات والافعال التي نقوم بها والتي تعكس الثقافة التي اكتسبناها Hofstede (2001) وفي السياق نفسه يقول Ballantine & Roberts (2009) كل المجتمعات لديها حدود جغرافية، وفيها يعيش الافراد ضمن جماعات او مجتمعات محلية ويشتركون في برمجة عقلية جماعية "ثقافة". هذا المجتمع بمكوناته المختلفة بما فيها الاسرة والمدرسة وجماعة الأصدقاء والعمل والمؤسسات والذي يزود الافراد بالبرامج العقلية نطلق عليه مجازا الالة او الماكنة Hardware التي تشبه جهاز الكومبيوتر. وعملية تزويد الافراد بالبرامج العقلية software تتم بوساطة التنشئة حيث تنتقل الأفكار والمشاعر والافعال من جيل لأخر بما في ذلك المعارف

والمعتقدات والقيم والقواعد والقانون واللغة والعادات والرموز والمنتجات المادية. والبرمجة العقلية او الثقافة هي التي تزود الافراد والجماعات بدليل للأفعال والتفاعلات بين الأشخاص ضمن المجتمع، ودليل العمل الثقافي الذي يتبعه الناس يمكن ملاحظته في طريقة التخاطب، وعندما يلقي أحدهم التحية على الاخر وفي العادات المتعلقة بالأكل والشرب والملبس. والثقافة بهذا المعنى أوسع بكثير من المفهوم الشائع عن الثقافة التي تطلق على الفن والادب والموسيقى والمسرح وما شاكل. وبعيدا عن التعريفات التقليدية للثقافة يقول Geertz (1995:5) الانسان حيوان معلق في شبكة من الاهتمامات هو الذي قام بنسجها، وهذه الشبكة هي الثقافة، وتحليلها لا يكون بالتجربة العلمية التي تبحث عن قانون يحكمها، انها لا تستلزم أكثر من طريقة تفسيرية للمعنى والوظيفة التي تقوم بها. وبتعبير Macionis & Plummer (2002) انها تصميم للحياة، تنطوي على القيم والمعتقدات والسلوك والممارسات والاشياء المادية التي تشكل طريقة حياة الناس، انها تشبه علبة أدوات toolbox تستطيع ان توفر الحل لمشكلات الناس اليومية. انها جسر للماضي ودليل للمستقبل.

الثقافة المادية والثقافة اللامادية Material & Non-material Culture

لكي نفهم الثقافة فهما شموليا، من المفيد التمييز بين الثقافة المادية والثقافة اللامادية. علماء الاجتماع يطلقون اسم الثقافة اللامادية على العالم غير الملموس للأفكار التي هي صنيعة اعضاء المجتمع والتي تغطي مساحة واسعة من الأفكار تمتد من الايديولوجيا الى العقائد مرورا بالقيم والأعراف والمعايير والأخلاق. اما الثقافة المادية فهي الأشياء الملموسة التي خلقها

الناس بوصفهم أعضاء في مجتمع. وهذه الأخرى تمتد على مساحة واسعة، من التسلح بالسكاكين والخناجر الى الرمز البريدي، ومن الهاتف المحمول الى قصيدة الشعر ومن أدوات الطبخ الى ناطحات السحاب، وكلاهما يتطلب ممارسات على مستوى الفعل الاجتماعي.

الناس هم الذين خلقوا الثقافة وبالمقابل منحوها سلطة فخضعوا لها وصارت هي التي تتحكم فيهم، ولأنها كذلك يقول Macionis & Plummer (2002) أصبح فهمنا للطبيعة البشرية يعني انها صنيعة الثقافة، والواقع ان ماشيونز لديه خلط بين الطبيعة البشرية والطبيعة الاجتماعية. الطبيعة الاجتماعية هي وحدها صنيعة الثقافة، اما الطبيعة البشرية فهي المشتركات بين كل البشر من الاستاذ الروسي الى الفلاح البولندي الى قاطع الطريق الصومالي، انها تمثل المستوى الكوني في البرنامج العقلي للإنسان، انها موروثة جينيا، وإنها تشبه نظام تشغيل الكومبيوتر الذي يقرر وظائف الفرد الفيزيائية والنفسية، قدرة الانسان على تلمس الخوف، والغضب، والحب ايضا، المتعة والحزن والحاجة للآخرين. القدرة على ملاحظة البيئة بكل تناغماتها واضدادها وبكل عوالمها الصاخبة المعربدة وهدوئها الحالم الجميل، كلها تعود الى هذا المستوى من البرمجة العقلية. الطبيعة البشرية في بعضها نتماثل بيولوجيا .... كلنا بقامة مستقيمة وعينين ولسان (مع استثناء ان بعضنا له الف عين والف لسان وربما الف وجه) ولكننا طبعا لا نؤسس على الاستثناءات ولا على التورية التي نعني بها ابعد من محتواها المورفولوجي (شكل كتابة الكلمات ومعناها الظاهر). نتوقف هنا بعض الوقت، لأننا امام منعطف فكري خطير ومهم بنفس القدر، ذلك ان إحساسنا

بالخوف واستجابتنا لباعث الخوف او الحزن او المتعة او الملاحظة تقوم الثقافة بتعديله، فالطبيعة البشرية لا تعني ان الانسان اجتماعي خالص لانه يشترك مع المملكة الحيوانية في كثير من الملامح البيولوجية والسلوكية، ولولا تدخل الثقافة في تعديل سلوكنا لما كان لنا أي امتياز على نظرائنا في المملكة الحيوانية، وقديما قالت العرب ان احدنا لا يخلو من اخلاق البهائم.

وخلاصة القول يمكننا الحصول على أداة غير متعبة للتمييز بين الطبيعة البشرية والطبيعة الاجتماعية عن طريق اختيار الثقافة بوصفها معيارا للتعبير عن مظاهر السلوك المحدد سلفا والذي يوصلنا بهدوء ودون الحاجة الى البحث عن نظريات او مفاهيم كونية لاكتشاف الطبيعة الاجتماعية مقابل الطبيعة البشرية التي تبدو من سياق العرض لها صلة مباشرة بالتكوين البيولوجي ووظائفه الفيزيولوجية. والنتيجة الأكثر أهمية التي نصل اليها على أساس التعميم هي ان الانسان يشبه الناس جميعا (طبيعة بشرية) ويشبه بعضهم (طبيعة اجتماعية). ولا يشبه أحدا (طبيعة نفسية).

الثقافة والشخصية Culture & Personality

يرى الانسان نفسه في مرآة الثقافة عبر سلسلة من عمليات التعلم المستمر عبر التفاعل مع البيئة الاجتماعية، وصورة الانسان عن نفسه تتشكل عبر الخارطة العقلية التي يكوّنها الفرد عن الاخرين وردود أفعال الاخرين على تفكيره وسلوكه. الاخرون هنا يؤدون دور المرآة التي تعكس صورة الفرد، وطريقة تفكيره ومشاعره وتصرفه، وهي الخارطة التي يفسر الفرد عن طريقها لعبة الحياة. هذه الخارطة الادراكية عبارة عن نظام ديناميكي متكامل من التصورات المتراكمة، تتضمن الذات وبيئتها السلوكية، وعندما

نتحدث عن الشخصية الفردية، فإننا نعني بها الخارطة العقلية للفرد عبر الزمن، من هنا فان الشخصية هي نتاج عمليات الثقفنةenculturation التي يكتسبها كل فرد بمكوناته الجينية الفريدة. والشخصية الفردية تتأثر بقوة بمراحل التنشئة المبكرة. علماء الاجتماع وعلماء النفس والانثروبولوجيون يعطون اهتماما مبالغا فيه للطفولة المبكرة وتأثيرها على بناء الشخصية، فمثلا النمط المثالي التقليدي لشخصية الاناث والذكور في المجتمعات الغربية، والعربية وربما اغلب المجتمعات في العالم عدا بعض الاستثناءات، هو ان الرجل ينبغي ان يكون صارما، حاد الطباع، عنيفا ومهيمنا ويمارس دور المعيل او عمود البيت وحامي الاسرة، بينما المتوقع ان تكون المرأة وديعة مسالمة، وطائعة مستجيبة لمتطلبات الذكور ومخلصة وراعية لشؤون الاسرة. هذه الاختلافات في الشخصية بين الجنسين، ينظر لها على انها طبيعية لها علاقة بالتكوين البيولوجي، ولذلك لا يمكن تجاوزها او القفز عليها او تغييرها. والسؤال الذي يسأله علماء الاجتماع والانثروبولوجيا، هل هي كذلك فعلا؟ وهل وجد العلماء اختلافات شخصية شاملة للتمييز بين الاناث والذكور. مارغريت ميد Mead (1963,1970) من الأوائل الذين انشغلوا بدراسة الفروق بين الجنسين عبر الثقافات وفي ابحاثها العديدة اكدت انه لا توجد اختلافات شخصية مطلقة بين الجنسين، وان هذه الاختلافات هي اختراع كهنوتي الغاية منه هيمنة الذكور على الاناث، وأشارت الى ان هناك اثنين من التنظيمات الاجتماعية المتجاورة في غينيا الجديدة، الأولى تكون فيها شخصيات الرجال والنساء معا وليس الرجال فقط شخصيات على درجة عالية من

اللياقة وغير عدوانية، اما الثاني فكلا الجنسين فيه، شخصياتهم ذات نزعة عصبية وعدوانية. ووجدت في غينيا الجديدة أيضا ان هناك مجتمعات يقوم الذكور فيها بتجميل انفسهم ويعتنون بالأطفال ويقومون بإدارة شؤون المنزل، بينما لا تفعل النساء ذلك وانما تخرج للصيد والتسوق فيما يبقى الرجال في ترقب لعودة النساء، وهذه المقارنة تعطي انطباعا بان العامل الثقافي والاقتصادي هو الذي يحدد الأدوار بين الجنسين وليس العامل الطبيعي البيولوجي، كما ان هذه النماذج الاجتماعية-الثقافية توحي بان هناك بدائل لتربية الأطفال تختلف نوعيا عن النظرة التقليدية، وهو ما الت اليه الأمور في المجتمعات الغربية من وجود مساواة بين الذكور والاناث. والحق ان الاناث في الغرب صارت لهن في الاغلب اليد الطولى. وباختصار شديد، الشخصية الفردية هي مجموعة فريدة من البرامج العقلية التي لا يشترك فيها الفرد مع أي شخص اخر، انها تقوم على سمات موروثة جزئيا من ضمن المجموعة الجينية الفريدة للشخص وجزئيا تكتسب بالتعلم، والتعلم يعني التعديل الذي يحدث بتأثير البرمجة الجمعية للعقل (الثقافة) الى جانب الخبرات الشخصية الفريدة. Haviland (1996) وبما ان الشخصية بعامة هي صنيعة الثقافة وبالتالي تعني ان اغلب سماتها قابلة للتعلم والتوارث الثقافي وليس البيولوجي فانها تعتمد على طريقة الثقفنة enculturation، وفي ذلك يذكر وولف Wolf (1966) ان هناك نوعين مختلفين من تنشئة الأطفال الأول التدريب الاعتمادي Dependent training الذي يخلق شخصيات مذعنة ومعتمدة على أعضاء الاسرة الاخرين، والنوع الثاني، التدريب ذو الطبيعة الاستقلالية Independent

training, وهذا النوع من التدريب يقود الى الاعتماد على النفس والاستقلالية والانجاز لدى الأطفال، وهذا هو ما يحدث بالضبط في مجتمعنا العربي حيث يميز الذكر منذ يومه الأول بالوان اثوابه، وطريقة الاحتفاء به، ثم خروجه مع ابيه ونظرائه في باكر حياته فيما تحتجز الانثى خلف اسوار عالية ولا يسمح لها بمرافقة الاب الا في مناسبات نادرة، وحالما تبلغ سن العاشرة لا يسمح لها برؤية الذكور من غير قرابة الدم، وتبقى تحت رقابة مشددة حتى يأتيها "نصيبها" فتدخل في غيبوبة جديدة في بيت زوجها حتى تسقط اسنانها. وإذا ألقينا نظرة على المثلث في الشكل ادناه نجد ان الشخصية تمثل الجزء العلوي من الطبيعة البشرية وصنيعة من صنائع الثقافة. وتبدو الثقافة محورا مركزيا في بناء المجتمع، اذ انها تعمل باتجاهين، تؤثر في الطبيعة البشرية وتهذب فيها الجزء البيولوجي الموروث والذي نشترك فيه مع المملكة الحيوانية، وتعمل في الوقت ذاته على صقل الشخصية وتدريبها لكي تتماشى باتساق مع قواعد المجتمع.

شكل 3-1 يوضح البرمجة العقلية الفريدة للإنسان

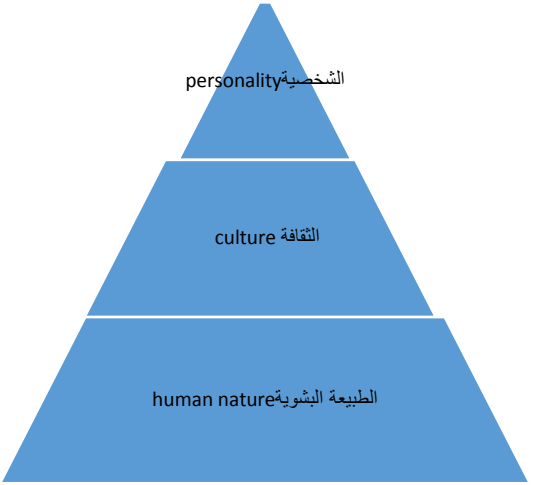

المصدر: Hofstede: Culture and Organization P. 9

النسبية الثقافية Cultural Relativism

دارسو الثقافة يعرفون ان الجماعات والفئات الإنسانية تفكر وتشعر وتتصرف بطرائق مختلفة، ولكن ليس هناك معايير علمية لعد بعضها افضل من بعض. دراسة الاختلافات الثقافية للجماعات والمجتمعات يقتضي ضمنا الاعتراف بالنسبية الثقافية، والنسبية الثقافية تؤكد على ان الثقافة المعينة لاتملك محكات او معايير جاهزة لتطبيقها على الثقافات الأخرى على انها اعلى او ادنى في المستوى، ذلك ان لكل ثقافة معاييرها االخاصة التي بواسطتها يمكن الحكم على أنشطتها. الاختلافات الثقافية تعبر عن نفسها بطرائق مختلفة، ولعل اكثر المفاهيم التي توضح الثقافة وتنوعها يمكن ان تغطى بالمفاهيم الأربعة الاتية: الرموز، الأبطال، الطقوس، والقيم كما تظهر في الشكل (3-2)، الذي يبدو وكانه مقطع عرضي لرأس بصلة

skins of onion, ، حيث يشير الشكل الى ان الرموز تقف عند الحافة البعيدة او عند السطح، وتكون القيم في المنطقة الأكثر عمقا في الثقافة، بينما الطقوس والابطال يحتلون موقعا وسطا بينهما

الرموز Symbol

كلمات، إشارات، صور او أشياء تحمل معاني معينة والتي لا يمكن ان يفهمها الا افراد او جماعات يشتركون في قاعدة ثقافية واحدة. الكلمات في لغة من اللغات تقع ضمن هذه الفصيلة تماما مثل الملابس وقصات الشعر والكوكا كولا، والرايات او الإعلام Flags ورموز المكانة. والرموز الثقافية من السهل اقتباسها وتبنيها من قبل ثقافات أخرى، ولأن الرموز يمكن تبديلها او اقتباسها وتبنيها ، لهذا السبب وحده وضعت على السطح الخارجي لقشرة البصل .

لأبطال Heroes

أشخاص احياء او أموات، حقيقيون او من صنع الخيال، يملكون خصائص ذات قيمة كبيرة بمنظور اعضاء الثقافة، والذين يتخذون كقدوة او نموذج للسلوك من قبل أعضاء الثقافة، حتى الشخصيات الفنطازية وشخصيات أفلام الكرتون ، مثل باتمان

Batman او سوبرمان Superman او النحلة Bumblebees او كرين دايزرGreen Dizzier يمكن تعمل كابطال ثقافية في عصر التلفزيون والانترنيت اكثر من أي ابطال من الماضي البعيد

الشكل (3-2) نموذج قشر البصل يوضح مستويات الثقافة

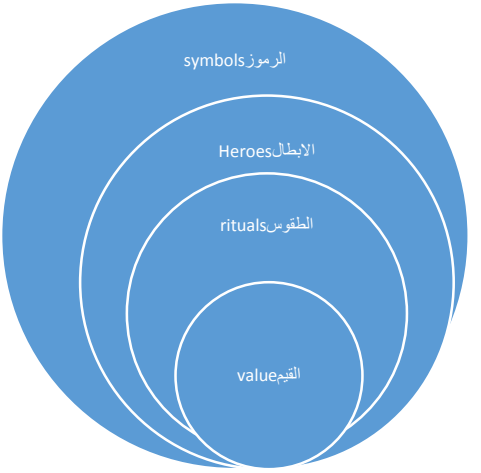

المصدر: Hofstede: Culture and Organization P.9

الطقوس Rituals

هي أنشطة جمعية، تقنيا تبدو غير لازمة وغير ضرورية للوصول للأهداف المرغوبة، ولكنها ضمن الثقافة تبدو ضرورة اجتماعية، يعملون جميعا من أجل ممارستها لحاجة نفسية اكثر منها عقائدية، من امثلتها المعروفة طرق القاء التحية واحترام الآخرين، الاحتفالات الاجتماعية والدينية. تنظيم عمل اللقاءات السياسية التي تبدو أسبابها عقلانية تحسب هي الأخرى على الأنشطة الطقوسية، مثل السماح للقادة بتسويق انفسهم امام مؤسساتهم او جماهيرهم.

القيم Values

القيم نزعات واسعة لتفضيل جملة من القضايا على حساب أخرى ، ولها جانب سلبي واخر إيجابي مثل خير- شر، نضيف – وسخ، جميل- قبيح،

طبيعي- غير طبيعي، سليم – مريض منطقي – متناقض، عقلاني – غير عقلاني. القيم من اول الأشياء التي يتعلمها الأطفال بطرائق لا شعورية، وحين يصلون سن العاشرة يكون النظام القيمي قد استقر الى الابد، فيصبح كما يقول اهل علم النفس من الصعب تغييره بعد هذه السن. ولان النظام القيمي نظام مجرد لا يمكن رؤيته او ملاحظته مباشرة من قبل الفرد من خارج المجموعة الثقافية فانه يمكن فقط الاستدلال عليه عن طريق بعض أنواع السلوك في ظروف معينة.

لتفسير مايردده الناس حول قيمهم نحتاج الى التمييز بين ماهو مرغوب Desired وما هو مرغوب فيه Desirable بمعنى بين "كيف يحب الناس ان يكون عليه العالم مقابل ماذا يريد الناس لأنفسهم" . المرغوب فيه Desirable يشير الى رغبة الناس عامة على نحو "صحيح/خاطئ ، موافق/ غير موافق او ما يماثل ذلك، بشكل مجرد، كل انسان يحب الفضيلة ويعادي الاثم او الخطيئة، والاجوبة التي تعبر عن وجهات نظر الناس حول المرغوب فيه تمثل المثل العليا التي قد لا تجد لنفسها سبيلا للتطبيق عندما يتعلق الامر برغبة الانسان الذاتية ، فقد يقول الانسان شيئا ويفعل غيره.

الذي يميز المرغوب عن المرغوب فيه هو المعايير the norms والمعايير هي القاعدة التي تستخدم للتعريف بالقيم الموجودة داخل الجماعة الاجتماعية. في حالة القيم المرغوب فيها المعيار مطلق absolute ويتعلق بما هو صحيح أخلاقيا، ولكن في حالة المرغوب فانه عملية إحصائية تشير الى الاختيارات التي يقوم بها أغلبية الناس فعليا. باختصار المرغوب فيه

يتعلق بالمثل العليا، اما المرغوب فيتعلق بالممارسة السلوكية على ارض الواقع.Hofstede (2001, 1992)

الثقافة الفرعية Subculture

الثقافة الفرعية هي نمط ثقافي منقطع جزئيا ونسبيا عن بقية سكان المجتمع، المجموعات المثلية، الجماعات الدينية المتشددة او التي لديها طقوس لاسيما جماعات موسيقى الجاز، وكبار السن في مساكن الرعاية الاجتماعية، الى جانب جماعة الادب او الشعر، والمشردون، والاكراد في بغداد، والاقباط في القاهرة، والدروز في دمشق وبيروت، العرب والهنود في إنكلترا، الايطاليون والسود في نيويورك، كل هؤلاء يمثلون ثقافات فرعية داخل الثقافة الكلية. من السهل (ولكن غالبا بشكل غير دقيق) وضع الناس ضمن فئات الثقافة الفرعية، ذلك ان كل واحد منا يساهم عفويا في عدد من الثقافات الفرعية، ولكن من دون إلزام او التزام تلقائي مع كثير منها، مثلا يمكن للإنسان ان يكون عضوا في اتحاد الادباء ومشاركا في جماعة اثنية، ويحضر حفلات الجاز وينام مع المسنين في دور العجزة، مثل هؤلاء الناس لا يحسبون على الثقافة الفرعية لأي من هذه التجمعات لأنهم يفتقدون شرطا او أكثر من شروط الانتماء للثقافة الفرعية. في بعض الحالات، السمات الثقافية ذات الأهمية القصوى، مثل العِرق او الدين تبعد الناس بعضهم من بعض، وأحيانا لها نتائج مأساوية. خذ مثلا العراق بعد الغزو الأمريكي عام 2003، الوضع المضطرب والفراغ السياسي الذي اوجده الغزاة، في المجتمع العراقي متعدد الاثنيات والطوائف والأديان (ثقافات فرعية). وكل من هذه المكونات الثقافية تختلف لغويا او مذهبيا او دينيا او عرقيا او حزبيا،

قامت (بتحريض وتمويل من جهات معروفة، وغير معروفة) بالتصادم المميت مع بعضها، حتى صار القتل على الهوية فمن كان اسمه عليا يقتله عمرَ ومن كان اسمه عمرَ يقتله علي، ومن كان اسمه شيرزاد يقتل عليا وعمرَ ويقتله علي وعمر. النسبية الثقافية لا تنطوي على التنوع فقط وانما على التراتب ايضا hierarchy، فما يعرف بالأنماط الثقافية الراقية والمهيمنة، هي في العادة ثقافة الفئة المتنفذة من أصحاب رؤوس الأموال والمهنيين من ذوي الدخول العالية والتجار وصناع القرار السياسي، فيما تلصق الثقافة الهابطة بفئات الثقافات الفرعية، لأنهم حتى لو كانوا من الأثرياء فان انماطهم السلوكية المستمدة من ثقافتهم الفرعية تبعدهم عن اللغة المشتركة للثقافة المهيمنة. والتنوع الثقافي يتضمن أيضا رفض افراد الثقافة الفرعية للأفكار او السلوكيات التقليدية للثقافة المهيمنة، وهم لذلك يميلون لتقوية كينونة واواصر العلاقات فيما بينهم وبطريقة شبه مغلقة، فهم يتزاوجون ويتبادلون المنافع والالتزامات الاقتصادية فيما بينهم، مع الإبقاء على هامش للعلاقة السطحية مع الثقافة المهيمنة Macionis & Plummer (2002). في المجتمع الرأسمالي المعاصر يقول فلجر وسكوت Fulcher & Scott (1999) وفقا لنظرية المجتمع الواسع Mass-society Theory فان الثقافة المألوفة هي ثقافة المجتمع الواسع، اما الثقافة التقليدية الحقيقية فإنها تعرضت لعملية ابادة مبرمجة من قبل الثقافة الواسعة ذات النزعة التجارية عالية التنظيم، والتي اجهزت أيضا على الثقافة الراقية. ادرنو وهورخيمر Adorno & Horkheimer من أبرز اعضاء مدرسة فرانكفورت الحديثة لعلم الاجتماع، استخدموا مصطلح

"صناعة الثقافة" في إشارة الى ان الثقافة صارت تصنع وتباع مثل أي منتج صناعي من اجل الحصول على الربح، انها وفقا لوجهة النظر هذه، تفرض على المجتمع الواسع الثقافة المصنعة في الغرف الخلفية للمتاجر العملاقة لكي تجعل من الناس مجرد مستهلكين خاملين لبضائع لا تلبي حاجاتهم الحقيقية، وهذه الثقافة أصبحت ضرورية لإدامة المجتمع الرأسمالي، العمال يقبلون الضجر والاستغلال في العمل لأنه ليس لديهم خيار الا الحصول على أجور توفر لهم فرص الهروب في أوقات فراغهم للانضمام الى أولئك الذين يبحثون عن متع الثقافة الواسعة لمشاهدة الأفلام او الاستماع للموسيقى المفضلة. والواقع ان هناك تعارضا بين وجهة نظر النخبة ووجهة نظر عامة الناس، فالنخبة تميل الى الثقافة الفنية وتعد الثقافة العامة مجرد ثقافة تجارية رخيصة وان جذورها على علاقة بالثقافات الفرعية لأقليات العرق او الطبقة. وخلاصة القول ان الثقافة الفرعية هي جماعات معينة داخل المجتمع، ومصطلح الثقافة الفرعية أصلا كان يستخدم للإشارة الى ثقافات الشباب والطبقات الاجتماعية الدنيا، وأصل معنى الثقافة الفرعية هو "الثقافة التحتية" under-culture ليدل على وجود الثقافة المهيمنة او الثقافة الراقية، وينظر الماركسيون للمصطلح من وجهة مغايرة اذ يعدون الثقافة الفرعية نوعا من مقاومة الطبقات الدنيا للطبقات العليا، وهي ضمنا تعني الوقوف بوجه النظام الاجتماعي الذي يفتقر للعدالة.

التغير الثقافي Cultural Change

التغير سمة لازمة للوجود، كل يوم، يوم جديد، وكل ساعة او دقيقة تمر لا تشبه التي قبلها ولا تشبه التي بعدها، وقديما قالها الفيلسوف الاغريقي

هرقليدس (540-480 BC) انك لا تستطيع ان تعبر النهر مرتين، فلا الماء يبقى على حاله ولا الانسان الذي يعبر النهر يبقى كما هو، كلاهما يتغير، للوهلة الأولى تبدو هذه الرؤية غير منطقية ذلك ان شكل النهر في جريانه لن يتغير والانسان لا شيء يحدث له عدا انه ستبتل قدماه، بيد ان ذرات الماء ليست هي في حالة العبور للمرة الثانية، كما ان تفكير الانسان وطريقة عبوره لا يمكن ان تكون بالطريقة ذاتها، والعبرة ان التغير يحدث في البنية الأساسية underlying structure للأشياء عبر الزمن، وفي حالة المجتمع فان التغير يحدث أحيانا بهدوء ومن دون ان نلاحظه، واحيانا يحدث بطريقة كارثية، كما هو الحال عندما تتعرض مدينة لإعصار مدمر، او غزو كالغزو الأمريكي للعراق او ثورة تقلب كيان النظام الاجتماعي.

التغير في أحد ابعاد الثقافة يترافق، في العادة، مع تحولات أخرى، فمثلا دخول المرأة لميدان العمل يتزامن مع تبدل في أنماط الاسرة، بما في ذلك تأخير سن الزواج، وارتفاع نسب الطلاق، وتزايد عدد الأطفال الذين ينشؤون في بيوت من غير اباء، وهذا الترابط يوضح مبدأ التكامل الثقافي Cultural integration الذي يعني الترابط الوثيق بين العناصر المختلفة للنظام الثقافي، ولكن طبعا عناصر النظام الثقافي لا تتبدل جميعا بالسرعة نفسها. وليم اوكبرن Ogburn (1964) لاحظ ان التكنولوجيا تتبدل وتولد عناصر جديدة للثقافة المادية أسرع بكثير من التبدل الذي يحصل لعناصر الثقافة غير المادية، اوكبرن سمى هذه العملية المتنافرة الفجوة الثقافية Cultural Lag، وهي تعني ان مستوى التغير المتباين في عناصر الثقافة يؤدي الى ارباك النظام الثقافي كله. فمثلا قدرة التكنولوجيا على تمكين

المرأة من الأنجاب عن طريق تخصيب البويضة في المختبر بحيمن شخص اخر غير الزوج، من ثم نقل البويضة المخصبة الى الرحم، من شانه ان يساعدنا على استبعاد الفكرة التقليدية للأمومة والابوة.

التغير الثقافي يحدث في العادة بواحدة من ثلاث طرائق. أولا. ***الاختراع*** invention: وهو عملية ابتكار عناصر ثقافية جديدة، والاختراع قدم لنا الهاتف في عام 1876 والسيارة عام ١٨٨٥ والطائرة عام 1903، كل هذه المخترعات كان لها تأثير هائل على حياتنا. عملية الاختراع تمضي قدما، لكن النظام الاجتماعي يحتاج بعض الوقت لتعديل مؤسساته ومنظومته القيمية، والتغيير الذي تحدثه الابتكارات سوف يتبعه حتما شكلا اجتماعيا جديدا لا يشبه ابدا ما كان عليه قبل وجود الاختراع. ثانيا. ***الاكتشاف*** discovery وهو اننا ندرك ونفهم أشياء لم نكن نعرفها من قبل، من النجوم البعيدة الى وجبات الطعام التي يتناولها الناس في ثقافة أخرى، ومن المخلوقات في أعماق المحيطات الى فيروسات انفلونزا الخنازير، اغلب الاكتشافات جاءت نتيجة الأبحاث العلمية، وبعضها بالصدفة، فمثلا عندما تركت السيدة ماري كوري قطعة من الحجر على ورقة فوتوغرافية عام 1898 كان ذلك ايذانا باكتشاف الاشعاع بالصدفة. وثالثا. ***الانتشار*** diffusion وهو عملية تدفق السمات الثقافية من مجتمع لآخر. قدرة التكنولوجيا على نشر المعلومات حول العالم في نصف دقيقة عبر المذياع، التلفاز، الكومبيوتر، الهاتف النقال، تعني ان عملية الانتشار ليس فقط للمعلومات وانما لكل مكونات الثقافات الإنسانية المادية وغير المادية هي اليوم أعظم من أي وقت مضى. ولا شك ان الثقافة العربية

ساهمت في وقت من الأوقات في نشر كثير من السمات الثقافية في كل انحاء العالم، ولكن بالمقابل كثير من العادات والملابس والاثاث والتكنولوجيا، والصحافة مستمدة من ثقافات أخرى. والانتشار بشكل خاص له دور فعال في نقل الأفكار والأدوات من مجموعة بشرية لأخرى عن طريق الاتصال الثقافي الشخصي او عبر وسائل الاتصال الحديثة، وهي بالتالي عملية متبادلة التأثير، فالإنكليز مثلا نقلوا للهند اثناء الاحتلال عناصر ثقافية كثيرة واخذو عنهم الكثير أيضا. Giddens 1989, (Beattie 1985, Macionis & Plummer 2002)

الثقافة والتنشئة Culture & Socialization

عند الولادة يكون الطفل عاجزا تماما ومعتمدا بشكل مطلق على الاخرين. الطفل الرضيع في الواقع ليس كائنا بشريا بالمعنى الكامل انه ليس أكثر من حيوان صغير، فهو لا يستطيع ان يتكلم ولا يستطيع السيطرة على نفسه، وهذان العنصران هما الأكثر أهمية في إعطاء الانسان العضوية الكاملة في اي مجتمع بشري. ومصطلح التنشئة الاجتماعية يشير الى الطريقة العامة للنمو بوصفه كائنا بشريا، وخلال هذه العملية يكتسب الطفل اللغة والمهارات التي تؤهله للانضمام للمجموعة البشرية التي ولد فيها، وهي عملية تعلم مدى الحياة من اجل الحصول على عضوية المجتمع البشري. الطفل الرضيع لديه استعداد للتفاعل، وهذا الاستعداد يساعده للنمو الاجتماعي، وبالتدريج يتعلم ان سلوكه يلقى استجابة من الاخرين، فعندما يبتسم او يبكي او يناغي فانه يرسل رسالة الى الام او الاب فيلقى ردا مناسبا ومقنعا، عملية تبادل الرسائل هذه تعد اللبنة الأساس في عملية التنشئة،

وعملية التفاعل تقوم بمهمة بناء الذات الاجتماعية التي تعني إدراك من نحن. والمؤكد ان الاستعدادات البيولوجية، مع الثقافة ومع الخبرات الشخصية تعمل جميعا إطارا عاما للتنشئة، وعلى الرغم من ان الرضيع يولد بلا حول ولا قوة الا انه يملك القوة الكامنة لتعلم اللغة، والمعايير والقيم والمهارات التي يحتاجها في مجتمعه. والتنشئة ليست ضرورية لبقاء الفرد وانما ضرورية أيضا لبقاء الجماعة والمجتمع. وهي لذلك عملية مستمرة بأشكال متنوعة عبر دخول الانسان وخروجه من المواقف المتعددة، من المدرسة الى العمل ثم التقاعد الى الموت.

الطبيعة والتطبع Nature & Nurture

ما الذي يجعلنا ما نحن عليه؟ هل هو تكويننا البيولوجي ام البيئة التي نشأنا فيها وعملت عملها في توجيه سلوكنا؟ أحد طرفي النزاع بين الطبيعة والتطبع المعاصرين يزعم ان تطور الذات والسلوك الاجتماعي الذي يتخلله العنف، والجريمة، والأداء الأكاديمي، واختيار الشريك، والنجاح الاقتصادي، والأدوار الجنسية Gender Roles وما شاكل، لها علاقة بتركيبنا البيولوجي او العوامل الجينية Genetic Factors فمثلا، السلوك الايثاري Altruism الذي يشير الى المشاركة والتعاون، هو سلوك مقرر جينيا، او جزء منه على الأقل Harris (1998) فنحن نعمل على ديمومة سلالتنا العائلية ونحافظ على امتدادنا البشري عبر سلوكنا الاجتماعي المتنوع. الجماعات الانسانية عملت على تطوير السلطة وحماية الأقارب، الام تضحي بسلامتها من اجل سلامة طفلها، والجندي يموت في المعركة من اجل رفاقه ووطنه، والمجتمعات المحلية تظهر نوعا من العداء نحو

الدخلاء والغرباء، والجار يحمي ممتلكات جاره من المتطفلين واللصوص، كل هذه الأمثلة يسوقها بعض علماء الاجتماع على انها متجذرة في تكويننا البيولوجي، وهذه الأنماط السلوكية، يقول ليرنر Lerner (1992) سوف لن تزول لان نتائجها ستمنح الجنس البشري فرصا أفضل للبقاء. الطرف المعارض من علماء الاجتماع يزعم ان نظرية "الأصل البيولوجي" لسلوكنا هي نظرية اختزالية Reductionist Theory مليئة بالعيوب، ذلك انها تختزل السلوك الاجتماعي المعقد وتنسبه لعامل واحد هو السمات الموروثة، لم يثبت علميا ان هناك جينا gene خاصا بالسلوك الايثاري او للعدوانية، او أي جين لمظاهر السلوك الأخرى، فهناك تنوع هائل في سلوك أعضاء الجماعات والمجتمعات المختلفة، فالأفراد الذين يولدون وينشؤون في ثقافة معينة ثم ينتقلون للعيش في ثقافة أخرى، فانهم اكثر التصاقا بثقافتهم الاصلية التي ولدوا فيها. والحقيقة كما يقول بلانتين وروبرتس Ballantine & Roberts (2009) ان ما يجعلنا ننفرد عن سائر الاحياء ليس موروثاتنا البيولوجية وانما قدرتنا على تعلم الترتيبات الاجتماعية المعقدة للثقافة التي نعيش فيها. نتعلم ماذا يعني ان نكون بشرا، ونتعلم كيف نتصرف اثناء تفاعلنا مع الاخرين. ولايزال الجدل قائما بين الفريقين، ولكن دخول طرف ثالث أضعف من حجة الفريقين، والفريق الثالث يقول ان العوامل البيولوجية تشترك مع العوامل البيئية في تشكيل سلوكنا، ذلك مع افتراض وجود دوافع بيولوجية محركة للسلوك فإن البيئة الاجتماعية تعمل قوة مركزية في تعديل السلوك وتوجيهه وتشكيله عبر عمليات التنشئة الاجتماعية Freese et al (1999)

أهمية التنشئة الاجتماعية The Importance of Socialization

إذا كنت تعيش في حقل او مزرعة ورأيت الحيوانات على الطبيعة او كنت من هواة مشاهدة برامج الحياة البرية او عالم الحيوان، فإنك ربما تكون قد

جدول 1-3 الاعتماد على البالغين لدى الثدييات العليا

الثدييات	مدة الحمل	مدة الرعاية	الاعتماد الغذائي	الاعتماد الاجتماعي
الانسان	266 يوم	1 سنه فاكثر	1-2 سنه	6-8 سنة
الشمبانزي	235 يوم	3-6اشهر	2-3 شهر	12-28 شهر
النسناس	166 يوم	1-3 اسبوع	2-4 اسبوع	2-4 شهر
الليمور	111-145 يوم	1-3 يوم	2-14 يوم	2-3 اسبوع

المصدر: Ballantine & Roberts (2009) P. 102

لاحظت ان الحيوان المولود حديثا يعتمد على نفسه من اللحظة التي يرى فيها النور، الثور او الحصان او الغزال يقف على قوائمه بعد ان يتعثر لعدة دقائق ثم ينهض من جديد ويمارس حياة الحيوانات الأخرى بشكل تلقائي، وكذلك السلاحف وبعض الطيور والحشرات التي تخرج من قشرة البيض الى الماء مباشرة من دون الحاجة للاتصال مع الحيوانات الأكبر سنا من اجل التعليم او التدريب، وهو في ذلك مبرمج بيولوجيا. وعلى العموم، كلما

كان الكائن الحي أكثر ذكاء كلما احتاج الى مدة حمل ومدة اعتماد غذائي واجتماعي أطول من نظرائه الأقل ذكاء، حتى مع الثدييات العليا يأخذ الطفل الانساني الرضيع أطول مدة حمل واطول مدة انسنة.Socialize والجدول (3-1) يوضح مدة اعتماد الرضيع لدى الثدييات العليا، حيث يظهر الفارق هائلا في درجة الاعتمادية، والانسان اطولها طفولة. وهذا الزمن الطويل يحتاجه الرضيع من اجل ان يتعلم تعقيدات الثقافة، ومن هنا ندرك ان العوامل البيولوجية وعوامل البيئة الاجتماعية-الثقافية يعملان مع بعض في تشكيل السلوك الإنساني والنمو الطبيعي للإنسان يتضمن تعلم الجلوس، والحبو، والوقوف، والمشي، والتفكير، والكلام ثم التفاعل الاجتماعي، وبطول مدة الطفولة الاعتمادية يحصل الطفل على فرصة اكبر لتعلم المهارات الضرورية، والمعرفة والادوار عن طريق الحب والتسامح الابوي، اما في حالة الحرمان المادي او العاطفي فان التنشئة ستكون ناقصة وتؤثر تأثيرا بالغا على الذات الاجتماعية كما سنرى

تأثير العزلة وسوء المعاملة The Effect of Isolation & Abuse

هل بإمكانك ان تتخيل طفلا يعيش من دون تفاعل اجتماعي؟ من الواضح ان الطفل يحتاج الى حد أدنى من التفاعل الضروري لكي ينمو نموا طبيعيا، والا فانه يبقى في حدود تكوينه البيولوجي، الذي لا يساعده كثيرا في العيش انسانا، ذلك ان الثقافة هي التي اخرجتنا من السجن البيولوجي الى الفضاء

الاجتماعي، ومن بين الأمثلة التي كشفت عن تأثير البيئة الاجتماعية على تحول الكائن البشري من كائن شبيه بالحيوان الى انسان هو حالة الطفل المسمى Wild boy الذي وجد هائما في احدى الغابات الفرنسية في عام 1799، وكان يعيش على ما كان يجده بين الأشجار، وعلى الرغم من ان أحدا لم يكن يستطيع ان يقدر كم كان قد بقي على تلك الحالة الا انه كان يبدو ابن الحادية عشرة من عمره، لم يكن يتكلم، ولكنه يصدر أصواتا تشبه أصوات الحيوانات. كان عاريا تماما، وسخا وخائفا، نقل الى باريس وتبناه طبيب شاب كرس خمس سنين من حياته لتعليمه، تقدم كبير حصل في أنسنته، فبعد مرور عامين أصبح الطفل نظيفا، حنونا وقادرا على تعلم عدة كلمات وقادرا على استيعاب اغلب ما يقال له. وعلى الرغم من جهود الطبيب الشاب كلها، فان الطفل لم يستطع ان يتكلم بأكثر من كلمتين ولذلك فشلت محاولة أنسنته Hurd et al (1978) ومن الأمثلة المثيرة للاهتمام حالة الأطفال الذين أساء الابوين معاملتهم وعزلوهم واهملوهم اهمالا شديدا. هؤلاء الأطفال تركوا في عزلة تامة في غرفة في الطابق العلوي لسنين من دون أي اهتمام او تطبيع، وعندما كشف امر

الاشباع المادي والعاطفي يعطي مردود ايجابي على بناء الشخصية في الفترات اللاحقة

هؤلاء الأطفال المعزولين، لوحظ انهم كانوا يعانون من اضطراب عميق في النمو الاجتماعي رافقهم طوال حياتهم Curtiss (1977). وفي دراسة "حالة" قام بها عالم الاجتماع كنزلي ديفز Kingsley Davis (1947) قارن فيها الفتاتين آنا وايزابيل اللتين عانتا من عزلة مبالغ فيها في طفولتهما المبكرة، ووجد ان قليلا من الاتصال يحدث فرقا في التنشئة. كانت الفتاتان ثمرة علاقة غير شرعية وحاول الاهل إخفاء الفتاتين وإبقاء وجودهما سريا بحبس الفتاتين وعزلهما. وعندما كشف امرهما كانتا في سن السادسة، ونقلتا الى مؤسسة لرعاية الايتام، وهناك تلقتا عناية خاصة عبر برنامج تأهيلي مكثف. الحالتان مختلفتان بعض الشيء، فالفتاة الأولى "أنا" قبل اكتشافها لم يحدث ان اتصلت بأحد من البشر، وكانت ترى الناس عندما يتركون لها الطعام من دون أي كلام، اما "ايزابيل" فقد كانت تعيش في غرفة مظلمة مع أمها الصماء-البكماء وهي لذلك تعرف قليلا عن الاتصال ولو بالإشارات. "انا" لم تكن تعرف الجلوس، او المشي ولم تستطع التكلم، وتعلمت قليلا جدا في المدرسة التي وضعت فيها ضمن مؤسسة الرعاية الخاصة، عندما ماتت في سن الحادية عشرة كانت قد تعلمت مهارات لغوية تشبه ما يتعلمه الطفل في سن الثانية او الثالثة. ايزابيل كانت أفضل حالا فقد تقدمت تقدما ملموسا، تعلمت الكلام واللعب مع اقرانها وبعد سنتين استطاعت ان تلحق بمستوى نظرائها في مستوى الذكاء، ولكنها ظلت متأخرة عنهم بمعدل سنتين في مستوى الأداء المدرسي.

في الحالات الأقل تطرفا من العزلة ولكنها تتماثل معها في التأثير، هي حالة الأطفال الذين جاءوا من البلدان التي مزقتها الحروب، والذين عاشوا في

دور الايتام او أهملوا او تم الاعتداء عليهم جنسيا، هؤلاء لم يتعرضوا للعزل الكلي ولكنهم يعانون من صعوبات بالغة في عملية الاندماج الاجتماعي. والرسالة من هذه الأمثلة ان الأطفال المعزولين او المعتدى عليهم جنسيا او المهملين في مراحل حياتهم المبكرة يواجهون صعوبات بالغة في عمليات التنشئة الاجتماعية الطبيعية، والناس في العادة يحتاجون من بيئتهم أكثر من الطعام والسكن، يحتاجون الى علاقات طيبة، وإحساس بالانتماء، وتلمس الحنان، والشعور بالأمن، الى جانب المعرفة والمهارات الاجتماعية الأخرى.

التنوع في أنماط التنشئة Variations in Patterns of Socialization

في الحالات الطبيعية ينمو الطفل في مجتمعه عن طريق العلاقة المباشرة مع أناس قريبين منه، وبالتدريج يلتقط خصائصهم ويصبح واحدا منهم، يتعلم منهم اللغة التي يتكلمون بها، وطريقة التفكير، واستبطان المعايير التي تحدد ما هو جيد او رديء، وخطأ او صحيح، ومرغوب فيه او غير مرغوب فيه، وهناك، على أي حال، تنوع هائل في أنماط التنشئة تختلف باختلاف المجتمعات، فالذي ينمو في قبيلة افريقية يختلف كليا عمن يترعرع في مدينة او قرية انكليزية، وحتى داخل المجتمع الواحد هناك اختلاف في أنماط التنشئة، فالذي ينشأ في بغداد مثلا يختلف كليا عمن يترعرع في قرية من قرى الكوت او العمارة في جنوب العراق، كما ان الذي يترعرع في حي راقٍ مثل المنصور او الاعظمية في بغداد يختلف كليا عمن ينمو في حي فقير مثل بغداد الجديدة او الثورة او الشعلة. التنوع في أنماط التنشئة يوضح المرونة التي تتميز بها الطبيعة البشرية، وفوق هذا فان معرفتنا

بسلوك الاخرين في المجتمعات الأخرى يساعدنا على النظر لسلوكنا بمنظور جديد وبالنتيجة يزيد من فهمنا لأنفسنا وللآخرين. عدة معتقدات وافعال نأخذها نحن مسلمات ونظن انها عامة لدى جميع الناس، ثم نكتشف انها جزء من نسيجنا الاجتماعي وإنها غير مألوفة لدى مجتمعات أخرى، فمثلا كلنا يحمل تصورات عن الاختلاف الجوهري بين خصائص الرجولة وخصائص الانوثة، فنحن نعتقد ان الاناث بطبيعتهن مطيعات، خاضعات، وغير عمليات، وعلى الرغم من ان اغلب الاناث في مجتمعات معينة هن كذلك، لكن هذه السمات التي ربطت بالإناث ليست ولادية ولا عامة، الواقع ان مفهوم الانوثة والذكورة ربما يختلف كثيرا من مجتمع لأخر، ففي دراسة مسحية عن السكان الأصليين لدول وسط افريقيا وجد ان الغزل بالمغزل، والحياكة والخياطة تعد من اصل اعمال الرجال، وهي في مجتمعات أخرى من اعمال النساء، في بعض المجتمعات تقوم المرأة بأعمال عضلية، ويقوم الرجل في مجتمعات أخرى بالطبخ، ورعاية المنزل، وتربية الأطفال. الصيد يعد على نطاق واسع من مهام الرجل، لكن لدى سكان تازمينيا Tasmania الأصليين في الساحل الجنوبي لأستراليا، تسبح النساء مسافات طويلة حتى تصل منطقة الصخور الصماء، منطقة تواجد الحيوانات البرية ليقمن بمطاردتها وقتلها بعصا غليظة تشبه هراوات الشرطة، ثم يعدن بفرائسهن سباحة، ويكون الرجال بانتظار غنائم الصائدات الماهرات، وهذا يدل على ان الفكرة التقليدية عن ان الرجال طبيعيا أكثر قوة وأكثر عدوانية من النساء وانهم يولدون محاربين هي فكرة باطلة. ولكل مجتمع من المجتمعات تصورات مشتركة عن كيفية تصرف

كل من الرجال والنساء، هذه التصورات تعمل بمثابة موجهات لما هو متوقع من الأطفال -من كلا الجنسين- ان يفعلوه ليتماثلوا مع الاخرين، وفوق هذا فإننا على العموم نميل الى اعطاء نماذج السلوك السائدة في مجتمعنا سمة الأفضلية عمن سواها من الناحية الأخلاقية، وهذه تجعلنا نستصعب فهم غيرنا واحترام سلوكه. كأفراد لدينا دائما مشاعر طبيعية في ان طريقة حياتنا وقيمنا وعاداتنا هي الأفضل، ولكن الاخرين هم أيضا ينظرون لطريقة حياتهم على انها الأفضل. لذلك يعتقد علماء الاجتماع ان كل نماذج السلوك الإنساني في كل مكان تستحق الدراسة دون ان يكون من واجبهم كعلماء وضع معايير للمفاضلة بينها. Hurd et al (1978)

التنشئة والتغير الاجتماعي Socialization and Social Change

الصورة النمطية للتنشئة الاجتماعية هي انها عملية مستمرة تمتد الى مرحلة البلوغ وما بعدها وتنطوي على تفاعل دائم مع نماذج إنسانية متنوعة تساعدنا في التغلب على مشكلات عالقة في كل ما قيل ضمنا حتى الان. فهناك افراط في التأكيد على الطريق الذي تسلكه التنشئة في تحقيق التماثل الاجتماعي، وإذ افترضنا ان الأطفال ينشؤون، بشكل مثالي في قبول معايير الابوين، فكيف اذن يحدث التغير؟ هناك نزعة للتفكير بان التنشئة الاجتماعية تتوارث بتحفظ شديد وانها لصيقة الصلة بالماضي، وان الفرد ليس اكثر من كائن سلبي او وعاء لاستقبال الموروث الثقافي كما هو، لكي يصبح جزءا من المجتمع، من وجهة النظر هذه يُعد الانحراف عن المعايير الاجتماعية السائدة امرا غير مرغوب فيه، لكن كما نعلم ان الانسان لديه القدرة لان يكون مختلفا، ومخترعا، وقادرا على خلق أشياء جديدة،

والاختراع بشكل متواتر ينطوي على انحراف عن الممارسات المعيارية السائدة، وكل المخترعين العظام كانوا يجدون انفسهم في حالة تصادم مع التقاليد الاجتماعية، فمثلا غاليليو، وداروِن و فرويد، كانت أفكارهم قد وضعتهم في مواجهة حادة مع الأفكار والقيم التقليدية، وسقراط اسقي السم لأنه خرج عن المألوف، لهذا فان الانحراف عن السائد قد يكون إيجابيا على الرغم من انه يسبب لأصحابه كثيرا من الألم. والناس يكونون مجبرين على كسر التقاليد عندما يجبرون على التكيف مع الظروف المتغيرة، وهنا تأتي الإجابة عن جزء من مشكلتنا، فاذا كان العالم الذي ينشأ فيه الأطفال متغيرا، فانهم سيتعلمون أشياء تختلف نوعيا عما كان يؤمن بها اباؤهم. والنتيجة تباعد بين الأجيال يوضحه ما يحدث للدول النامية التي يهجر فيها عدد كبير من جيل الشباب المناطق الريفية الفقيرة ويتجهون نحو المراكز الحضرية. هؤلاء الشباب ينتقلون لعالم جديد غريب تماما في قيمه ومعاييره عن قيم ابائهم واقربائهم ومعاييرهم في القرى او البوادي التي هجروها. وعملية تكيف هؤلاء المهاجرين لقيم البيئة الحضرية ومعاييرها التي تبدو للجيل القديم غريبة بعض الشيء عن طريقة الحياة التي اِلفوها في قراهم وبواديهم، وحتى لو رافقوا ابناءهم الى المدن وسكنوا فيها فان العلاقة بين الأجيال تتبدل. ولان الإباء غرباء عن البيئة الحضرية فانهم لا يستطيعون اعداد أولادهم على وفق تقاليدهم القروية التقليدية، ولكن الأولاد أسرع في تبني المواقف الجديدة في البيئة الجديدة مما يؤدي الى فقدان احترام حكمة التقاليد وبالتالي تضعف سلطة الإباء. وقد يتخلل الصراع بين الأجيال بعض الالام لاسيما اثناء فترات التغير الاجتماعي السريع.

هذه الملاحظات على طريقة التنشئة التي ربما تؤدي الى صراع بين الأجيال تقودنا مباشرة الى الاستنتاج الاتي: التنشئة الاجتماعية عملية مستمرة ومنقطعة في ان واحد. الاستمرارية تتمثل في استبطان القيم التقليدية التي تمثل الماضي. الانقطاعية تتمثل في ان كل جيل جديد ربما يرفض مكونات موروثات الماضي من اجل التكيف مع تغيرات الحاضر المعاش والمستقبل المنظور. تطور الأفراد والمجتمعات يعتمد على التوازن بين الموروثات الثقافية والمتغيرات الجديدة التي تعمل بطريقة الاعتماد المتبادل. (Chinoy 1971, Hurd 19780)

خلاصة Conclusion

الثقافة مفهوم مجرد، لا نستطيع لمسها بالأصابع، ولا نراها بالعين المجردة ولا بالمايكروسكوب ولا حتى بمنظار غاليليو، هي مثل الهواء الذي نتنفس تدخل الينا لا شعوريا من دون مجهود، نتعلمها باكرا بطريقة الية، ونحن نراقب المحيطين بنا كيف يتناولون طعامهم، كيف يختارون اثوابهم، كيف يتحدثون الى ابائهم وامهاتهم واخوانهم واخواتهم، ماذا يفعلون عندما يدخلون المساجد او الكنائس، وكيف يتصرفون في حفل زفاف او في مأتم، متى يرفعون أصواتهم ومتى يخفضونها. متى يستحسنون ومتى يسخطون. ولم يخطر في بال أحدنا ان يسأل لماذا يأكل غيرنا الكلاب والضفادع والحيات والخنازير ونحن لا نفعل مثلهم، نتعلم من دون تفكير ان لا نقترب من لحم الخنزير ولا من لحم الضفادع هكذا وجدنا الناس في مجتمعنا يفعلون فصرنا نفعل كما يفعلون. وكل مجموعة بشرية تتصرف وكأنها مبرمجة في جهاز كومبيوتر، فعندما تُقدم حبات من التمر لطفل او شاب إنكليزي

تراه يعتذر منك بطريقة تشعر معها انه لا يستطيع حتى النظر اليها، وحتى لو تذوقها فانه يلفظها قبل ان تصل الى البلعوم. وإذا قدّم لك فرنسي حساء مع قطعة من لحم الضفادع فسينتابك نوع من الغثيان وربما القيء قبل ان تذوقها. هذه هي الثقافة سلوك نمارسه كما يفعل الناس في مجتمعنا، ونعتقد بانحياز تام ان ما نفعله هو الأفضل بينما يرى الاخرون في مجتمع اخر انهم الاحسن وان طريقتهم في الحياة هي الطريقة المثلى. ولان الثقافة تأتينا تلقائيا من دون مجهود ومن دون درس خصوصي يقوم به معلم محترف، فإننا نأخذها من دون فحص ولا تمحيص ولا استجواب لأنها في نظرنا الأمثل والاكمل، تخيل إنك تركب وسيلة نقل عامة او تجلس في مقهى او مطعم فتجد صديقا او قريبا يجلس قبلك فيدفع عنك ثمن الطعام او اجرة الحافلة فإنك ستراه امرا عاديا، ولكن لو فعلته مع إنكليزي لعدّك مسرفا او معتوها، لأنه لم يتعود ذلك. والثقافة بعد هذا تعمل بمثابة دليل عمل في حياتنا، حيث نتعلم بالتنشئة الاجتماعية كيف نجلس وكيف نأكل وكيف نتحدث لمن هو أصغر او أكبر منا سنا ولماذا نضع القيود على سلوك المرأة، ولماذا يأخذ الذكور الوصاية على الاناث حتى عندما تكون الاناث أكبر سنا وارفع تعليما وأكمل أخلاقا. التنشئة المبكرة تنقل لنا الثقافة بكل ما تحمله من محاسن او مساوئ وليس لنا الا ان نمتثل ونتصرف كما هو مقرر ثقافيا. وباختصار فان ثقافة أي مجتمع هي خلاصة تجارب الاولين والاخرين، طريقة تفكير، ومشاعر وافعال، نكتسبها لا شعوريا بوصفنا أعضاء في مجتمع، نمتثل لها، ثم نتناقلها من جيل الى اخر، انها طريقة حياة.

ماهية الأخلاقية المعيارية

إرتبطت القيم الذاتية عند الغرب فى جانبها الإيجابى بجميع الفضائل التى خلقها الله عز وجل على وجه الأرض وأيضاً فى جانبها السلبى بالنقائض والرذائل وقد وردت كلمة القيمة value وهى كلمة مشتقة من الفعل اللاتينى vales بمعنى " أنا أقوى أو بصحة جيدة ، وهذا يعنى أن القيمة تحتوى على معنى المقاومة والصلابة "
(أل عواض ٢٠٠٦) .

ويرى الخطيب (٢٠٠٣ : ٩١) أن القيم هى عبارة عن معايير للحكم وهذا يبنى على سلوك الفرد فى المجتمع ، والتى تعمل على توجيه سلوكه وتحدد إستجابته فى المواقف الحياتية المختلفة ويكتسبها الفرد فى حياتته كما يكتسب المعارف والمهارات والعادات والإتجاهات ويتم ذلك عن طريق الخبرة كما ترى سلوت

(٢٠٠٥ :٤٥) أن القيم عبارة عن مجموعة من المعايير والأحكام العامة التى تتسم نسبياً بالثبات والإستقرار ، وتتفق التوجهات العقدية والأخلاقية التى يسعى المربون إلى غرسها فى وجدان التلاميذ وذلك من خلال الكتب الدراسية ، وتمثل النموذج الذى يجب أن تلتزم الناشئة ، تحقيقاً للأهداف التعليمية المنشودة .

ويعرفها مرتجى (٢٠٠٤) هى عبارة عن أحكام ومعايير يتشربها الفرد ويتقبلها من خلال تفاعله مع بيئته مع المواقف والخبرات المختلفة ومن ثم تنعكس على سلوكه وإتجاهاته وإهتماماته .

ويعرفها زهران (٢٠١٣) بأنها إهتمام أو إختيار أو تفضيل أو حكم يصدره الإنسان على شئ ما ، مهتدياً بمجموعة من المبادئ والقيم والمعايير التى وضعها المجتمع الذى يعيش فيه ، والذى يحدد المرغوب فيه من السلوك .

وأما أبو العنينين (١٩٨٨) : فيرى أنها قواعد السلوك ، ومقاييس من خلالها يحكم على السلوك بأنه مقبول أو غير مقبول ، وتشكل فى النهاية نوعاً من التحديات للسلوك المرغوب فيه ، وتعطى الفرد كما تعطى المجتمع شكله وشخصيته وهويته .

ويعرف القيم المزين (٢٠٠٩) بأنها هى التى تضبط وتوجه سلوك الفرد وفق معايير وأحكام مستمدة من الواقع والمجتمع وذلك من خلال خبرات موجهة تهدف إلى تعديل السلوك .

الفصل الرابع

الثقافة والزمن الاجتماعي

Culture and Social Time

لا شيء هو الانسان، انه في أحسن الأحوال، المادة الأساسية للزمن

كارل ماركس

الزمن كثقافة Time as Culture

بعض الأشياء ليس من السهل تعديلها لتكون مستقيمة في الشكل والاتجاه، والزمن أحد هذه الأشياء. والواقع هناك سوء فهم جدي للزمن، فهو ليس صيغة ثابتة غير قابلة للتغيير كما يفترض نيوتن، انه مجموعة من المفاهيم، الاحداث والايقاعات التي تغطي مساحة واسعة من الظواهر، فعلى المستوى الضيق هناك أنواع مختلفة للزمن تتنوع بتنوع البشر على هذه الأرض، ولكن في الغرب يقول أ. هول (E. Hall (1984: 13 " ينظرون للزمن على انه كينونة أحادية Single Entity، وهذه نظرة قاصرة ولكنهم هكذا يرونه"

بالإمكان فلسفة طبيعة الزمن قدر ما نشاء، وعلى الرغم من ان ممارسة التفكير الفلسفي تضيء لنا بعض الجوانب الا ان الاتجاه الأكثر أهمية من الفلسفة هو الاتجاه البراغماتي (الواقعي) الذي يقوم على أساس ان السلوك يأتي أولا والكلمات تتبع. انظر الى ما يفعله الناس وقارن ذلك بما يقولون، اذ سرعان ما تكتشف الفرق بين الزمن المعاش والزمن الذي نتحدث عنه، فلدينا في المجتمع العربي، مثلا، صورة نمطية للزمن، نقول في مناقشاتنا وأحاديثنا ومناظراتنا ان "الوقت من ذهب، وان الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك، واضاعة دقيقة من العمل إضاعة لفرصة من التقدم" انها في الواقع

*** in Marx & Angels 1967:P.127**

مجرد كلام لا يجد طريقه للتطبيق لا على المستوى الفردي ولا على المستوى الاجتماعي، الزمن لدينا دقائق وساعات وايام ضائعة. الناس يقومون بأعمال كثيرة ومتنوعة، فمنهم من يكتب كتابا، ومنهم من يسافر او يضع جدولا لنشاطاته او يلعب او ينام او يحلم، او يكون وسيطا تجاريا او يمارس طقسا من الطقوس، هؤلاء جميعا يعبّرون او يمارسون لا شعوريا، وأحيانا شعوريا عن أنماط مختلفة من الزمن، فمثلا هناك زمن مقدس مثل توقيتات الصيام في شهر رمضان، ومثل زيارة المعابد في أوقات محددة من السنة في الديانة البوذية، او أعياد الميلاد في الديانة المسيحية. وهناك زمن غير مقدس، كما ان هناك زمنا فيزيائيا واخر ميتافيزيقي، الى جانب الساعة البيولوجية والساعة الميكانيكية. بمعنى أكثر تحديدا يمكننا ان نثبت ان الزمن على مستوى الثقافة المركزية يمثل ثقافة المجتمع، ففي المجتمع الحديث يمكن للناس ان يستخدموا ويميزوا بين الساعة السادسة والثامنة عن الساعة التاسعة، على عكس الثقافة البدوية او الريفية التقليدية التي تقيس الزمن بحركة الشمس او القمر، فيقول أحدهم، قبل الظهر او بعد الظهر، قبل صلاة المغرب او بعد صلاة العشاء وهذه لا تميز السادسة عن التاسعة مساء، كما ان قبل الظهر او بعد الظهر قد تعني أربع دقائق وقد تعني أربعين دقيقة أو ربما ساعتين قبل او بعد.(1984) Hall

الزمن احادي البعد والزمن متعدد الابعاد Monochronic and Polychronic Time هناك أنظمة توقيتات شديدة التنوع في العالم، من بينها الزمن الأحادي والزمن المتعدد الابعاد. الزمن الأحادي البعد monochronic time إعطاء الاهتمام والعمل لشيء واحد في الوقت

المعين، اما الزمن متعدد الابعاد فانه الانشغال بعدة أشياء في وقت واحد، والنظامان مختلفان كليا، مثل خطين متوازيين لا يلتقيان. في الثقافات أحادية البعد، الزمن يمضي على شكل خط مستقيم، مثل طريق يمتد من الماضي الى المستقبل، وهو ينقسم طبيعيا الى أجزاء، يمكن جدولته ويمكن تقطيعه وجعله ممكنا للشخص الذي يقوم بمهمة واحدة. في النظام ذي البعد الواحد، جدولة الزمن تعطي أولوية لشيء ما على باقي الأشياء لدرجة التقديس مع صعوبة في التبديل او التعديل، وهذا النوع يمارس بوصفه شيئا محسوسا، والناس يتحدثون عنه مثلما يتحدثون عن قطعة من الذهب piece of gold، او المال money، يمكن انفاقه، ويمكن اضاعته او فقده، كما انه يستخدم وسيلة لتصنيف نظام الحياة، وتحديد الأولويات فيقول قائلهم " ليس لدي وقت لرؤيته" والناس في هذا النوع من النظام الزمني لا يحبون التداخل لأنهم يركزون على شيء واحد في وقت واحد. وهذا النوع من النظام الزمني يهيمن على كل قطاعات العمل في اوربا وامريكا، حتى أصبح لشدة تنظيمه مثل الهواء الذي يتنفسون. وعلى الرغم من انه يرتبط بالتعلم، الا انه يبدو وكأنه طبيعي ومنطقي لأنه بالأصل نشأ في أحضان المكننة التي تستلزم دقة في الحضور والخروج والإنتاج. دول مثل الدول الاسكندنافية، المانيا، إنكلترا، سويسرا، والولايات المتحدة، تخضع لقبضة الزمن الأحادي البعد، حيث ان نسبة الافراد الذين تتواءم شخصياتهم مع هذا النمط تفوق بكثير الناس الاخرين في العالم. نظام الابعاد المتعددة polychronic time هو تماما نقيض نظام البعد الواحد، وهو يتميز بإعطاء الاهتمام والقيام بأعمال متعددة في وقت واحد، ويهتم بإنجاز معاملات الناس على

حساب الالتزام بالجدول الزمني (طبعا لا البعد الواحد ولا الابعاد المتعددة للزمن ينطبق علينا، فليس لدينا جداول زمنية وليس هناك أدنى اهتمام بإنجاز معاملات الناس.. نحن حالة خاصة في تعاملنا مع الزمن). النظام المتعدد الابعاد محسوس بدرجة اقل من نظام البعد الواحد، ويمكن وصفه بانه نظام نقطوي (متقطع) أكثر منه طريق مفتوح من الماضي الى المستقبل. نظام الزمن الياباني يمكن وصفه بانه خليط من نظام البعد الواحد والابعاد المتعددة. في التعامل مع الأجانب ومع التكنولوجيا، فانهم يستخدمون نظام البعد الواحد، بينما يستخدمون النظام متعدد الابعاد في تعاملاتهم البيشخصية (بين الأشخاص) Hall & Hall (1987)

الدقة في المواعيد Punctuality

الدقة في المواعيد في العلاقات غير الرسمية بين الأشخاص لها معان مختلفة في الثقافة الاوربية والأمريكية. التأخر عن الموعد لمدة خمس دقائق تجعل الشخص الذي ينتظر يغمغم وتستلزم اعتذارا خفيفا، التأخر لمدة عشر دقائق يعد إهانة متوسطة، خمسة عشر دقيقة تستلزم اعتذارا كاملا، عشرين دقيقة تعد قلة ادب، ثلاثين دقيقة تعد احتقارا، خمس واربعين دقيقة الى ساعة تعد إهانة لا تغتفر مهما كان السبب ومهما كان العذر، ولن يقبل أي اعتذار Broom et al (1981) Hall (1959)، اما في مجتمعنا فيمكن وضع التصنيف الاتي: خمس عشرة دقيقة متوقعة ولا تحتاج اعتذار لأنها أقرب الى الدقة في الالتزام بالموعد، ثلاثون دقيقة تستلزم اعتذارا خفيفا، ساعة كاملة تحتاج تبريرا والتبريرات جاهزة وكثيرة، واغلبها غير صحيحة مثل

مرض مفاجئ، زحام، حادث مروري، ساعة ونصف الى ساعتين تحتاج الى اعتذار كامل، ثلاث ساعات او نسيان الموعد اشبه بالإهانة ولكنها مقبولة لان الطرفين يفعلان ذلك في أوقات مختلفة.

ومهما يكن فان التباين الثقافي يستلزم تباينا في فهم قيمة الزمن وادراكه. ليفين Levine (1988) ذكر قصة طريفة عن أخوين افغانيين اتفقا ان يلتقيا في كابول، ولكنهما لم يحددا السنة او اليوم الذي سيلتقيان فيه، تقول القصة ان رجلا ظهر في كابول يسال عن أخيه، سال كل التجار في السوق ان كان أحد يعرفه، وأخبرهم عن مكان اقامته في حال ان عاد اخوه واراد ان يلتقي به، في السنة اللاحقة عاد مرة أخرى يسال عنه. أحد أعضاء السفارة الامريكية سمع بقصته فسأله ان كان قد وجد أخيه، فقال المشكلة اننا اتفقنا ان نلتقي في كابول ولكن نسينا ان نحدد السنة او اليوم. واستنتج ان ضعف الاهتمام بالزمن هو سمة من سمات المجتمعات التقليدية. ويذكر ادوارد هول قصة أخرى عن مرافقه الإيراني ان صديقا له اقسم اغلظ الايمان ان يأتي في الموعد المحدد للقائه، ولكنه لم يأت وبعد انتظار خمس واربعين دقيقة اتصل بصديقه هاتفيا فوجده ما يزال في البيت، قال له لماذا لم تأت؟ انت اقسمت اغلظ الايمان إنك ستاتي مهما كانت الظروف، قال الصديق على الطرف الاخر للهاتف، اوه، ولكنها تمطر الان، فالتفت اليّ، يقول هول Hall وقال بحزن هذا طبيعي في بلاد فارس.

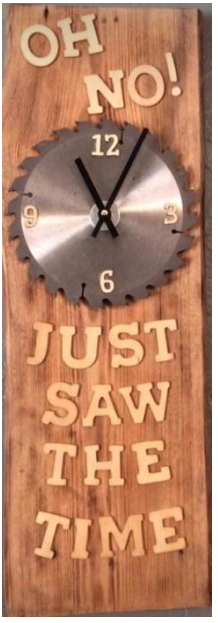

الزمن كالمنشار ان لم تقطعه قطعك

وفي دراسة للباحث الحالي عن قيمة الزمن في العراق، وجد ان (30%) من العمال والموظفين يتأخرون عن وقت العمل المحدد 15 دقيقة على الأقل. وفي دراسة حديثة وجد ان أكثر من 80% من الطلاب يتأخرون أكثر من 15 دقيقة عن الساعة الأولى للمحاضرات(2019) Alwan . والواقع ان الاهتمام بالزمن كقيمة في المواعيد والعمل والأنشطة الاجتماعية الأخرى في الوطن العربي عامة وفي العراق خاصة لا يرقى الى مستوى أدنى دولة صناعية، حتى بين المتعلمين تعليما عاليا. وفي أمريكا اللاتينية يقول إدوارد هول (Hall 1959) غالبا يتعاملون مع الزمن بمرونة عالية.

العلاقة بين الزمان والمكان The Relation Between Time & Space

العلاقة بين المكان والزمان علاقة ترابطية غير قابلة للانفصال، ذلك ان كل الأنشطة والتفاعلات الاجتماعية لها حدود في الزمان والمكان، طبيعة المكان ودرجة تطوره تكنولوجيا وتنظيميا تحدد طبيعة الزمان وطرائق استخداماته وقيمته الاقتصادية والاجتماعية ففي المجتمع الصناعي مثلا المكاتب الخاصة تغلف بمواد عازلة للصوت لا يدخلها أحد الا بموعد مسبق، في ثقافة مجتمعات شمال وشرق البحر المتوسط، مكاتب العمل في دوائر الدولة والقطاع الخاص على السواء، في الغالب لديها مكان استعلامات واسع للانتظار. الشركات والمكاتب الحكومية تقوم بأداء عملها بغير تنظيم في منطقة الاستقبال وفي المكاتب المجاورة بطوابير وبدون انتظام، وتعطى الأولوية للأقرباء والأصدقاء والمعارف والوسطاء، ويترك عامة الناس في الانتظار ساعات وايام. وفي ذلك يقول إدوارد هول Hall

(1987:19) "في المجتمعات التقليدية (غير الصناعية) المواعيد appointments لا تعني كثيرا وربما تتغير او تستبدل في الدقيقة الأخيرة لصالح شخص أكثر أهمية، او لاحد الاقرباء، او الأصدقاء او المعارف. بعض الناس (كما في أمريكا اللاتينية والعرب) يعطون الاسبقية للدائرة الكبيرة لأعضاء الاسرة على حساب أي التزام اخر في العمل" والمسؤولون في الغالب لديهم عدد كبير من الاقرباء والأصدقاء الذين يجعلون من مكاتبهم مضافة تقدم فيها أنواع المشروبات والاطعمة والحلوى ويقضون معهم أوقات ممتعة على حساب العمل وعلى حساب مصالح الناس الذين ينتظرون أياما وايام. اليس عجيبا -يقول إدوارد هول- ان الناس في المجتمعات ذات الزمن المتعددة الابعاد لا يعطون اهتماما لأشياء مثل جدول المواعيد، وبرمجة الوقت؟ ثم يتركون الناس في الانتظار طويلا.. لا شك ان ذلك يعكس مدى الاستهانة بالأخرين كما يعكس سوء التنظيم، وهو أساس الفساد الإداري الذي توصف به ثقافات الشرق الأوسط على وجه الخصوص، ففي زمن العولمة والانترنيت ووسائل الاتصال المتقدمة مازالت أطنان من الورق تستخدم في مكاتبات بيروقراطية عقيمة، ومازالت دوائر الحكومة تعمل بقوانين الدولة العثمانية التي تستخدم عددا هائلا من الموظفين الذين لا عمل لهم ولا انجاز. الهاتف النقال الذي يفترض انه يساعد في تقليص مشكلات العمل وتسريع الإنجاز أصبح وسيلة لقضاء أوقات ممتعة في العمل والبحث عن العاب وبرامج تسوق وتسلية لقضاء الوقت وترك الناس كالمتسولين على الأبواب. وفي كل الأحوال يختلف استخدام الزمن وفقا للمعايير الثقافية ففي اليابان يستخدم الزمن مقياس ولاء

للمؤسسة وفي أمريكا يستخدم زمن العمل مقياسا للكفاءة والجهد والانجاز، وفي العراق يستخدم زمن العمل ولاء للذات والاقرباء والأصدقاء والمعارف.

وظائف الزمن الاجتماعي Functions of Time

هناك وظائف عامة للزمن في كل المجتمعات البشرية، وهناك اختلافات تاريخية مهمة بين المجتمعات التقليدية (قبل الصناعية) والمجتمعات الصناعية الحديثة في إدراك قيمة الزمن. ولبرت مور Moore (1963a) اقترح ثلاث وظائف رئيسة للزمن ذات أهمية لثلاثة وجوه عامة للحياة اليومية: .1 الأفعال المتزامنة في وقت واحد .2 تسلسل الأفعال المتتابعة .3 وتحديد معدل الأفعال في وحدة زمنية. هذه النقاط يمكن ان تكون أساسا لتوضيح وظائف الزمن في الحياة الاجتماعية. فأولى المتطلبات العامة للحياة الاجتماعية التي تواجه الجميع هي ان النشاطات الإنسانية التي تحدث بشكل متزامنSynchronization of Activities ، أي في وقت واحد، ذلك ان جزءا كبيرا من حياتنا الاجتماعية مليء بالأفعال التي يقوم بها الناس بشكل جماعي، ولكي يحدث الفعل الجماعي يتعين على الناس ان يجدوا أنفسهم في المكان نفسه، وفي اللحظة نفسها، مثلا ان مشجعي كرة القدم الذين يقومون بأفعال معينة في الوقت نفسه. ولو وضعنا شاشة تلفزيونية كبيرة في مكان عام وفتحناها على برنامج مثل Arab got talent او مسلسل "تحت موس الحلاق" فان ردود الأفعال المتشابهة ستكون متزامنة، أي ان الكل يبتسم او يضحك او يعلق في وقت واحد. المتطلب الثاني هو التنسيق Co-ordination، الأفعال الفردية لا تحدث في فراغ، عدد كبير

من هذه الأفعال مرتبطة ببعضها وتقود الى اهداف مشتركة، تقسيم العمل الاجتماعي الذي شغل علماء الاجتماع مدة طويلة، أوضح مثال على ذلك، فعندما يستخدم مجهود الفرد في أنتاج جزء صغير من سيارة مثلا في نظام الإنتاج الواسع، ويقوم اخرون بإنتاج أجزاء أخرى فان عمل الفرد يحدث اما بشكل متزامن مع أفعال الاخرين، او في فواصل زمنية محددة او في سلسلة زمنية متصلة، واذا أردت ان تبني بيتا مثلا ، فان عمل البنّاء والسباك وملاحظ العمل يحدث في وقت واحد، وينظمون عملهم بالساعة، وستكون واجباتهم قائمة منطقيا على مبدأ الاعتماد المتبادل. لكي تربح معركة ينبغي ان يتدخل الطيران في الوقت المناسب (قبل او بعد او اثناء المعركة) بحسب الاستراتيجية العسكرية. المتطلب الثالث هو التتابع او التعاقب Sequencing العمليات الاجتماعية تحدث على مراحل، الاحداث تتبع بعضها في تسلسل معين، ومعظم العمليات متلازمة منطقيا، وهناك أفعال تعطي معنى فقط عندما تدخل في اللحظة المناسبة في العملية، أي لا يمكن القيام بها في وقت مبكر او في وقت متأخر، الناس عليهم الانتظار إذا كانوا مبكرين او الإسراع إذا كانوا متأخرين، وأحسن مثال على ذلك هو تجميع الأجزاء في المعمل، ولكن الموقف اكثر عمومية في الأمثلة الاتية: الطفل يجب ان يدخل المدرسة في عمر معين، الحقل يجب ان يحرث قبل بذر البذور في موسم معين، ويحصد في فصل اخر، العدو يجب ان يقصف بالطيران قبل دخول المشاة المعركة، بطاقة التهنئة بأعياد الميلاد ترسل في شهر معين، وهدية الزواج او الولادة لا ترسل قبل الزواج او الولادة، لهذا كله لا يمكن الاستغناء عن الزمن. المتطلب الرابع هو التوقيت Timing

بعض الأنشطة يمكن القيام بها فقط عندما تكون الموارد او التسهيلات متوافرة، وربما لا تكون متوفرة طوال الوقت، وقد تتوفر في بعض الفترات فقط، ففي بعض أيام الأسبوع يمكن الذهاب للمصرف، للسوق، للمطعم، للسينما، للمسرح لان الساعات التي تفتح فيها تختلف باختلاف المجتمعات، وضبط مواعيد الفتح والاغلاق جزء ضروري من الثقافة. وهناك توقيتات دقيقة للقطارات والطائرات، والباصات العامة والسفن في المغادرة والوصول، واستخدام وسائل النقل العام غير ممكن من دون معرفة جداول التوقيتات. المتطلب الخامس هو القياس Measuring ان المدة الزمنية للأنشطة المختلفة لها أهمية بالغة على المستوى الاجتماعي، فمثلا تحديد طول الجهد المتوقع: (ساعات المدرسة، ساعات العمل)، الاجر الذي يدفع (باليوم، بالأسبوع بالشهر) الأداء المتميز (في المنافسات الرياضية، الاختبارات الاكاديمية) ثمن الخدمات (المكالمات الهاتفية، الكهرباء، او تأجير سيارة) كل هذه الأنشطة من الصعب تحديدها من دون مقاييس زمنية عامة ومقبولة. والمتطلب الأخير هو التمييز Differentiating من المهم جدا كسر الرتابة وروتين الحياة بتوزيع الفترات الزمنية على الأنشطة المختلفة، فالأيام مثلا تكرس للمتعة او العبادة، للرياضة او العيد، للتسوق، او لجمع افراد الاسرة، للاحتفالات، او تكرس لحملات انتخابية. كل هذه التوزيعات الاستثنائية، من العمل الى الاهتمامات الدنيوية تتعلق بالناس في كل المجتمعات، وإحدى وظائف الزمن هنا هو تحديد اللحظات المناسبة لهم وعزلها. Sztompka (1998)

ان هذه الوظائف على أهميتها ربما تتغير مع التعقيدات المتزايدة للمجتمعات البشرية بمؤسساتها ومنظماتها وواجباتها وبالتحديات التي تواجه أعضاءها. فقط تذكر القبائل التي تعيش على الصيد او جمع الطعام وضعها في مقارنة مع مدينة صناعية حديثة، في المجتمع البدائي الزمن ينبثق من الأنشطة الايقاعية للطبيعة، من إعادة أنماط الأفعال، تعاقب الفصول، دورة الحياة، الاحتفالات الدينية او السحرية، ومن هذه جميعا يحصلون على الوعي بالزمن, واذا اخذنا الطرف النقيض أي المجتمع الصناعي الحديث فان الوضع سيكون معكوسا، الزمن يصبح الضابط المركزي، المنسق، والمنظم للأنشطة الإنسانية، بسبب ذلك يكتسب الزمن نوعا من الاستقلالية العمياء، فهو لم يعد أداة او الة وانما قيمة بذاته، يصبح متغيرا مستقلا، وعاملا أساسا ومحددا للحياة الاجتماعية، وبتعبير ادق هناك طغيان للزمن في المدنيات الحديثة، التقويم والساعة اصبحت هي القوى الحاكمة. جاك جودي Goody (1968) اعتبر الساعة الالة الرئيسة في العالم الحديث تفوق في أهميتها اختراع الماكنة البخارية، والناس أصبحوا يتوجهون كالعميان نحو التواريخ والساعات والمواعيد النهائية، واخذ الزمن شكل الثروة التي يمكن انفاقها، الاحتفاظ بها او خسارتها، او شكل السلعة التي يمكن شراؤها، بيعها او تبادلها او كما تقول باربرا ادم Adam (1995:52) بات الزمن ذا شخصية خاصة في المجتمعات الصناعية الحديثة اذ انه ثروة يمكن وضعها في الميزانية، تضييعها، بيعها او السيطرة عليها. في الحضارة الصناعية يقول Sztompka (1998)، تدفع الأجور بالساعة، وتبرم العقود بالزمن، ويحسب العمل بالوقت، والاكل حتى الاكل

يحسب بالوقت، من هذه المرحلة فصاعدا لم يعد هناك شيء خارج ختم التقويم او الساعة. واضاعة الوقت من أكبر الآثام، وأصبحت الدقة في المواعيد من أكبر الفضائل.

من اجل التحديث قامت الحكومة المكسيكية في عام 1983 بحملة توعية من اجل استخدام عقلاني للزمن، وفي شوارع مكسيكو العاصمة، صار بالإمكان رؤية إعلانات كبيرة تذكر الناس بمقولة بنجامين فرانكلين الشهيرة Time is Money هذه الظاهرة التي حولت الزمن الى آلة واداة قياس وعامل مستقل هي ظاهرة نوعية في الحياة الاجتماعية، وخصيصة من خصائص الحداثة.

إيقاع الزمن Rhythm of Time

الجانب الاخر للزمن هو الجانب غير المحسوس بدرجة كافية ولكنه على درجة من الأهمية، ذلك هو إيقاع الحياة. ولان دورات الطبيعة ايقاعية Rhythmic فإننا نفهم ان الإيقاع او الرتابة هي ملامح تعكس نمط الثقافة السائد. والإيقاع يربط الناس مع ثقافتهم، ويميزهم عن أعضاء ثقافة أخرى. في بعض الثقافات يتحرك الناس ببطء شديد، في أخرى يتحرك الناس بسرعة كبيرة، عندما تلتقي الثقافتان تنشأ صعوبة بالغة في لقائهما لانهما ليستا متزامنتين، وهذه على درجة من الأهمية لان التزامن يقتضي القدرة على الحركة معا بالإيقاع نفسه، وذلك مهم للتعاون، والتشاور، والإدارة والعمل مع بعض على الآلات والمكائن او حتى البيع والشراء. الناس الذين يتحركون بإيقاع سريع يطلق عليهم ذيل العربة Tailgating. الذين يتحركون ببطء شديد والذين يتحركون بسرعة ليس بينهم تفاعل منسجم

harmonious interaction لأنك لا تستطيع ان تجبر الذين يتحركون بسرعة على الابطاء، ولا الذين يتحركون ببطء على الإسراع. الامريكيون يشكون من بطء اليابانيين في اتخاذ القرارات، واليابانيين يشكون من الامريكان في انهم لا يعطون اليابانيون الفرصة للوصول الى الاجماع في اتخاذ القرارات والذي يتطلب مزيدا من الوقت. يمكن أيضا ملاحظة الفارق بين العرب والاوربيين في الحركة، الاوربيون سريعون جدا والعرب في منتهى البطء، ليس فقط في الشوارع والأماكن العامة ومحطات القطارات ولكن أيضا في كل مناشط الحياة. Hall (1987)

التوجهات الزمنية Time Orientation

من المهم جدا معرفة الجزء الذي يوكد عليه الناس في توجهاتهم الزمنية، ففي ثقافة الشرق عموما، والعرب والفرس والترك والهنود خاصة يتوجهون نحو الماضي Past-oriented، اما الاخرون مثل اوربا والولايات المتحدة الامريكية فانهم يتوجهون نحو الحاضر والمستقبل - "oriented Present & future" ويتركون الماضي خلف ظهورهم. في كتابات الكتّاب العرب والفرس والهنود لا بد من خلفية تاريخية تنبش الماضي التليد، وفي الأحاديث العامة لا يستقيم الكلام الا بالعودة الى "يروى ان" و"يقال في سالف العهد". الماضي المجيد هو أحد اهم مرتكزاتنا الثقافية التي لا يستغنى عنها في سلوكنا. والماضي الذي ينبغي ان يكون محفزا لاستلهام العبر والانطلاق نحو المستقبل تحول الى كابوس يهيمن على حياتنا وافعالنا ويشدنا شدا الى الوراء. يقول إدوارد هول E. Hall (1987, 1959) الماضي في إيران يأخذ اهتماما مبالغا فيه. الناس ينظرون الى

الوراء ويستشعرون عجائب الماضي والعصور العظيمة للثقافة الفارسية، والمستقبل يبدو تافها بالنسبة له، رجال الاعمال ينفقون ملايين الدولارات في شراء مصانع من كل نوع من دون ان يضعوا أية خطة في كيفية تشغيلها. مصنع كامل للغزل والنسيج تم شراؤه وشحنه الى طهران قبل ان يقوم المستثمر الذي اشتراه بتوفير المبالغ اللازمة لنصبه وتشغيله، وقبل تجهيز شراء المواد الأولية او تدريب العاملين، وعندما جاء الفريق التقني الأمريكي لمساعدة الاقتصاد الإيراني، كان عليهم التماشي مع الانعدام التام للتخطيط. ويبدو ان ذلك هو حال كل الثقافات المشدودة الى الوراء والمتمسكة بالماضي الذي أصبح عبئا ثقيلا بدل ان يكون حافزا للتقدم. وفي العراق مصانع كاملة تم شراؤها وشحنها واركنت في المخازن حتى اكل الصدأ نصفها ثم بيعت بالمزاد العلني لتجار الخردة وسماسرة السياسة الذين يعملون لصالح اجندات خارجية. طبعا كثير من الثقافات تغيرت بما فيها إيران وتركيا وأصبحت قادرة على التخطيط للمستقبل وهم أفضل حالا من اغلب دول المنطقة، ولكنهم أيضا لم يلحقوا بالثقافات الصناعية، ومازالت كثير من رواسب الماضي تشدهم بقوة الى الخلف.

الزمن والتغير الاجتماعي time and Social Change

كيف لنا ان نعرف ان التغيير يتسارع، انه بعد كل شيء لا يوجد مقياس مطلق للتغير، عمليا وفي ظل التعقيدات الكونية المتزايدة في كل المجتمعات فقيرها وغنيها، كبيرها وصغيرها، هناك سيل غير محدود من التغيرات التي تحدث في وقت واحد، كل الأشياء من أصغر فايروس الى أعظم مجرة هي في الواقع ليست أشياء انها عمليات Processes ليس هناك نقطة ثابتة،

ليس هناك ما يشبه النيرفانا* التي تعمل بالضد من قوانين التغير، ولأن التغير كذلك فهو لا بد منه. وهو لذلك لا يعمل بمستوى واحد، فهناك أشياء تتغير أسرع من غيرها وهناك مجتمعات تتغير أيضا أسرع او ابطأ من غيرها، فاذا كانت كل العمليات تحدث بالسرعة نفسها وبالمستوى نفسه وتتسارع او تتباطأ بانسجام فسيكون من المستحيل ملاحظة التغير. المستقبل يغزو الحاضر بسرعات مختلفة، لهذا أصبح ممكنا مقارنة سرعة العمليات المختلفة بوضوح. نحن نعرف، مثلا، بالمقارنة مع التطور البيولوجي للجنس البشري، التطور الاجتماعي والثقافي في الواقع أسرع بكثير، ونعرف أيضا ان بعض المجتمعات تطورت اقتصاديا وتكنولوجيا أسرع من الأخرى، وان بعض المفاصل في المجتمع الواحد تتطور بمعدلات أسرع من غيرها وهي التي سماها وليم اوكبرن الفجوة الثقافية Cultural lag وهي تعني بالضبط التغير غير المتوازن الذي يمكن قياسه. والواقع نحن نحتاج الى مقياس معتمد yardstick يجعل بالإمكان مقارنة عمليات التغير شديدة التنوع، وهذا المقياس هو الزمن. من غير الزمن يصبح التغير لا معنى له، ومن دون التغير يتوقف الزمن. الزمن يمكن ادراكه عن طريق فترات وقوع الاحداث، تماما مثلما تسمح لنا النقود بتحديد قيمة البطيخ والبرتقال، الزمن يسمح لنا بمقارنة عمليات التغير المختلفة، فلو قلنا اننا نحتاج ثلاث سنين لبناء سد من السدود، فكأنما نقول اننا نحتاج ما يعادل

*النيرفانا: حالة الانطفاء الكامل التي يصل اليها الانسان بعد مدة من التأمل العميق في الديانة البوذية. وهي طريقة مهمة لتفريغ الشحنات العاطفية الضاغطة

دوران الأرض حول الشمس ثلاث مرات. الزمن هو عملة التبادل التي تجعل بالإمكان مقارنة معدلات التغير المختلفة، ومع التسلح بالزمن بوصفه مقياسا معتمدا للتغيرات غير المتساوية، فإننا ما نزال نواجه صعوبة بالغة في قياس التغير، فعندما نتحدث عن معدل التغير فإننا نشير الى عدد الاحداث التي تتجمع خلال حقب زمنية نحددها اعتباطيا، لهذا نحتاج الى تعريف "الاحداث" وهذ يستلزم اختيار الفترات الزمنية بدقة، ونحتاج الحذر في الاستنتاجات التي نصل اليها بسبب اختلافاتنا في الملاحظة. وعلى الرغم من اننا أكثر تقدما في قياس التغير الطبيعي عما هو عليه الحال في التغير الاجتماعي، فإننا نعرف بطريقة أفضل مثلا، كيف نقيس معدل جريان الدم في الجسم، أكثر مما نعرف عن معدل انتشار الشائعة في المجتمع. ومع كل هذه المؤهلات، على كل حال، هناك اتفاق واسع بين المؤرخين وعلماء الاثار وعلماء الاجتماع والاقتصاد في ان معدلات التغير تتسارع بشكل غير مسبوق وغير مسيطر عليه، وربما يصعب قياسه مع كل التقدم التكنولوجي الذي وصلنا اليه. وقد يكون ذلك مدعاة لإعادة النظر ليس في المقياس المعتمد وانما في طريقة الملاحظة وإجراءات القياس طالما اننا لا نملك وسيلة قياس أخرى غير الزمن. Toffler (1971)

خلاصة Conclusion

إذا كنا نعتقد اننا نعيش في مجتمع وإننا نستبطن معايير هذا المجتمع وقيمه وعاداته شعوريا او لا شعوريا ونتماثل مع أعضاء المجتمع الاخرين فإننا ندخل ضمن دائرة البرمجة العقلية للثقافة، بمعنى اننا نتصرف ونعمل ونشعر بطريقة غير قابلة للتجزئة. يمكننا التكيف مع ثقافة أخرى بعملية

تثاقف او استعارة او استحسان، ولكننا لا نستطيع تحت أي ظرف ان نتخلى عن القواعد الثقافية التي شربناها مع اول قطرة لبن ومع اول كلمة استحسان او استهجان، مع اول كلمة عيب او حرام، ثم مع دار دور في القراءة الخلدونية. الثقافة اذن وعاء عملاق يستوعب طريقة حياة أعضاء كل مجتمع من المجتمعات، ويمنحهم هوية لا تشبه باقي الهويات. وعلى الرغم من الغزو الثقافي الذي حملته الينا وسائل التواصل الحديثة، وعلى الرغم من التقارب الشديد بين سكان الكوكب، الا ان التنوع الثقافي سيبقى ابدا لأنه يورث عبر الأجيال بطريقة تشبه الموروثات الجينية.

لقد تفاءل بعض السياسيين وعلماء الاجتماع كثيرا عندما ظنوا ان العولمة يمكن ان تعمل على حصر الثقافات المتنوعة تحت خيمة ثقافية واحدة، فوجدوا بعد حين ان تفاؤلهم لم يكن في محله وان العولمة ذاتها ليست أكثر من حلم من الاحلام وان الثقافات على تنوعها تزداد تمسكا بتقاليدها كلما ازداد عليها الضغط.

اعترف ان الثقافة يمكن ان تتحول وتتبدل وتتطور ولكن يبقى كل ذلك ضمن حركة التغير الطبيعي الذي يستلزمه التبدل في نمط الإنتاج والاستهلاك. وبسبب التنوع الثقافي ومعدلات التطور فان مفهوم الزمن ظل احد اهم مكونات الثقافة، وفي ذلك مازالت كل ثقافة تحتفظ بحسابها وادراكها للزمن، فالثقافات التي حولت الوقت الى بضاعة يمكن بيعها او شراؤها او الاحتفاظ بها تنظر للزمن بمنظور مادي على انه سلعة غالية الثمن، وهذا يحسب للثورة الصناعية التي حولت إيقاع الزمن البطيء المرتبط بأحداث الطبيعة الى إيقاع سريع يتناسب مع المكننة والاتمتة، اما المجتمعات التقليدية التي

نُصنف نحن ضمن دائرتها المغلقة فإنها ماتزال تتعامل مع الزمن على انه بضاعة كاسدة لا قيمة لها، يمكن تضييعه ويمكن التعامل معه بتراخ ويمكن اهماله، والساعات غالية الثمن التي نعلقها على الحوائط أو التي نرتديها في المعاصم نستخدمها للزينة وليس لجدولة انشطتنا اليومية.

الزمن واستخداماته يحدد موقعنا على خرائط الطول والعرض الثقافية، ومع اننا في زمن سريع التبدل في كل الميادين مازلنا نتأخر عن المواعيد بمعدلات تفوق أجزاء الساعة ولا نكترث، وما تزال مؤسساتنا تعمل بقوانين المواسم والفصول، وما زلنا نستخدم النظام البيروقراطي الورقي الذي انقرض منذ ربع قرن في كل تعاملاتنا اليومية. وفوق هذا مازال الماضي يجرنا بقوة الى الخلف. التغير الذي يقاس بالزمن لم يدفعنا ولو لمرة نحو حسابه بمنطق المتأخر في السباق.

الفصل الخامس

تحليل القيم الأخلاقية

في الجماعة تتربى الميول

القيم الأخلاقية ليست ثابتة، بل هي تختلف من زمن لزمن. هي ليست فقط متغيرة من زمن لزمن فحسب، وإنما تختلف من مكان لمكان في الزمن الواحد!

تأملوا تاريخ البشرية المكتوب، تجدوا أن الأخلاق في عصور العبيد لم تكن تحرّم بيع الإنسان وشراءه على سبيل المثال، فكان المرء مثل السلعة، يمتلكه إنسان آخر يفعل به ما شاء حتى القتل، والقانون يؤيد هذه المفاهيم الأخلاقية ويحميها آنذاك!

الأمر نفسه ينطبق على علاقة الرجل بالمرأة، ولن أغوص في كهوف التاريخ، وإنما سأتحدث عن عمل المرأة، ففي أوطاننا قبل قرن من الزمان تقريبًا لم يكن مسموحًا للمرأة–من باب الأخلاق–أن تعمل وتشارك الرجال »الغرباء« مكان العمل نفسه، كما لم يكن مسموحًا لها بتلقي العلم في المدارس.
أما الآن، فالمرأة تشارك الرجل قاعات الدرس وتقتسم معه الوظائف، والأخلاق الشائعة تؤيد ذلك بشدة ولا تستنكره.

لا شك في أن القيم والأخلاقيات في كل مجتمع هي نتاج تطور تاريخي

وحضاري، لهذا فهي ضرورية في تكوين المجتمع، وفي الاستقرار والمحافظة على حياته الاجتماعية، ولقد طالبت كل الأديان السماوية الإنسان أن يتصف بالأخلاق الحميدة، ووضعت له هذه الأخلاق والنتائج الإيجابية المترتبة على اتباعها.

ومن أمثلة هذه الأخلاق الحميدة الكلمة الطيبة، التسامح، مساعدة الآخرين، الصدق، الأمانة. ونظراً لأهمية الجوانب الأخلاقية لأي مجتمع فإن كثيراً من المجتمعات وضعت لنفسها دستوراً أخلاقياً، أو ميثاق شرف أو لوائح تحدد النهج السليم الذي يقود الأفراد إلى أداء واجباتهم.

ودورهم في المنظومة الإنتاجية التي ينتمون إليها. و هي إلى جانب ذلك السياج المنيع الذي يحميهم من الخطأ والزلل، ويحول بينهم وبين ارتكاب أي عمل يخالف الضمير، أو يتنافى مع المبادئ، وهي تمثل دستوراً أخلاقياً يجب على كل فرد وجماعة في المجتمع أن يحترمه ويتبعه. و لو نظرنا لمسألة الأخلاق من منظور فلسفي بين النسبي و المطلق حيث يقال أن القيم الأخلاقية نسبية في طبيعتها. فنرى أن هذه ا الأطروحة أبطلت بالبرهان بطريقة الاستقصاء بالرفع.

من الشائع عند الكثير من الفلاسفة بان الأخلاق التي تمثل مجموعة المبادئ والقيم لكل إنسان قيمتها ثابتة في كل زمان ومكان أي أنها مطلقة ، لكن هناك فكرة أخرى تختلف عن سابقتها اختلافا جوهريا وقد اعتبرت القيم

الأخلاقية نسبية ومتغيرة باختلاف الزمان والمكان والأفراد.
فإذا كانت الأطروحة التي تقول أن الأخلاق في طبيعتها نسبية أطروحة باطلة وغير صحيحة فكيف يمكننا دحضها وتفنيدها بالأدلة والبراهين ؟ الأخلاق في مجموعة المبادئ والقيم التي يستوجب على الإنسان العمل وفقها وبمقتضاها وهي في أساسها وقيمتها نسبية على حسب رأي أصحاب المذهب البرغماتي " النفعي " وكذلك أنصار المذهب الاجتماعي ، فهي نسبية ومتغيرة باعتبار المنفعة متغيرة على حسب الأفراد واختلاف منافعهم وعلى حسب الظروف وكذلك المجتمع بطبعه الذي لا يبقى على حاله وبما أنهما أساسان للأخلاق وطبيعتهما نسبية فانه بموجب هذا تكون الأخلاق نسبية ومتغيرة لا محالة وهذه النقطة هي التي اشترك فيها كل من المذهبين "الاجتماعي والنفعي " ومن زعماء المذهب النفعي الفيلسوف اليوناني أبيقور الذي يرى أن اللذة والسعادة هي الخير الأعظم ومن ابرز زعماء المذهب الاجتماعي عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم الذي اشتهر بمقولته " إذا تكلم الضمير فينا فان المجتمع هو الذي تكلم "ويستدل أنصار هذا الاتجاه على الكثير من الأدلة التي تبدو في مجملها أدلة واقعية فنجد مثلا الإنسان في حياته دائما ينشد المنافع ويتبعها ويعتبر الفعل الذي تنجر من وراءه منفعة فعلا اخلاقيا والعكس صحيح أي أن الفعل الذي لا يجلب منفعة لصاحبه يعده فعلا لا أخلاقيا أما بالنسبة للمجتمع فنلاحظ غالبا أن قيم الأفراد مستمدة بصورة مباشرة من المجتمعات التي يعيشون في وسطها ، كلا هذان الجانبان يشتركان في نقطة أساسية وجوهرية ألا وهي اعتبار القيم الأخلاقية مبادئ نسبية ومتغيرة

غير أن الأدلة التي قدمها زعماء المذهبين النفعي والاجتماعي بالرغم من أهميتها تبقى ناقصة وقابلة للرفض والدحض ، فالأخلاق في حقيقتها ثابتة ومطلقة لان أساسها الدين والعقل وهما أساسان يصعب كثيرا نقدهما فهما يتميزان بالثبات و المطلقية في كل زمان ومكان فقد اتفق فيها كل من المذهبين العقلاني والديني على أن الأخلاق مطلقة وثابتة وهي واحدة عند جميع البشر فالخير هو دائما خير والشر كذلك ، ففي الدين الإسلامي مثلا نجد فرقة "الأشاعرة " بزعامة أبو الحسن الأشعري تتبنى هذا الاتجاه وتؤكد على اعتبار القيمة الخلقية مطلقة لا مصدرها هو الشرع و الشرع من الله . كذلك المذهب العقلاني مع الفيلسوف الفرنسي" ديكارت " أكد على هذه النقطة وهي اعتبار الأخلاق مبادئ ثابتة ومطلقة وذلك تبعا لثبات العقل و مطلقيته.

إن المتتبع لمشكلة طبيعة القيم الأخلاقية يلاحظ دائما أن هذه القيم مهما تعددت فإنها تنتهي في الأخير إلى أمور ثابتة ومطلقة فاهم مفهوم في القيم الأخلاقية هو معيار الخير والشر اللذين يبقيان قيمتان مطلقتان ، وبهذا تبطل ادعاءات الفلاسفة الذين اعتبروا القيم الأخلاقية قيما متغيرة نسبية وبما أن مذهب المنفعة والمجتمع اعتبرا القيم الأخلاقية نسبية ومتغيرة فقد هدما المعنى الحقيقي للأخلاق من أساسه لان الأخلاق في جوهرها ثابتة ، كذلك نجد في هذين المذهبين نوعا من التعسف والتقليل من القيم الأخلاقية فالمذهب النفعي جعل الإنسان مثل الحيوان من خلال تتبعه لغرائزه وتحقيق

شهواته فقط والمذهب الاجتماعي كذلك سلب من الإنسان حريته وجعله مجرد دمية في يد المجتمع يتحكم فيه كما يشاء دون وعي من لا إرادة من هذا الإنسان وهكذا نستنتج في الأخير بان الأطروحة التي تقول بان القيم الأخلاقية نسبية ومتغيرة أطروحة باطلة وفاسدة لا يمكن بأي حال من الأحوال الاعتماد عليها ولا تبنيها فالقيم الأخلاقية مطلقة في جوهرها وحقيقتها وليست نسبية كما ادعى بعض الفلاسفة.

الفصل السادس

ماهية العمل الإنسانى والتشافى الذاتى

Family الأسرة

الأسرة هي دار كل الشرور الاجتماعية وجحيم كل الاطفال
اوغست ستريندبرغ
كاتب وشاعر سويدي

المبادئ والأخلاقيات في حياتنا كالملح في الطعام، بل هي أهم، ففقدان الملح قد يفسد الطبخة لكن يمكن تعويضها بأي شكل آخر، أو أنها قد تؤكل وتُستساغ تحت ضغط الجوع مثلاً، لكن فقدان المبادئ والأخلاق من الحياة سيُفسدها. ولا يمكن أن تُستساغ وسيظل الضمير مُتعَباً أرقاً من غير شك.

ولا جدال حول أهمية توافر المبادئ والأخلاقيات في كل شيء نقوم به في حياتنا، بلا استثناء، حتى لو كانت حالة الحرب، فكلاهما يجب أن يكونا حاكمين في أي عمل، لأنهما تشكّلان عنصراً فارقاً في كَونه جيءَ به على الوجه الأكمل، ويظن المراقب فيه كما لو أنه عملٌ ينبض بالروح والحياة، أو أن يكون عملاً حركياً جامداً بحتاً لا يعدو كونه إجراءً وظيفياً مثل الآلة يقوم به المرء دون أي زيادة أُخرى.

مثال ذلك دخول الطبيب المبتسم على مريضه الموجوع، وابتداء عملية الفحص والعلاج بجرعاتٍ مكثفة من بثِّ الأمل والتخفيف من الألم بالكلام الطيب والابتسامة الصادقة، التي تلعب دوراً في الشفاء أكثر من حبوب الدواء، أو دخول طبيبٍ على المريض نفسه لكن بدا كأنه قابض الأرواح مكفهرّ الوجه، يقوم بعمله كأنه آلة ميكانيكية بكماء، صمّاء، فيخبر المريض

بأنه مصاب بالسرطان وأن أيامه باتت معدودة في الحياة ويجب عليه أن يستعد للموت.

ليس الهدف من هذا الحديث حول الفرق بين المبادئ والأخلاق، وإن كان ذلك لا يمنع من تبيانه باختصار، لأن العمل الإنساني بشكل عام تحكمه أربعُة مبادئ أساسية معروفة هي (الإنسانية – الحياد – عدم الانحياز – الاستقلالية) وقد تصل إلى سبع إذا ضممنا إليها)الخدمة التطوعية – الوحدة – العالمية). وحتى نصل إلى المقال القادم الذي سنتحدث فيه عن المبادئ الأربعة بالتفصيل، نوضح أن المبادئ هي المعتقدات والخطوط المرجعية لدى الإنسان والتي تحدد له الخطأ والصواب، أو السيّء والجيد في الحياة، ومصدرها الإنسان نفسه، وهي ثابتة لا تتغير إلا إذا غيَّرها الإنسان بتغيير الدين مثلاً.

عند أداء العمل بشكل وظيفي مجرد من غير أخلاقيات قد يكون مقبولاً من ناحية مادية بحتة، لكن من الناحية المعنوية والعاطفية فهو مرفوض، لا تقبله النفس إلا مُرغمة أما الأخلاق فهي معايير السلوك أو القواعد المتعارف عليها، توصَف بالحُسن أو القُبح، ويكون مصدرها الدين، أو الثقافة، وكذلك أعراف المجتمع، وهي التي تضيف إلى السلوك نكهةً تنفي عنه المادية والجفاف. ولتوضيح الأمر أكثر فإنّ تحريم وتجريم أفعال مثل القتل والاغتصاب هو مبدأ لا يتغير، أما الالتزام بالامتناع عنها فهو جانب أخلاقي.

عند أداء العمل بشكل وظيفي مجرد من غير أخلاقيات قد يكون مقبولاً من

ناحية مادية بحتة، لكن من الناحية المعنوية والعاطفية فهو مرفوض، لا تقبله النفس إلا مُرغمة. مثاله قيام موظف العمل الإنساني بإعطاء سلة غذائية لعائلة فقيرة لكنه أعطى معها إذلالاً لفظياً بتحميل العائلة ما لم تحتمل من ألفاظ المنّ المصحوب بالأذى، أو مادياً مثل أن يلقيها لهم بشكل غير لائق فيه احتقار وازدراء، مما جعلهم يتجرعون الغذاء الذي فيها كأنه السمّ، وكانوا يتمنون لو أنهم يستطيعون رفضها لولا حاجتهم الشديدة، التي ستجعلهم عُرضة للجوع في ما لو رفضوا سلة الغذاء.

أو قد يلحقهم الموت، وربما تكون الظروف ظروف حرب وقتال فلا يُنتبه إلى هذه الجزئية من الكرامة الشخصية أمام مسألة الموت أو الحياة، أو حتى أمام صراخ الجائعين من الأطفال والضعفاء. وعلى الوجه الآخر قيام موظف العمل الإنساني بإعطاء سلة الغذاء لنفس العائلة بنوع من الأدب والتواضع، وكلمات التخفيف عليهم من قبيل "نحن جميعاً نحتاج للمساعدة" "هذا الطعام حقٌ لكم ونحن مجرد وسائل"، ويزداد الأمر روعةً حين يشاركهم الأكل منها، ويسألهم هل ترغبون بشيء آخر مثلاً غير هذه الأصناف الموجودة، إلى آخره من أساليب تطييب النفس. الفرق بين الاثنين كالفرق بين الشرب من ماء البحر والشرب من الماء العذب الزلال. يزيدك الأول عطشاً، ويعطيك الآخر حلاوة وريّاً حتى لا تكاد ترغب في المفارقة.

ماهي الاسرة؟ * What is a Family

سؤال ساذج ينبغي ان لا يُسأل، فمن المؤكد اننا جميعا نعرف ما هي الاسرة، فعندما نقول عائلتي او عائلتك فأننا نعرف بالضبط ماذا نعني بها، لكن في هذا الفهم إشكالية بعيدة كل البعد عن الوضوح، فعندما نقول عائلتي، قد نعني بها الاسرة المباشرة التي نعيش ونشترك فيها مع ازواجنا واولادنا في سكن موحد، وقد نعني بها الجماعة الاوسع ، الابوين والاخوة والاخوات، سواء كانوا يعيشون معنا او يعيشون في سكن منفصل، ويمكن ان تمتد لتشمل جماعات اكبر لتشمل الأقارب الذين يتم الاتصال بهم في مناسبات معينة، وقد نعني بها أقارب الدم مثل الاعمام والاخوال وابنائهم، العمات والخالات والاجداد، وقد تعنى أشخاصا ليس لنا اتصال بهم على الاطلاق ننتسب لهم بالاسم فقط . فتعريف الاسرة ليست بالبساطة كما تبدو. التعريف ينبغي مناقشته عن طريق المفاهيم المرتبطة بالمنزلة والقرابة. والتعريف التقليدي للأسرة مرتبط بالزواج وتقسيم العمل بين كاسب القوت وربة البيت التي تقوم بتربية الأطفال، وهذا التعريف يستبعد الاسرة التي تدار بوساطة الاب وحده او الام وحدها "الاسرة أحادية الوالد" Single Parent كما يستبعد المعاشرة بين اثنين من دون عقد زواج، ويستبعد الزواج المثلي (الذي أصبح شرعيا في اغلب بلدان اوربا). لتجنب الإشكالية يقول جتنز (1993) Gittins يجب ان نتحدث عن الأسر او العوائل بصيغة الجمع لكي تشمل كل أنواع الاسرة، ونتخلص من إعطاء امتياز لشكل معين للأسرة على حساب الاشكال الأخرى. ومع هذا الاتجاه الذي لقي رواجا عند بعض علماء الاجتماع، مازالت الإشكالية قائمة. وعلى كل حال وحسما

للجدل فان الاسرة تشترك في خاصيتين: أولها العلاقات القريبة مكانيا والحميمة عاطفيا، حيث ان العلاقة العائلية قريبة داخل الاسرة عنها مع الناس خارجها، ولأعضائها شعور بالانتماء، وثانيها الإحساس بالولاء والمسؤولية، فأفراد الاسرة يعطون أولوية قصوى لحاجات الأعضاء الاخرين، والمسؤوليات غالبا مقررة سلفا فالأب يعرف مسؤولياته تجاه أعضاء الاسرة كما تعرف الام والأولاد حدودهم في المسؤولية. وفي ضوء ذلك يمكن الان تعريف الاسرة على انها أصغر وحدة اجتماعية يرتبط أعضاؤها بروابط الهوية والانتماء والمسؤولية، وهذه الوحدة الاجتماعية لا تقوم بالضرورة على الزواج، او الانحدار البيولوجي او التبني.

لحقبة طويلة مضت كان علم الاجتماع ينظر للعائلة على انها مؤسسة اجتماعية تعمل على توحيد الافراد في جماعات متعاونة تشرف على تربية

---

*استخدمنا مفهوم العائلة بنفس معنى الاسرة تماشيا مع أصلها الإنكليزي Family ربما تعطي معنى مقارب او مختلف بعض الشيء في اللغة العربية. بعض اللغويين العرب يعدون العائلة من الأخطاء الشائعة، فهي مؤنث "عائل" والعائل: الفقير، ويحتجون بقوله تعالى "ووجدك عائلا فأغنى" الضحى 8, ولكننا آثرنا استخدامها بنفس المعنى لشيوع استخدامها في علم الاجتماع. وفي اللغة الإنكليزية هناك مصطلح Household الذي يعني سكان البيت وذلك لا يشكل اسرة ولا عائلة، فربما يكون في البيت أكثر من عائلة او نصف عائلة او شخص واحد بمفرده. فهو اذن لا يصلح لاستخدامه كمعنى مقارب للأسرة او الاسرة كما نفهمها في اللغة العربية.

الأطفال، واغلب العائلات مبنية على القرابة، أي انها رابط اجتماعي يقوم على الدم، الزواج او التبني. وعلى الرغم من ان كل المجتمعات لديها نظام عائلي لكنها تختلف تاريخيا في تحديد من يدخل تحت مظلة الاسرة ومن يكون خارجها، واليوم أيضا شكل وتركيب الاسرة يختلف باختلاف الثقافات. في القرن العشرين كان الناس ينظرون للأسرة على انها وحدة اجتماعية تتألف من شخصين او أكثر يرتبطون برابطة الدم، الزواج او التبني ويعيشون مع بعض في سكن موحد. في كل انحاء العالم الشكل الأكثر شيوعا للعائلة يقوم على الزواج المقبول شرعيا ويقتضي الديمومة والتعاون الاقتصادي والعلاقات الجنسية المعيارية ورعاية الأطفال، وهو الزواج الذي ينتج عنه الولادات الشرعية، وكان الناس يطلقون على الأطفال المولودين خارج العلاقة الزواجية بأنهم غير شرعيين. طبعا هذا الربط بين الزواج وشرعية الأطفال أصبح ضعيفا جدا في المجتمعات الغربية حتى يقول ماسيونز Macionis & Plummer (2002) ان واحدا من كل أربع ولادات يولدون من اباء غير معروفين، ولكنه ما يزال فعالا جدا في مجتمعنا العربي حيث يحمل الوليد غير الشرعي وصمة اجتماعية طول حياته ويستبعد حصوله على عمل او علاقة عاطفية او زواج طبيعي مثل سائر الناس.

عدد كبير من علماء الاجتماع الغربيين يرفضون ربط الاسرة بالزواج وإنجاب الأطفال لان ذلك سيجعل كل عضو من أعضاء المجتمع يخضع لمعيار واحد، حيث ان اعدادا متزايدة من الناس (في المجتمع الغربي طبعا) يتمردون على الشكل التقليدي للروابط العائلية، الغالبية اليوم يركزون على

الاسرة التي ترتبط بالتجاذب العاطفي القائم على الحب المتبادل من دون قيود اجتماعية او شرعية. عالم الاجتماع كريستوفر كارنتون Christopher Carrington (1999:5) يقول " انا افهم ان الاسرة تتألف من أناس يحبون ويعتنون ببعضهم البعض".

النظريات المفسرة للعائلة Theories Explaining Family

بسبب وجود اشكال متعددة للأسرة، فإننا نحتاج ان نعرف لماذا أصبحت الاسرة النووية معيارا للمجتمع الصناعي الرأسمالي. بعد الحرب العالمية الثانية النظرية التفسيرية الأكثر شيوعيا كانت البنائية الوظيفية التي طورها تالكوت بارسونز (79-1902). شيل Cheal (1991:3-4) أطلق على هذا الاتجاه النظري "علم الاجتماع الأمريكي الأساسي" Standard American Sociology بسبب هيمنته على كل فروع علم الاجتماع الأمريكي ونظرياته الأخرى واستمراره في التأثير طوال الحقبة الحرجة من نموه. ثم تمدد تأثيره خارج الولايات المتحدة الامريكية مع صعود نجم الولايات المتحدة كإحدى القوى العالمية المهيمنة بعد الحرب.

نظرية تالكوت بارسونز Talcott Parsons Theory

النظرية التي يشار لها غالبا في تفسيرها لعلاقة الموائمة بين الاسرة النووية والمجتمع الصناعي هي نظرية تالكوت بارسونز، وتفيد نظرية بارسونز بان نظام الاسرة النووية تكيف بشكل فريد مع حاجات المجتمع الصناعي لسببين، الأول: التنوع الاقتصادي (عدة مهن مختلفة، مع عائدات مادية وأسلوب حياة مختلف) الذي يشكل روح الحياة الصناعية، وهو ما لا ينسجم مع طبيعة الاسرة الممتدة، ولكنه مثالي مع الاسرة النووية، فاذا كانت

الاسرة مقيدة بجماعة نووية صغيرة مع عائل Breadwinner رئيسي واحد الذي هو رب الاسرة، فان الصراع الخفي بين أعضاء الاسرة الممتدة العاملين في مهن مختلفة يمكن تجنبه، بمعنى انه لو عمل احد افراد الاسرة في مهنة بأجر اعلى من أخيه او ابيه فان ذلك يثير حسد وسخط الأخ والأب الذين يبذلون نفس المجهود بأجور اقل في مهنة أخرى، وبسبب ذلك قد ينشأ بينهم صراع كامن ويضعف قدرتهم على التركيز في أداء الواجب الدقيق والسريع والمنضبط الذي يستلزمه العمل الصناعي. لهذا يعتقد بارسونز ان الاسرة النووية هي الوحيدة القادرة على إزالة الاختلاف الاقتصادي الذي قد يحدث داخل الاسرة الكبيرة ويحول دون حدوث التنافس على أجور العمل الصناعي الذي قد يعمل على تقويض التماسك العائلي، وفي الوقت نفسه تستطيع الاسرة النووية بوصفها وحدة صغيرة الانتقال جغرافيا واقتصاديا بسهولة لتلبي حاجات الاقتصاد الصناعي. وثانيا: الحاجة لحل الصراع بين القيم التي تدعم الاقتصاد والأنشطة العامة للمجتمع الصناعي وتلك التي تميز العلاقات العائلية التقليدية، وفقا لرأي بارسونز، العائلات تتميز بقيم العزو Ascription التي تميل الى نسبة الأشياء لسبب، مثل " التركيز على من هم الناس الذين معك، من أي عائلة او قبيلة او دين او عرق" وقيم المحسوبية Particularism (تعطي الأولوية للعلاقات الخاصة)، فمثلا متوقع من الابوين إعطاء كل الحب والرعاية لأولادهم أكثر مما يفعلونه مع الاخرين، بغض النظر عن درجة نجاحهم او جاذبيتهم وفقا للمعايير العامة. بارسونز يرى ان هذا السلوك مؤذي وغير مقبول في المناخ العام، فمثلا في العمل، الاستخدام والطرد والترقية من المفترض انها

تحدث كامتياز فردي فقط، بمعنى اخر، يقول بارسونز، العمل الكفوء الذي يلبي حاجات المصلحة العامة للمجتمع الصناعي يستلزم قيم تقوم على الانجازية والمصلحة العامة وهو ما يتعارض كليا مع القيم القرابية، ويحدث ارباك في العمل عندما تتداخل الالتزامات المهنية مع العلاقات القرابية، فمثلا اذا كان احد افراد الاسرة مشرفا والأخر عاملا في نفس حقل العمل فان الصراع بينهما يمكن تجنبه أولا بفصل الاسرة النووية عن الاقرباء، وثانيا فصل الاسرة النووية عن الميدان العام من اجل الابتعاد عن ادخال القيم العائلية في العمل، وفي ذلك لا يحتاج الناس الاختيار بين الولاء القرابي والمعايير اللاشخصية المطلوبة في اداء الدور المهني. بالإضافة لما تقدم بارسونز يزعم ان الاسرة النووية تقوم بوظيفتين هامتين لأعضائها، تنشئة الأطفال والاستقرار الشخصي للبالغين.

اما بشأن تقسيم العمل الاسري فقد أشار الى ان المورد المادي يتولاه الاب او الزوج، والمرأة تهتم بشؤون المنزل والحاجات العاطفية لأعضاء الاسرة. بارسونز وصف وظيفة الذكر على انه أداة او وسيلة instrumental فعالة فيما اعطى للمرأة وظيفة تعبيرية expressive او عاطفية، هذا التقسيم الجنسي Gendered Division وضعه بارسونز على افتراض القابليات الطبيعية للمرأة. وأضاف ان الوظائف الاجتماعية الخاصة بالجنسين تتحدد وفقا للعلاقة الرئيسة بين الطفل الصغير وأمه، وان الطبيعة الخاصة لهذه العلاقة، بزعمه، تأتي نتيجة للقدرة الفريدة للمرأة على حمل ورعاية الأطفال Cheal (1991). أفكار بارسونز بمنظور علم الاجتماع المعاصر تبدو متخلفة جدا، ولكن يجب اخذها في سياقها

الاجتماعي والتاريخي. اذ ان المرأة في عصره لم تكن قد حصلت على التعليم والمكانة والحرية التي تتمتع بها النساء اليوم. ومع ان النموذج العائلي لبارسونز كان يعد ممهدا لعصر الحداثة الا ان عالم المجتمع قد تبدل بشكل تجاوز منظور بارسونز بكثير،

نظرية ميشيل فوكو Michel Foucault*

ميشيل فوكو المؤرخ والفيلسوف الفرنسي (1926-84) كان معاصرا لبارسونز، ولكنه يختلف عنه كليا في النهج وفي طريقة التفكير وفي النظر للعائلة. فوكو يعتقد ان أفضل وسيلة لفهم المجتمعات البشرية تتم عن طريق الخطابات (لغة التخاطب بين الناس) discourses، وهي شكل من اشكال المعرفة المتداولة بين الناس اثناء تفاعلاتهم، (وهي رديف للقيم الثقافية) مثلا في المناقشات العائلية يميلون لتفضيل الاسرة النووية نموذجا مثاليا للحياة العائلية. المجتمعات البشرية تعمل دائما على تطوير أجهزة الشرطة ووسائل الضبط الأخرى من اجل امتثال أعضائها لنمط الخطاب السائد، فمثلا الجنسية المثلية يعدها النظام القضائي جريمة لأنها تشكل تهديدا لوجود الاسرة النووية، بالنسبة لفوكو فان الخطابات الأكثر أهمية في المجتمعات الحديثة هي تلك التي تهتم بتشكيل وتنظيم وتحديد الجسد بطرق منظورة، كما في تحريم او عدم تحريم التعابير الجنسية. مادية فوكو تركز على جانبين مهمين: الأول، انه حاول اختبار أنماط الخطابات التي تحدث في الزمن المعاصر والتي تهيمن على جسد الفرد، هذه الخطابات تهتم بما يسمى قوة التشريح السياسي Anatomo-politics لجسد الفرد. والثاني رؤيته للخطابات التي تمارسها السلطة على أجساد الجماعة، حيث تحتل

أجساد الجموع مساحة طبيعية واجتماعية، هذه الخطابات تهتم بالسياسة البيولوجية bio-politics للسكان، وتهيمن على أكبر عدد من الافراد. Turner (1987)

منظور فوكو للحياة الاجتماعية اذن يركز بشكل أساسي على السلطة فأشكال انتشار المعرفة او الخطاب تمارس علينا سلطة واسعة لأنها تزودنا بلغة نستخدمها للتفكير بالعالم من حولنا فنعرف عنه ما نريد معرفته. هذه الخطابات تدخل في تكويننا الاجتماعي وفي طريقة تفكيرنا، لأننا سنكون مضطرين لاستخدام المفردات اللغوية التي تعطي معنى للأحداث والظاهرات. وفوكو يزعم اننا نعرف ما تسمح به اللغة فقط لأننا قطعا لا نستطيع إدراك او معرفة الحقيقة خارج اللغة، لا شيء يحدث خارج اللغة، وباختلاف الحقب التاريخية واختلاف المجتمعات هناك لغات مختلفة ومن ثم حقائق مختلفة. هذه الخطابات تمنحنا هويتنا وتشكل سلوكنا، ذلك انها تعرّفنا بأنفسنا، وبطريقة الحياة التي نحياها، كما ان افعالنا تخضع لتأثيراتها المقررة سلفا، وينبغي ان نعلم، يقول فوكو، ان الخطابات لا تفرض علينا بالقوة، او تنكر علينا طريقة حياتنا، وان أدوات الضبط مثل التربية والتعليم تعزز الخطابات وتدعم كيفية تشكيلها لهويتنا وسلوكنا وتعكس سلطة وقوة هذه الأجهزة المستمدة من الخطابات نفسها، والنتيجة فان هويتنا وسلوكنا يعطي سلطة لجماعات معينة في المجتمع.

---

*الواقع ان فوكو يستخدم مفهوم الخطاب بمعنى قريب من معنى الثقافة، فالخطاب بمكوناته اللغوية والتربوية والسلطوية هي مكونات ثقافية بلغة بارسونز وهي التي تمنحنا هويتنا وتحدد لنا أنماط سلوكنا، ولو استبدلنا كلمة خطاب بكلمة ثقافة لاستقام المعنى أكثر ولكن لا سلطة لنا على الفلاسفة فيما يكتبون

وتكون هذه الجماعات حارسا على السلطة الممنوحة لها اجتماعيا. وعليه يمكن النظر لتطور خصائص الاسرة الحديثة عن طريق الأسئلة الاتية: ماهي اشكال المعرفة التي تشكل الاسرة الحديثة وتكوّن السلوك العائلي؟ ماهي أدوات الضبط التي تستخدم لتعزيز هذه الخطابات؟ ثم من الذي يستفيد من تأثيرها وسلطتها في المجتمع يقول بلتون واخرين Bilton et al (2002) ان الإجابة عن هذه الأسئلة تستلزم تحديد معنى الاسرة الطبيعية Normal Family التي تقرها ثقافة المجتمع (الخطابات بلغة فوكو) في أي وقت، وكيف تم فرض هذه النسخ العائلية، ومن المستفيد من الخطاب حول الاسرة الطبيعية. في المملكة المتحدة يقول بلتون، منذ الحرب العالمية الثانية ظهر نوعين من الخطابات التي عززت بشكل خاص هيمنة الاسرة النووية في الحياة الاجتماعية، الأول، ان الاسرة أصبحت موضع تدخل الطب والممارسات الطبية، بمعنى ان الاسرة دستوريا وقانونيا يجب ان تنتظم في تسجيل أعضاؤها لدى طبيب الاسرة الذي يحتفظ بسجل مرضي كامل لأفراد الاسرة مدى الحياة. والثاني، السياسة العائلية التي تعني الممارسة الدستورية للدولة كجهاز مسؤول عن بناء الحياة العائلية عن طريق تشريعات مهمتها الحفاظ على شكل ووظيفة الاسرة التقليدية، حيث استحدثت وكالة رعاية الطفل التي اخذت على عاتقها تقديم العون المادي للأطفال من دون تمييز (كل طفل يولد له مبلغ معين) ويزداد المبلغ في حال انفصال الابوين عن بعضهما من اجل ان لا يشعر الطفل بالحرمان المادي بعد الانفصال، ولهذا عملت التشريعات على معاملة الاسرة وكأنها مازالت وحدة واحدة، ووفقا للتشريعات يبقى الرجل ملزم بأداء دوره التقليدي

كممول للأسرة (لاحقا حلت الدولة محل الزوج في التمويل)، وتبقى المرأة تمارس دورها التقليدي كأم. في محاولة لإعادة عقارب الساعة الى الوراء، بخلقها سياسة تقوم على افتراض استمرارية تقسيم العمل التقليدي بين الجنسين حتى مع اختفاء بعض الوجوه التقليدية للعائلة مثل الزواج.

على اية حال، نظرية فوكو اهتمت بالخطاب الديني الذي كان يؤدي دورا مهما في استمرارية الاسرة تاريخيا، ولاسيما في مرحلة ما قبل الصناعة، حيث كان ينظر للمرأة على انها غير عقلانية وغير قادرة على ضبط النفس، وانها معرضة لإغواء الشيطان وكان الهدف من نعتها بهذه النعوت واتهامها الى جانب ذلك بالسحر والشعوذة، هو التحكم بجسد المرأة، لان السيطرة على الجسد بحسب فوكو يعني تنظيم العلاقة الجنسية، وتنظيم العلاقة الجنسية عمليا تعني السيطرة على علاقات المرأة الجنسية وطريقتها في الإغواء والتي من شأنها ان تضعف ديمومة واستمرار الاسرة بوظائفها التقليدية. كما استخدم فوكو فكرة المرأة الهستيرية في القرن التاسع عشر دليلا على هيمنة الخطاب الطبي في ذلك الوقت، حيث كانت ظروف العوز تدفع المرأة، للبكاء، والصراخ، والاغماء وفقدان السيطرة على المزاج. ووفقا لطب القرن التاسع عشر فقد كانت هذه "الامراض" حسب تسمية فوكو سببها معاناة النساء غير المتزوجات والمطلقات، والارامل، اللواتي كن يبحثن عن عمل بدل ممارستهن حياة جنسية طبيعية في زواج مستقر، وتطبيقات هذه الاعراض المرضية بحسب الطب آنذاك ان المرأة يمكنها ان تعيش حياة صحية فقط في حال حصولها على حياة عائلية تقوم على علاقة جنسية طبيعية مع زوج هدفه الاستقرار وإنجاب الأطفال.

النظرية الماركسية Marxism Theory

احدى البدائل النظرية لتفسير الاسرة هي التي تقدم بها مجموعة من الكتّاب الماركسيين في السبعينيات من القرن العشرين. ولبي Walby (1986) تولى مهمة عرض ونقد هذا الاتجاه النظري، يقول ولبي ان الاتجاه الماركسي فسر تطور الاسرة في ضوء حاجات الاقتصاد الرأسمالي، وكانت النقطة المركزية لتفسيراتهم تقول ان النظام الرأسمالي كان يستغل العمل المنزلي المجاني لربات البيوت. العمل المنزلي وتربية الأطفال ليست أنشطة عائلية خارج عملية الاقتصاد الرأسمالي، بل هي جزء جوهري من اجزائه، فالعامل الذي يكسب لقمة العيش يستطيع ان يعمل ساعات طويلة لرب العمل فقط بسبب ان المرأة تقوم بمهمات العمل المنزلي وتربية الأطفال، ولولا ذلك لأعطى العامل نصف وقته لشؤون المنزل، والاسرة بدأت في الوقت ذاته انتاج عمال خانعين، وتعزز هذا الخنوع بالتعليم. والمسألة المهمة هي انه على الرغم من أهمية العمل المنزلي للاقتصاد الرأسمالي فان ارباب العمل لا يدفعون غير أجور الرجل الذي يعمل لكسب قوت عياله، ولو دفع رب العمل اجورا عن اعمال النساء المنزلية لتضاعف حجم الاجور على رب العمل ولكن ذلك كان سيؤدي الى تحسين الظروف الاقتصادية للعائلة، كما ان وجود الاسرة من شانه ان يخفف التوتر والإحباط والاغتراب الذي يعاني منه الرجال بسبب ساعات العمل الطويلة في الاقتصاد الرأسمالي، والعمال الذين يشعرون انهم تحت ضغط مستمر من ارباب العمل الذين يدفعونهم للعمل بقوة وسرعة غالبا يشعرون بالملل من تكرار العمل في ظروف بالغة السوء، والاسرة تمثل متنفس مؤقت

للهروب من توترات العمل، وذلك أيضا على حساب الزوجة والأطفال، لهذا فان شعور العامل بالانسحاق ربما يدفعه لتعكير صفاء الاسرة لاستعادة الشعور بتقدير الذات self-esteem . ان تراكم الاستياء القابل للانفجار في العمل يتم تجنبه عن طريق صمام الأمان الذي توفره الاسرة والجهد العاطفي الذي تقوم به الزوجة. عدد كبير من الزوجات، على كل حال، يعملن باجر مدفوع، ومع ذلك يملكن القدرة على الإدارة العاطفية للأزواج، لأيمانهن ان العمل الأساسي للزوجة في الاسرة النووية هو رعاية الاسرة، والمرأة العاملة لم تكن تحصل الا على إجور متدنية، وارباب العمل يعاملونهن على اساس انهن جيش احتياطي يمكن استخدامهن فقط عند الضرورة. والاسرة النووية، فوق ذلك، توفر لأرباب العمل ايدي عاملة إضافية مفيدة ورخيصة.

هذا التحليل يشبه الى حد كبير رؤية الاتجاه الوظيفي الذي يفترض ان الاسرة النووية تناسب تماما نمط الإنتاج في الاقتصاد الرأسمالي، وينظر للعائلة النووية على انها النموذج المثالي للعائلة، تماما كما يراها تالكوت بارسونز. والخلاصة ان المفكرين الماركسيين يعتقدون ان ديناميكية النظام الرأسمالي هي السبب الرئيس في تدني مكانة المرأة.

الاتجاه الابوي Patriarchy Approach

هذا الاتجاه النظري يتفق مع الاتجاهات السابقة في تركيزه على تقسيم العمل المنزلي، ولكن أصحابه يرفضون الاعتقاد بان ذلك يعزى للنظام الرأسمالي. ويقولون ان تقسيم العمل المنزلي كان موجودا قبل النظام الرأسمالي، وهو نتيجة قرون من هيمنة الرجل على المرأة. هذا الاتجاه

الذي تبناه مجموعة من المفكرين الراديكاليين، يرى ان المشكلة ليست في النظام الرأسمالي وانما بالنظام البطريركي (الابوي). ان مصطلح "ابوي" يستخدم دائما للإشارة الى هيمنة الذكور على الاناث. والابوية بالنسبة لهؤلاء المفكرين يعني بناء شامل لسلطة الذكور في كل المجتمعات البشرية (عدا بعض الاستثناءات) وبطرائق مؤسسية او دستورية مختلفة. دلفي Delphy (1977) ترى ان هيمنة الذكور تعود الى نمط الإنتاج العائلي، وليس نمط الإنتاج الرأسمالي، وذهبت للتأكيد على ان العمل الإنتاجي داخل المنزل، لا يختلف عن العمل في المصنع، فالعمل المنزلي، من وجهة نظرها، هو عمل منتج كأي عمل اخر، وضمن أسلوب الإنتاج المنزلي استطاع الرجل التحكم في توزيع الأموال والبضائع داخل الاسرة واستخدمها لصالحه. وعن طريق الزواج استغل الرجل عمل المرأة، والاسرة لهذا أصبحت مؤسسة لاستغلال المرأة. دلفي رفضت بشدة الاعتقاد السائد بان المرأة تحمل نفس الطبقة الاجتماعية لزوجها، وترى انها يجب ان تحمل صفة طبقية أخرى مادامت مستغلة من زوجها. دلبي Dalby (1986) هي الأخرى رفضت فكرة الحسابات الرأسمالية لهيمنة الذكور، مؤكدة ان هناك هيكلة ابوية للأسرة، بمعنى ان ابقاء المرأة داخل المنزل وابعادها عن العمل المدفوع الثمن خارج المنزل هو الذي أفقدها الاستقلالية وبالتالي اعتمادها اقتصاديا على الرجل هو بالضبط الذي اعطى الرجل المكانة الارفع وترك المرأة في المكانة الاوطأ. النظام الرأسمالي سعى لإعطاء المرأة عملا بأجور قليلة، لكن اتحاد التجار والحكومة هي السبب في منع المرأة من العمل المنتج ولذلك لم يكن امامها خيار غير العمل

المنزلي. الاتجاه الابوي في تفسير الاسرة تعرض لنقد شديد، حيث ذكر بولرت Pollert (1996) ان الادعاء بان مكانة المرأة المتدنية كانت نتيجة قرون من هيمنة النظام الابوي الذكوري، ليست الا تفسير ضيق الأفق، وللخروج من هذا النفق الضيق هو عزو الهيمنة الذكورية للحتمية البيولوجية، ذلك انه إذا كان النظام الابوي عاما فلا بد ان تكون جذوره بيولوجية، وإذا كان النظام الابوي عاما فكيف نفسر التغير في العلاقة بين الجنسين؟ وعلى الرغم من ذلك فان مفهوم النظام الابوي لعب دورا مهما في جلب الانتباه للهيمنة الابوية الذكورية ولكنه لم يصمد طويلا ام النقد.

انطفاء الاسرة The Decline of the Family

هل فقدت الاسرة أهميتها التقليدية بوصفها أصغر وحدة اجتماعية؟ منذ مطلع الستينيات من القرن الماضي تزايد الخوف من تدهور مكانة الاسرة ووظيفتها في المجتمع، وبالطبع المقصود من ذلك التبدل الذي طرأ على "القيم العائلية". ثم تزايد الخوف بعد ذلك عندما فقدت الاسرة شكلها وتركيبها ودورها الاجتماعي التقليدي في عصر ما بعد الحداثة. الرأي الراجح الذي يتفق عليه بعض علماء الاجتماع يقول ان الاسرة الزواجية هي الشكل الطبيعي للأسرة اما الاشكال المستحدثة مثل الاسرة ذات الوالد الوحيد single-parent فأنها غير طبيعية، والاسرة الطبيعية كما يفترض جوسون Jewson (1994) هي التي تتمتع بتقسيم عمل جنسي Gender يكون فيه الاب هو العائل والام تتولى شؤون المنزل، كما ان العلاقة الجنسية التي تتم خارج الزواج هي علاقة فاسدة، وان مسؤولية رفاه الاسرة تقع على عاتق الاسرة وليس الدولة. الزواج وفقا لوجهة نظر جوسون هو

محور الحياة العائلية، وان ارتفاع معدلات الطلاق مؤشر على انطفاء شعلة الاسرة، ولهذا تعالت بعض الأصوات لجعل الطلاق أصعب مما هو عليه الان. ذلك انه حتى في الشرائع السماوية التي اجازت الطلاق فأنها اجازته للضرورات القصوى وليس لأجل التلاعب بالحياة العائلية تحت تأثير النزوات. كما ان المعاشرة الجنسية البديل الشائع للزواج في الغرب مؤشر اخر على انحدار الاسرة، وهو بحسب جوسون غير مقبول البتة. وهاجم جوسون الاسرة أحادية الوالد قائلا ان غياب الاب من شأنه ان يضعف سيطرة الاسرة على الأولاد ويحرم الذكور من النموذج الابوي الذي يقتدى به، والعائلات التي بلا اب تلصق بها تهمة ارتفاع معدلات الجريمة، والتخلف الدراسي وعدم الرغبة في العمل والاعتماد على المعونات العائلية او على معونات الدولة. المعترضون على وجهة النظر هذه يقولون ليس الاسرة الأحادية الوالد هي المسؤولة عن المشكلات وانما الفقر وضعف الدعم الحكومي لها. البعض لا يؤيد فكرة انطفاء الاسرة كسبب في احداث المشكلات بل على العكس. برات وماكنتوش Barrett & McIntosh (1991) يقولون ان قيم الاسرة القوية هي السبب، ذلك لان الاسرة هي الالية المركزية التي عن طريقها تنتقل فكرة اللامساواة من جيل لأخر عبر توارث الثروة بين الأغنياء وتوارث العوز بين الفقراء وهذا هو الجانب المظلم للحياة العائلية. الاسرة ليست لاجئ فر من ضغوط العالم لكي يوضع في سجن، تعزل فيه المرأة، وتصادر حريتها، وتترك تحت سياط الزوج (العنف الاسري) وتدفعها نحو مستشفيات الامراض العقلية. الزواج هو الذي يخضع النساء ماديا وجنسيا للرجال. والاسرة لذلك هي المصدر

الرئيس للقمع ضد المرأة عن طريق الزواج وتقسيم العمل المنزلي التقليدي. ومشكلة الاسرة ليس فقط فيما تفعله للناس، وانما هي "كمؤسسة متميزة" لا تعطي أية قيمة للحياة خارجها، وفي ذلك يقول Barrett & McIntosh (1991:77) ان "النموذج المثالي للعائلة يجعل كل شيء شاحب وغير مقنع، وان المؤسسات غير العائلية مثل بيوت العجزة، ورياض الأطفال، وبيوت رعاية الأطفال، ربما كانت أقدر من الاسرة في توفير الرعاية والبيئة المريحة على الرغم من انها توصف بأوصاف سيئة لأنها تتعارض من النموذج المثالي للعائلة. وفوق هذا يصبح الناس مثل العلب المغلفة داخل الاسرة لأنهم ليس لديهم الوقت ولا القدرة على تجريب مؤسسات او علاقات أخرى". هذا الهجوم الشديد اللهجة على الاسرة يجعل منها مؤسسة خانقة. وعلى الرغم من ذلك فان هذه الرؤية تعمل على احداث توازن بين مؤيدي القيم العائلية ومعارضيها.

تراجع الاسرة النووية Decline of the Nuclear Family

منذ منتصف القرن العشرين أصبحت الاسرة النووية الشكل الرئيس للعائلة في المجتمعات الغربية الصناعية، هذا لا يعني ان الاسرة الممتدة قد فقدت أهميتها نهائيا. الاسرة النووية وحدة منفصلة تقوم على الزواج والأطفال، وعلى تقسيم العمل بين الجنسين. هذا الشكل العائلي أصبح مهيمنا أيديولوجيا، وتم تنصيبها نموذجا مثاليا للعائلة الحديثة بالمقارنة مع الاشكال الأخرى للعائلة. وفي مطلع الستينات من القرن الماضي أصبح هذا الشكل النموذجي للعائلة مشلولا للأسباب الاتية:

ـ مؤسسة الزواج واجهت تحديا جديا بسبب التساهل في العلاقات الجنسية، وارتفعت نتيجة لذلك معدلات الطلاق.

ـ الانفصال، والطلاق والزواج، أدت الى نشوء الاسرة أحادية الوالد Single-parent وإعادة هيكلة معقدة للبناء العائلي.

ـ تقسيم العمل المنزلي تعطل العمل به بتأثير النشاط النسوي ودخول المرأة الواسع لسوق العمل.

ـ وعي المرأة المتزايد بالجانب المظلم للحياة العائلية وما يصاحبه من تعنيف للنساء وسوء معاملتهن

ـ حصول المرأة على سكن مستقل، الى جانب التغيرات الاجتماعية الأخرى أدى الى ضمور الاسرة النووية.

هذه الأسباب مجتمعة قسمت علماء الاجتماع بين مؤيد ومعارض، فمنهم من يرى ان القيم العائلية تدافع عن نفسها إزاء التغيرات التي تحدث والتي تسببت في تقويض الاسرة النووية، ومنهم من يدفع باتجاه قبول الاشكال الجديدة للعائلة بوصفها مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي.

الثورة الجنسية Sexual Revolution

على الرغم من ان الثورة الجنسية لها بدايات غير معلنة قبل وبعد الحربين العالميتين الا انها اخذت شكلا صريحا وتمردا في مطلع الستينات من القرن الماضي. ويكس (1991) Weeks اعتبر الثورة الجنسية من نتائج الحرب في المجتمع الرأسمالي وتأثيراتها على الطبقة العاملة بشكل خاص. فالنمو الاقتصادي بعد الحرب العالمية الثانية تأسس على قاعدة الاستهلاك الواسع الذي تاجر بكل أوجه الحياة وانتهى بكسر العزلة الاجتماعية للطبقة العاملة.

الحواجز الاجتماعية انهارت، والاتجاهات نحو السلوك الجنسي تغيرت، وتحولت القيم البرجوازية التقليدية لنكران الذات والانفاق المحسوب بدقة الى إنفاق مفتوح. هذه التوجهات في البحث عن المتعة انزلقت نحو السلوك الجنسي، وصارت الاثارة الجنسية في الإعلان احدى وسائل التسويق التجاري والجنسي في ان واحد. واعتبر ويكس Weeks ممارسة المرآة للجنس بشكل أكثر وضوحا، هو السبب في تحول الممارسة الجنسية الى وسيلة من وسائل الامتاع والاستمتاع بدل وظيفتها التقليدية في إنجاب الأطفال، وبحسب ويكس فان المرأة باتت تدرك حاجتها الجنسية أكثر من أي وقت مضى، وتمارسها علنا بدون خوف او تردد او شعور بالذنب بتشجيع ومباركة العقلية التجارية. ان تأكيد ويكس على "إدراك المرأة لحاجتها الجنسية" لم يرق للمنظمات النسوية والمدافعين عن تحرير المرأة، اذ اعتبروا ذلك ليس تحريرا للمرأة وانما استعبادها بطريقة جديدة، بجعل الجنس سلعة تعرض للبيع والشراء. لذا فان الثورة الجنسية قد تورطت في استغلال المرأة جنسيا، واخضعتها لعلاقات غير محدودة مع رجال لا على التعيين لدرجة انها في حالة الحمل لا تدري لأي من الرجال الذين عاشرتهم يمكن ان ينسب الوليد. الثورة الجنسية غيرت الاتجاهات نحو الجنس من غير زواج وليس الخيانة الزوجية. بمعنى ان المرأة يمكنها الدخول في معاشرة جنسية من دون زواج شرعي. فاذا تزوجت فمن غير المقبول اخلاقيا ممارسة الجنس خارج عش الزوجية، هذا طبعا لا يعني ان ممارسة الجنس خارج الزواج (الخيانة) ليس مألوفا، ففي دراسة عن المتزوجين في إنكلترا وامريكا وجدت انيتا لاوسون Annette Lawson (1988) ان

ربع الى نصف المتزوجات وعلى الأقل نصف المتزوجين من الذكور مارسوا الخيانة الزوجية مرة واحدة او أكثر. وعلى كل حال أصبح الاتصال الجنسي جزءا مكملا للعلاقة مع الذكور خارج مؤسسة الزواج. وفوق هذا فان الثورة الجنسية لم تغير الاتجاهات نحو الجنس من دون زواج فقط، وانما مع الزواج أيضا. العلاقة الجنسية في الزواج مهمة جدا لاستمرار الزواج، فان لم تكن قائمة على الاشباع والامتاع والاقتناع فإنها غالبا تؤول الى التباعد والانفصال، لهذا فان الزواج نفسه تغير بفعل الثورة الجنسية. وصورة الزواج هنا يمكن النظر اليها بوصفها استمرارية للتطور من الأساس الاقتصادي الى الاساس العاطفي.

وبينما أصبحت العلاقة الجنسية بين الاناث والذكور Heterosexual غير المتزوجين شيئا مقبولا وشائعا، فان ذلك لا ينطبق على العلاقة الجنسية المثلية Homosexual وهناك، على كل حال، تغيرات مهمة في الاتجاهات نحو الجنسية المثلية، فبعد ان كانت مستهجنة وغير مسموح بها صارت اليوم مسموح بها وبكفالة القانون. الرأي العام مازال ينظر لها بمنظار أدنى ولكنها تحت حماية القانون وتمتلك شرعية مماثلة لشرعية الزواج الاعتيادي بين رجل وامرأة. ويكس يزعم ان شرعنة الجنسية المثلية هي استفزاز للأخلاق، كما ان الجنسية المثلية ليست فقط ضد العلاقة الجنسية الطبيعة، وليست فقط ضد الشرائع السماوية ولكنها سبب لبعض الامراض المستعصية مثل الايدز AIDS. القصة الاتية التي يرويها Fulcher & Scott (1999) قد تثير اشمئزاز القارئ العربي لأنها

تتعارض كليا مع الدين والتقاليد والاعراف المألوفة في مجتمعنا نذكرها فقط لمعرفة اتجاهات التطور في المجتمعات الرأسمالية.

"اثنان من الذكور المثليين المعوقين أعلنوا عزمهم على الحصول على طفل لأنفسهم، على الرغم من اعتراض الأطباء، والاخصائيين الاجتماعيين ومدراء الصحة، روسل كولن 39 سنة، وزوجه ستيفن 32 سنة، يبحثون عن زوج من الاناث المثليات لكي يتم التنسيق معهم من اجل الحصول على طفل عن طريق الاخصاب الخارجي، لكن قسم الخدمة الاجتماعية المحلي رفض الفكرة. وكان كولن وزوجه قد تزوجا منذ عام في احتفال باركه قس من الكنيسة بعد علاقة دامت عشر سنين. وعبّر كولن لصحيفة independent اللندنية عن رغبته الملحة للحصول على طفل بقوله ان الحصول على طفل يساوي عندي أفضل من ان اربح عشرة ملايين جنيه إسترليني في اليانصيب، نستطيع ان نمنحه الحب والرعاية التي يمكن ان يحصل عليها في عائلة زواجية طبيعية. نحن تزوجنا تحت رعاية الله، ولدينا شهادة زواج رسمية، وزواجنا باركته الكنيسة، ولنا الحق في الحصول على طفل. وأخيرا تقدم الزوجان بطلب لقسم الخدمة الاجتماعية في مدينة مانشستر لتبني طفل، ولكن طلبهما تم رفضه".

على الرغم من شرعية الزواج المثلي الا انه غير مقبول اجتماعيا وما زال الناس ينظرون للمثليين على انهم تهديد للقيم والأخلاق وللسلوك البشري السوي ولذلك اغلبهم لا يفصحون عن هويتهم المثلية في الأماكن العامة ولكنهم يفعلون في نوادي خاصة بهم لا يدخلها الاسوياء.

الزواج والمعاشرة Marriage & Cohabitation

التساهل الذي حصل في الستينات، كان ينظر له على انه تهديد لمؤسسة الزواج، والواقع ان الزواج بدأ يتناقص بشكل ملفت للنظر. احصائيا الزواج يتقلص سنة بعد سنة منذ الستينات حتى اليوم. أكثر من 60%من الإنكليز

خارج مؤسسة الزواج في عام 2016 والسبب ان الغالبية يتعاشرون معاشرة الأزواج وينجبون أطفالا ولكن بدون زواج. والمعاشرة تأخذ عدة اشكال:

- معاشرة طويلة الأمد تشبه الزواج ويطلق عليه اتحاد بالتراضي Consensual union
- علاقة قصيرة الأمد مع حد أدنى من الالتزامات.
- علاقة تسبق الزواج، وقد تتطور فتقود الى الزواج

الزواج المسيحي التقليدي الذي بدأ ينقرض

المعاشرة بديلا للزواج أصبحت مستقرة في اغلب دول اوربا لاسيما الدول الاسكندنافية واخص الأخص منها السويد التي تسود فيها المعاشرة أكثر من أي بلد اخر في العالم، لدرجة انه أصبح شكلا مؤسسيا مشابها للزواج. وعلى الرغم من تزايد المعاشرة بديلا للزواج فانه يؤدي الوظيفة التي يؤديها الزواج.

ان انخفاض معدلات الزواج يمكن ان يفهم على ان الناس يفضلون العيش على طريقة المعاشرة، وهي طريقة سهلة كفيلة بتحقيق حاجاتهم البيولوجية

ويمكنهم الخلاص منها من دون تبعات وباقل التكاليف بدل ان يربطوا انفسهم في زواج دائم قد ينجح وقد لا ينجح، وعواقبه مكلفة ماديا ونفسيا، ومع ان عزوف الشباب عن الزواج للأسباب اتي ذكرناها فان الرجال والنساء بعد رحلة التنقل من شريك الى اخر وفي سن معينة يبدئون البحث عن شريك دائم لمرحلة الشيخوخة قبل ان تتحول حياتهم الى عزلة قاتلة بين الجدران، لاسيما وان الأطفال بعد سن الثامنة عشرة يتبخرون مثل افراخ العصافير ويختارون لأنفسهم حياة مستقلة ولا يذكرون اباءهم وامهاتهم الا في مناسبات متباعدة جدا.

وعلى العموم فان السلوك الجنسي يقول ايليوت Elliot (1996:16-17) لا شك انه قد تغير منذ الثورة الجنسية، لكن من الواضح ان الزواج بقي مؤسسة مهمة في حياة الناس، ربما يعمدون الى تأخيره بعض الشيء ويتعاشرون معاشرة الأزواج لحقبة من الزمن، الا أنهم ما زالوا غير موافقين على الخيانة لهذا يقول ايليوت "فان الزواج لم يتغير كثيرا"، ففي دراسة مسحية حديثة، يضيف ايليوت، وجدت ان الشباب البريطاني مازالوا يفكرون بالزواج الدائم مع توقع الإخلاص الجنسي، فالتغير في ممارسة الزواج يجب ان لا يفسر على انه انهيار الزواج بوصفه مؤسسة.

الطلاق والزواج للمرة الثانية Divorce & remarriage

في الوقت الذي لا يزال الناس يرغبون بالزواج، فان معدلات الطلاق في تزايد مستمر، ليس في اوربا فقط وانما في المجتمع العربي أيضا، على الرغم من صرامة الضوابط الدينية والاجتماعية، فهل يعطي هذا الارتفاع في معدلات الطلاق مؤشرا على تدهور مؤسسة الزواج؟

الواقع ان التقارير الإحصائية تشير الى ارتفاع مخيف في معدلات الطلاق في الدول العربية، ففي المغرب أشار تقرير وزارة العدل الى حدوث اكثر من 100 الف حالة طلاق في عام 2017 وفي الأردن ذكر تقرير قاضي القضاة عن حدوث 60 حالة طلاق يوميا في 2018 وهي اكثر من ضعف الحالات في العام الذي سبقه، وفي الجزائر ذكر الديوان الوطني للإحصاء عن حدوث اكثر من 62 الف حالة طلاق في العام 2015 يضاف لها 4% عام 2016، وفي العراق أشار تقرير لمجلس القضاء الأعلى عن حدوث اكثر من 70 الف حالة طلاق في العام 2017 اما في مصر فقد بلغت الأرقام معدلات مخيفة بلغت 250 حالة يوميا أي ما يزيد عن 90 الف حالة سنويا في عام 2015 كما ذكرت صحيفة اليوم السابع في عدد الخامس من سبتمبر، وفي السعودية اشارت صحيفة عكاظ الى ان اكثر من 40% من الزواجات انتهت بالطلاق، وبلغ معدل الطلاق في عام 2018 الى اكثر من 53 الف حالة طلاق. ومعدلات الطلاق في الكويت بلغت 62% من مجموع الزواجات في عام 2018 وهي اعلى من نسبة الطلاق في بريطانيا على قلة حالات الزواج والتي بلغت أكثر بقليل من ٥١% من مجموع الزواجات في العام 2016 وهذا يؤكد ان نسب الطلاق تتزايد عالميا وإنها تعد مؤشرا على تدهور مؤسسة الزواج ذلك لأنها اصبحت اقل استقرارا وأكثر عرضة للتشظي. وفي كل حال هناك على الاقل سببين لهذا التدهور. أولا: معدلات الطلاق لا تعكس فقط ضعف العلاقة الزواجية وانما سهولة الحصول على الانفصال. وثانيا: ارتفاع معدلات الزواج للمرة الثانية بعد الطلاق (طبعا الزواج الثاني في الغرب أسهل منه لدينا بسبب ان المطلقة لديهم لا توصم

اجتماعيا، ولكن لدينا تبقى الوصمة الاجتماعية ملازمة لها مدى الحياة فتضعف معدلات الزواج للمرة الثانية لدى النساء خاصة اما الرجال فبمقدورهم الزواج مرة أخرى ومرات).

ان الحصول على الانفصال في مجتمعنا العربي يحدث بسبب سهولة الإجراءات والالتزامات اللاحقة، وإذا كانت الاسرة الزواجية غير سعيدة فان أحد الطرفين او كلاهما يسعى للخلاص باي ثمن، وغالبا يقع العبء على الزوجة التي تسعى لنيل حريتها بتنازلها عن كامل او جزء من حقوقها، او تبقى حبيسة البيت، والمحاكم التي تتباطأ في إجراءاتها لفترات قد تطول لسنين. وبينما يذهب الرجل ليتزوج مرة أخرى ويؤسس عائلة جديدة تبقى المرأة موضع اتهام ويتعذر عليها الحصول على زوج جديد لاسيما إذا كان لديها أطفال من زواجها الأول. وإذا لم تكن قد دخلت سوق العمل فإنها ستعيش على النفقة التي لا تكاد تسد تكاليف المعيشة ويتعين عليها اما ان تبحث عن عمل او تتعايش مع الفقر والعوز او تدفع بأولادها الى العمل فيتخلفوا دراسيا، وربما يتحول بعضهم الى مجرمين، ذلك ان بيئة الحرمان تشجع على الانحراف والجريمة في ظل غياب سلطة الاب وتراخي سلطة الدولة.

الابوين والطفولة Parents and Childhood

القيم العائلية تعد الزواج مصدرا أساسيا للأبوة والأمومة، وان وجود الابوين معا في الاسرة هو الطريق الوحيد الصحيح لتربية الأطفال وفق قيم الاسرة النموذجية. وبما ان الزواج أصبح معرضا لانفعالات الابوين

وامزجتهم فانه لم يعد الحاضن الموعود للطفولة. والطفولة نفسها أصبحت موضع تساؤل، للأسباب الاتية:

- تزايد عدد الأزواج الذين لا يرغبون في الحصول على أطفال (هذا سبب لا ينطبق على مجتمعنا العربي الذي يسعى فيه الأزواج للحصول على طفل باي ثمن، ولكن المتعلمون منهم يعملون على تحديد النسل بطفل واحد او طفلين)

خلاصة Conclusion

في هذا الفصل قدمنا تفسيرات متعددة لتطور الاسرة ابتداء بالمدرسة البنائية الوظيفية التي طورها ووضع قواعدها النظرية تالكوت بارسونز، ثم المدرسة الفرنسية متمثلة بميشيل فوكو، والماركسية والاتجاه التفسيري الابوي. وبطبيعة الحال فان أيا من هذه المدارس لم تنكر الأهمية القصوى للعائلة، التي اعتبرت وحدة شاملة عامة في كل المجتمعات، لكن هناك اتجاهات اثنوجرافية وتاريخية اعتبرت الاسرة وحدة شاملة مع بعض الاستثناءات.

وعلى العموم ما زال علماء الاجتماع ينظرون للعائلة بوصفها أصغر وحدة اجتماعية عليها يقوم المجتمع، ومنها يستمد تماسكه او تفككه، وقد مرت الاسرة بمراحل متعددة، فالأسرة في مرحلة ما قبل الصناعة كانت ممتدة، ومتماسكة ووظائفها تعمل وفق تقسيم العمل على أساس الجنس والعمر، ونشاطها الاقتصادي في الاعم يغلب عليه الطابع الزراعي. التطور ادخل الاسرة في نفق غير معروف النهايات، ذلك ان الصناعة بدلت شكل وتركيب الاسرة لكي تخدم الاقتصاد الصناعي، فتحولت من ممتدة الى

نووية. في مجتمع ما بعد الصناعة او ما بعد الحداثة كما تسمى أحيانا تعرضت الاسرة النووية البديل الصناعي للأسرة الممتدة، هي الأخرى للتشظي والتفكك والتمزق، وباتت الاسرة عبئا على أعضائها وسببا من أسباب سخطهم وتوتراتهم وحماقاتهم كما يقول هارالامبوس. المشكلات التي تعاني منه الاسرة الحديثة باتت تهدد وجودها الفعلي، ففي عصر ما بعد الحداثة والعولمة أصبحت الاسرة التي تقوم على الزواج شبه مشلولة، ذلك ان اغلب الافراد ذكورا واناثا يقيمون علاقات معاشرة وينجبون أطفالا خارج مؤسسة الزواج، وحتى الذين يتزوجون فانهم سرعان ما ينفصلون حتى بلغت نسب الطلاق في كل انحاء العالم وليس في المجتمع الغربي وحده أكثر من نصف عدد الزواجات. المعاشرة المشرعنة أصبحت البديل الواقعي للأسرة النووية، ويبدو انه عما قريب ستلحق الاسرة النووية بالأسرة الممتدة التي صار ينظر لها كذكرى من ذكريات الماضي. الى جانب المعاشرة ولدت عائلات هامشية مازال الراي العام ينظر لها باستهجان تلك هي الاسرة التي تقوم على العلاقات المثلية، وعلى الرغم من ان هذا النوع من التركيب العائلي كسب الشرعية القانونية في اغلب المجتمعات الاوربية وان اعداده في تزايد الا انه يفتقد الشرعية الاجتماعية، ولكن ربما لن يطول الوقت حتى تصبح المثلية احدى البدائل إذا تم قبولها اجتماعيا. وفي هذا الوقت تعالت أصوات كثيرة تدعو للبحث عن بدائل للعائلة النووية التي لم تعد مناسبة في ظل عمليات التمرد والانقلاب التي تمارس ضدها باعتبار ان الزواج الذي يعد الحلقة الأهم في بناء الاسرة خرج عن السيطرة، وحلت المعاشرة بديلا معترفا به قانونيا واجتماعيا

وثقافيا. وأصبح الأطفال الذين يولدون خارج مؤسسة الزواج أكثر بكثير من الأطفال الذين يولدون في عائلات زواجية، ولم يعد ينظر لهؤلاء على انهم ثمرات زنا غير شرعية، ولم يعد المجتمع يلصق بهم وصمة اجتماعية تلحق بهم العار، الا في المجتمع العربي الذي مازالت الاسرة النووية والى حد ما الممتدة تعمل بنصف طاقتها، اذ ان هناك محاولات للتمرد على الاسرة الزواجية عن طريق اشكال مبتدعة مثل الزواج العرفي وزواج المسيار وزواج المتعة، وهذه تشبه الى حد كبير المعاشرة خارج الزواج التقليدي.

الواقع ان الاسرة النووية في ازمة وهذه الازمة تزداد عمقا مع عمليات دخول المرأة الواسع لسوق العمل ومع تطور عمليات التثاقف التي خلقتها وسائل الاتصال الحديثة والتي سهلت العلاقات العاطفية والجنسية في العالم الافتراضي وانتقالها بالتدريج الى الحياة الاجتماعية.

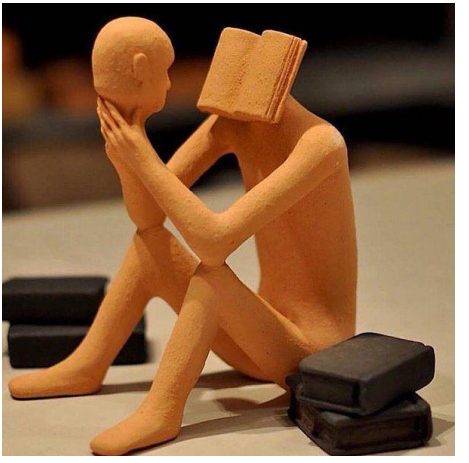

الفصل السابع

التشافى بالقراءة والتشافى الروحى

الدين والمعتقدات

Religion & Belief

الدين هو ما يمنع الفقراء من اغتيال الأغنياء
نابليون

اعرف نفسك ثم اعرف خالقك ثم اعرف لماذا خلقك خالقك وما هو الدور المطلوب منك واعرض نفسك عليه وحدد هل انا اقوم بهذا الدور فعلا ام اني خلقت لافعل كذا وكذا ولكني اقوم بشيء غيره تماما اول ما تحدد هدفك وتقم بالعمل عليه تكن بدأت اول مراحل التشافي الذاتي الداخلي او الروحي اما لو تبحث عن تشافي طبي فهي ابسط بكثير اسلك نمط حياه صحي قائم علي الاقلال من الطعام وكثرة شرب الماء ...البعد عن السكر و الملوثات جع قدر الامكان واشرب ماء قدر الامكان ونم ف اوقات محددة حتي تسهل عملية ال سيلف هيلينج

الحقيقة ان كل منا يولد في اسرة، عمليات التنشئة الاجتماعية تتم في جماعات، ونحن نعتمد في بقائنا على جماعة، حتى الناسك hermit يحتاج الى جماعة لتلبية كثير من احتياجاته للبقاء، ليس هناك ناسك معزول تماما. الجماعات مهمة للحماية، والحصول على الطعام، وصناعة البضائع، للحصول على عمل، للدعم والاسناد، والجماعة تلبي حاجتنا الاجتماعية للانتماء والقبول. ويمكن ان تكون صغيرة ذات بيئة حميمة على مستوى micro level مثل الأصدقاء ويمكن ان تتحول الى منظمة متوسطة الحجم Meso level، وفي كل الأحوال عن طريق العضوية في كلا الجماعتين يحدث الترابط بينهما.

الدين والمجتمع Religion and Society

في مطلع القرن الحادي والعشرين عاد موضوع الدين الى الواجهة بعد قرن من تكهنات علماء الاجتماع بان الدين يمضي نحو الانحدار والتلاشي لان المجتمعات دخلت مرحلة العلمنة، لكن اتضح ان هذه التكهنات كانت ضربا من الوهم فقد اضحى جليا ان الدين لا يموت كما اريد له، صحيح ان العلمانية هيمنت على المجتمع الغربي وأبعدت الناس عن التصرف وفقا للعقيدة المسيحية لدرجة ان غلب الكنائس معطلة وظيفيا، ولا يدخلها الا بضعة عجائز في مواسم معينة، وبعضها أغلقت أبوابها او بيعت بالمزاد العلني. الا ان الدين قائم بقوة في سلوك الناس حتى أولئك الذين يزعمون انهم بلا دين او لا يؤمنون بدين. دعونا نتأمل هذه الصور قبل ان ندخل في التحليل الاجتماعي:

قبل ان يذهب للنوم احضر النيجيري ناندي نونكاو صحنا من اللبن وبعض الطعام وتركه امام المنزل من اجل الاجداد، ظنا منه ان احترام الأجداد الذين ماتوا منذ زمن طويل بهذه الطريقة من شانه ان يحمي الاسرة، ذلك لأنهم يملكون قوة غامضة ومخيفة، والأولاد يتعلمون احترام الموتى لكيلا يتعرضوا لسخطهم وعقوبتهم.

أبو سلمان اب مسلم وصاحب محل تجاري في سوريا، يواظب على الصلاة في مواعيدها تمسكا بتعاليم القران، وحالما يسمع الاذان يهرع الى مكان الصلاة ويحني قامته راكعا ساجدا لله. يفعل ذلك خمس مرات في اليوم معلنا ولاءه التام لله. ابو سلمان كرس حياته لله ويعامل اسرته بإحسان كما امره الله ويتصدق بسخاء ويقوم بعمله التجاري بما يرضي الله.

شارخ خان نصف متعلم هندي يذهب في مناسبات معينة خاصة بالديانة البوذية عاريا تماما ليسجد امام قدمي تمثال بوذا.

عبد السادة يذهب ماشيا من البصرة الى كربلاء تقديسا لولي من اولياء الله الذي يتعين احترامه وزيارته بناء على منزلته الكبيرة وجزءا من الواجب الديني الاعتقادي تقربا لله.

مارشال ابلوايت من كاليفورنيا قاد تسعا وثلاثين من اتباعه الى الانتحار كجزء من اعتقاد طائفته بان ذلك يقود الى أبواب الجنة، لقد أقنعهم بان وقت الذهاب الى الجنة قد حان، وان عليهم ان يحتسوا قليلا من الفودكا ممزوجة مع مخدر يؤثر بشدة على الجهاز العصبي المركزي، من اجل ان تصعد بهم مركبتهم الأرضية الى السماء.

سلمان رشدي كتب كتابا مسيئا للنبي محمد (ص) جزءا من لعبة قذرة لأعداء الإسلام وافتى المسلمون بقتله، غيّر اسمه الى جوزيف أنطوان وظل مختفيا عن الوجود، حتى نفذ فيه حكم الله فلقي حتفه مخنوقا او مشنوقا في مكان لا يعرفه أحد.

دوكم داني Dugum Dani شعب يعيش في مرتفعات غينيا الجديدة، ليس لهم إله، لكن عالمهم مسكون بكائنات خارقة للعادة Supernatural beings تدعى موجات Mogat، هذه الكائنات (الموجات) هي أرواح الموتى، وهي تتسبب في الامراض والموت وتتحكم في حركة الرياح والمطر. دوكم داني ليسوا اتقياء ولا يؤدون الصلاة، وطقوسهم لا تستلزم التبجيل او عبادة الموجات وانما التلطف معهم واسترضاءهم بطرائق

طقوسية بدائية (Ballantine & Roberts 2009, Macionis & Plummer 2002

هذه الأمثلة تعكس بوضوح القوة الهائلة التي يتمتع بها الدين في هيمنته على

شعب الدوكم داني في غينيا الجديدة (اندونيسيا) شعب بلا دين

الناس، لأنه يحقق لهم حاجات أساسية جدا. الأسئلة الإنسانية التقليدية عن معنى الحياة التي تنتهي بالموت، غياب العدالة، والوحشية التي لا تنتهي ابدا، لا أحد يستطيع الإجابة عنها علميا ولا عن طريق الخبرة اليومية. الدين فقط هو الذي يوضح لنا معنى الموت والحياة، والمعاناة، والالام وغياب العدالة والاحداث التي تقع خارج حدود قدرتنا المعرفية. دوركهايم (Durkheim {1915}2002) أكد ان الناس عموما يعتقدون ان هذ ه التساؤلات عن عالم الوجود تعزى للعالم المقدس Sacred Realm أكثر منها لخبرات العالم الدنيوي Mundane المدنس، هذا العالم المقدس يبعث على الخوف والرعب والتبجيل، لأنه فوق قدرة الانسان على فهمه وادراكه. الدين يحدد لنا ما هو صحيح وما هو خطأ، يزودنا بأجوبة عن الأسئلة

الكبيرة للحياة ويغرس لدينا قواعد أخلاقية وأفكار عن العالم المحيط بنا، انه بكلمات دوركهايم نظام موحد للمعتقدات والممارسات التي تهدف الى التقرب من شيء مقدس. الدين، في الواقع، أكثر من مجموعة معتقدات عن القوة الغيبية الخارقة، انه يعمل على جعل الثقافة التي نعيش فيها، الطبقة التي ننتمي لها والمكانة التي نمتلكها والاتجاهات نحو الاخرين والأخلاق التي نتمسك بها كلها موضع قدسية، فالدين جزء من حياتنا اليومية، من ادوارنا الجنسية Gender Role ومكاننا في المجتمع الذي نعيش فيه، ودوره في تحفيزنا للدفاع عنه بحياتنا ان لزم الامر. عدد كبير من الناس في أماكن متباعدة يؤمنون كما نؤمن ويظنون انهم وجدوا الحقيقة والاجابات النهائية في دينهم، وهم ايضا على استعداد للموت من اجل دينهم الذي يرونه الطريق الوحيد الصحيح. لاحظ ان حروبا عديدة نشأت بين المسلمين والهندوس في الهند، البروتستانت والكاثوليك في ايرلندا، الشيعة والسنة في العراق، بالعلى الرغم من ان دوافع هذه الصراعات اقتصادية وسياسية الا ان الدين يستخدم لاستقطاب الاتباع فتتحول الصراعات كأنها دينية وهي في الواقع ليست كذلك. الغريب ان اشتعال الصراعات على أسس دينية او طائفية تعزز اعتقاد كل طرف بان الله الى جانبهم، والصراعات الدينية أكثر الصراعات دموية على مر التاريخ فما تزال الحروب الصليبية مستمرة منذ أكثر من خمسمئة سنة على الرغم من ان الغرب ابتعد عن الدين، لكن تصريحات المسؤولين مثل تصريح جون ميجر رئيس وزراء بريطانيا اثناء حرب البلقان الثالثة 1992، عندما قال ان اوربا مسيحية وستبقى مسيحية في إشارة الى ان المسلمين لا مكان لهم في اوربا وهذا ما دفعهم لتشجيع

يوغسلافيا للقيام بتطهير عرقي ضد المسلمين في البوسنة والهرسك. جورج بوش الابن في الحرب الامريكية ضد العراق قال ان حربه هي حرب صليبية جديدة، وكان مسرورا جدا لجاذبية الكلمة التي خطرت على باله، لكنه سرعان ما استدرك بإشارة من مستشاريه الذين قالوا له ان للكلمة مدلولات سيئة لدى العالم الإسلامي، مما جعله لا يذكرها ابدا في خطاباته اللاحقة.

طبيعة الدين The Nature of Religion

الاعتقاد بالدين والقوى الغيبية الخارقة لها أساس في كل المجتمعات البشرية، وتنوعها وطريقة التعبير عنها تبدو لا نهاية لها، وتعريف الدين يجب ان يأخذ في الاعتبار هذا التنوع. وابسط تعريف للدين هو الاعتقاد بقوى غيبية خارقة للعادة. يقول هارالامبوس ان الدين شكل من اشكال الاعتقاد بقوة خارقة لها تأثير على البشر والحجر والدواب وكل ما في الكون من موجودات، وهو ينطوي على الإطار الرسمي للعقيدة theology، والطقوس، ومجموعة من القيم الأخلاقية، كما ينطوي على مؤسسات للعبادة مثل الكنائس والمساجد والمعابد، وباختلاف العقائد تختلف الطقوس والممارسات وتتنوع كما لاحظنا في الأمثلة السابقة. في الغرب مثلا فكرة الله تهيمن على التفكير الديني، من دون إله لا يوجد دين، لذلك فانهم يعّرفون الدين بانه علاقة الفرد بالسماء. البوذية تُعرف بانها ممر الخلاص من الالام وفقا لتعاليم بوذا في الكتاب المسمى "طريق الثمانية اضعاف النبيل" the noble eight-fold Path. ديانة الشنتو(Shinto) اليابانية تُعرف بانها الممر الى الالهة وبتعبير كونفوشيوس الطريق الى

الالهة. فكرة الله في هذه الديانات فكرة غامضة او مفقودة تماما، والتركيز يكون حول الطقوس والأفكار المجردة، بعض المفاهيم المتعلقة بالإنسان فائق القوة، توجد أيضا في كل الأديان، ولكن هذه القوة تأخذ عدة اشكال، الالهة المتعددة الاشكال، عباد اعطاهم الله كرامات، أرواح واشباح او قوى مجردة ومجهولة. في ميلانيزيا جنوب الباسفيك يعتقدون ان هناك قوة غيبية خارقة هي قوة "المانا" Mana Power التي تتواجد في أماكن غير مرئية، وطالما يستمر الناس في طقوس تمجيد هذه القوة فإنها ستعمل لصالحهم بدل ان تتسبب في ايذائهم.

المفكرون الغربيون، يقول شينوي Chinoy (1971) اعطوا المعتقدات والمذاهب مكانا مركزيا في الدين انطلاقا من فهمهم للدين المسيحي، لكنهما معا (أي العقائد والمذاهب) في وقت اخر وفي أجزاء أخرى من العالم، اقل أهمية من الطقوس. في الوقت الحاضر كل الأديان بلا استثناء تهتم بالطقوس أكثر من اهتمامها بجوهر العقيدة، المسيحيون يحتفلون بعيد الميلاد وعيد الفصح احتفالا مبالغا فيه والغالبية العظمى منهم لا دين لهم، المسلمون يهتمون بطقوس العبادة فيركعون ويسجدون وافعالهم وافكارهم تسرح وتمرح خارج حدود العقيدة، واليهود يهزون رؤوسهم امام حائط المبكى وافعالهم لا تشبه العقيدة الموسوية، اما الأديان والمعتقدات الأخرى فهي أصلا لا أساس سماوي لها والطقوس لديهم اهم من العقيدة نفسها.

الأشياء التي تكتسب أهمية دينية، بوصفها رموزا مقدسة او أشياء محرّمة تتنوع بشكل واسع، في الهند مثلا الهندوس يقدسون البقرة، ومن الشعوب البدائية من يقدس الطيور، والأشجار، والنباتات وربما يعبدونها. الشمس

والقمر، والشلالات، والجداول، والصخور. وتحتل المجوهرات الثمينة مكانة مرموقة في العقائد الدينية والممارسات الطقوسية لدى بعض الشعوب. بعض الطعام الذي نأكله ربما ينظر له على انه غير نظيف ومدنس، وغير مناسب للاستهلاك البشري، مثل لحم الخنزير والسمك ذو الاصداف لدى اليهود المتشددين، المشروبات الكحولية ولحم الخنزير لدى المسلمين، من جهة أخرى بعض الأطعمة ربما تكون مطلوبة في مناسبات دينية معينة، مثل النبيذ Wine والرقائق في الطقوس الكاثوليكية، لحم الطوطم او الحيوان المقدس لدى بعض الشعوب البدائية، اعشاب مرة وخبز غير مخمر في وجبة الفصح اليهودي Pass over meal. وهذا التنوع في الأشياء ربما يكتسب أهمية دينية، لكن العقيدة الدينية للإنسان والطقوس التي يمارسها ليس لها ما يمنحها المعنى الديني، فالمسيح لم يقل اشربوا الخمر، ولم يقل موسى كلوا الأعشاب المرة ومحمد لم يأذن بتعذيب الذات، وبوذا لم يقل اركعوا تحت قدمي التماثيل عراة،

وهكذا تبدو الطقوس لا علاقة لها بجوهر العقائد واغلبها مخترعات ثقافية. الأشياء والطقوس تبدو مقدسة لأنها تملك معنى للمعتقِد وليست دينية بذاتها.

الممارسات الدينية تقيم الاحتفالات الدورية للأحداث والرموز المهمة، مثل صلب المسيح ثم عودته، المولد النبوي الشريف، هروب اليهود من مصر، مولد بوذا. وأحيانا تستخدم الطقوس رمزيا لتعزيز بعض القيم المهمة، فمثلا عندما يحتفل اليهود بطعام الفصح فانهم يتركون الأبواب مفتوحة لكي

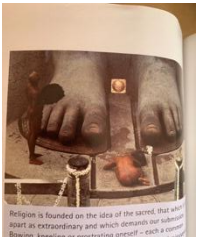

السجود تحت قدمي تمثال بوذا
المصدر: Macionis &Plummer 2002

يسمح للنبي إيليا بالدخول من اجل ان يشرب معهم قدحا من النبيذ المعتّق الذي أُعد له خصيصا. وتقاسم الخبز والنبيذ في القربان المقدس Eucharist يقرب المشاركين من المسيح في التقاليد المسيحية، ويدفعهم للاعتراف امام القس بذنوبهم من اجل التكفير عنها. ومن بين الطقوس الهندوسية يغطس الاتباع في الماء للتطهر من الدنس والآثام التي ارتكبوها في حياتهم اليومية. بعض الطقوس تمارس في مناسبات غير دينية ولكنها تأخذ طابعا دينيا، مثل الولادة والزواج والموت، في موسم زراعة الحبوب، او في مواسم الحصاد، عند نزول المطر او احتباس المطر، عند البدء بحملة عسكرية او عند الانتصار. في مثل هذه المناسبات يعبرون عن امالهم بمستقبل أكثر نجاحا. بعض الطقوس الدينية التي يقوم بها اغلب المشاركين، على كل حال، من الصعب فهم معناها الرمزي او الأسطوري، فما هو معنى تعريض المشارك نفسه للجلد حتى ينزف الدم من كل جسمه لدى بعض الفرق الدينية المسيحية شبه الوثنية، وما معنى ان يأتي الاب بابنه الذي لم يبلغ السادسة من عمره ليضرب بسكين كبيرة وحادة على راسه ويبقى يصرخ طول الليل، او يمشي على الجمر او يزحف مثل الكلب. لسنا في صدد إعطاء احكام عن صحة او شرعية مثل هذه الممارسات ولكن من الصعب على أي مراقب من خارج الجماعة إدراك المعنى الرمزي لهذا السلوك الجنوني. انهم في الواقع يتبعون تقاليد تعد جزءا من العقيدة، وهي في جوهرها ليست كذلك، انها تلبس عباءة الدين وفي حقيقتها تعبير عن احباط مزمن، كما انها تمثل نوعا من التمرد السلبي على السلطة التي لا يستطيع الفرد مواجهتها مباشرة خوفا من الشرطة السرية التي ترافقه مثل

ظله، فيمعن في تعذيب ذاته بطريقة مازوشية مصحوبة باللذة وكأنه ينتقم عن طريق دمه المسفوح على عدوه متخذا من دم المقدس ذريعة للانتصار على سوط الجلاد وسيف السياف. وفي ذلك يقول شينوي Chinoy (12971: 271) عندما يضفي الفرد طابعا مقدسا على شيء يعده الاخرون دنيويا محضا، فانه يبدو في عيون الاخرين مريضا او معتوها، والناس الذين يكتسبون الافكار الدينية يكتسبونها بوصفهم أعضاء في جماعة وليسوا أفرادا، كما ان بعض أنواع السلوك الديني التي يمارسها الفرد وحيدا فانه لا يقوم بها الا لأنه يتبع الوصفة الثقافية.

أصل الأديان وتطورها The Origin & Evolution of Religion

النظرية التطورية Evolution Theory

في القرن التاسع عشر كان اهتمام علم الاجتماع بالدين منصبا على سؤالين: كيف بدأ الدين؟ وكيف تطور؟ هذا الاتجاه كان واقعا تحت تأثير نظرية دارون المسماة أصل الانواع The Origin of Species التي نشرت عام 1859، ومثلما حاول دارون تفسير تطور الانواع، حذا علماء الاجتماع حذوه في تفسير تطور المؤسسات الاجتماعية والمجتمع، وفيما يتعلق بأصل الدين فقد قدموا لنا النظرية الأرواحية (الاحيائية) والنظرية الطبيعية.

الأرواحية والطبيعية Animism & Naturalism

الأرواحية تعني الاعتقاد بالأرواح. وبحسب إدوارد تايلور فان الأرواحية هي الشكل المبكر للدين، وهي مستمدة من محاولة الناس الإجابة عن سؤالين: ما الشيء الذي يحدث فرقا بين الجسد الحي والجسد الميت؟

ثم ما تلك الاشكال البشرية التي تظهر في الرؤى والاحلام؟ لكي تعطى هذه الاحداث معنى، الفلاسفة الأوائل اخترعوا فكرة الروح soul، والروح تعني النفس spirit التي تغادر الجسد مؤقتا اثناء الاحلام والرؤى، وتغادر الجسد بشكل دائم اثناء الموت، وحالما اخترعت فكرة الروح فإنها اخذت تطبيقاتها ليس على الناس فحسب وانما على كل الموجودات في الطبيعة والمجتمع، فالحيوانات مزودة بأرواح، وحتى الأشياء التي يصنعها الانسان مثل الايقونة المسماة Bullroarer التي يصنعها سكان استراليا الاصليون لها أرواح ويرى تايلور ان اختراع الروح كان غرضه ارضاء الطبيعة العقلية للإنسان في حاجته المتزايدة لإعطاء معنى للموت والاحلام والرؤى. النظرية الثانية هي النظرية الطبيعية التي تقدم بها ماكس مولر Max Müller عالم اللغويات القديمة الذي يزعم ان الشكل المبكر للدين مستمد من اعتقاد الناس بان قوى الطبيعة تملك قوة خارقة، ولها تأثير غير محدود على عواطفهم، وهذه القوة الخارقة غير المنظورة تعمل بطريقة مباغتة، وتبعث على الرعب والاعاجيب، مثل الأعاصير والفيضانات والرعد والبرق، وكان الناس الأوائل بزعمه قد نقلوا هذه القوى المجردة الى وكلاء شخصيين، أي شخصنوا الطبيعة Personified Nature فقوة الرياح أصبحت روح الرياح، وقوة الشمس صارت روح الشمس. وبينما كانت الأرواحية تلبي حاجة عقلية كانت قوى

شكل يوضح احدى ايقونات سكان استراليا الاصليون المقدسة

الطبيعة تحقق حاجة عاطفية، فالطبيعية هي استجابة الناس لتأثيرات القوة المدهشة للطبيعة.

علماء الاجتماع التطوريون في القرن التاسع عشر وضعوا خمس مراحل لتطور الدين بالتلازم مع تطور المجتمع، ابتداء بالأحيائية، ثم الاعتقاد بالأرواح المتعددة تليها مرحلة تعدد الالهة وصولا الى مرحلة التوحيد Monotheism، تايلور يعتقد ان كل مرحلة من مراحل تطور الدين تقوم على سابقتها، وان الأديان الحالية المعقدة تمتد في جذورها للأشكال البدائية الأولى. Haralambos & Holborn (1992)

نقد الاتجاه التطوري Criticism of Evolutionary Approach

تعرض الاتجاه التطوري لموجة من النقد الشديد، فالأصول الأولى للدين مفقودة تماما، وأول إشارة عن الدين جاءتنا من حفريات الآثاريين الذين كشفوا النقاب عن الملامح الأولى للدين منذ ستين ألف سنة، حيث وجدوا في الرواسب ان انسان النياندرتال Neanderthal كان يدفن موتاه مع الزهور والأدوات الحجرية والمجوهرات، وطبعا هذا لا يعطي أي انطباع عن شكل الدين ووظيفته في ذلك الوقت، ولا الدوافع التي تدفعهم لدفن المقتنيات مع الموتى، ولهذا فان البحث عن أصل الدين مجرد تخمينات. تخمينات تايلور ومولر معقولة نوعا ما ولكنها لم تعط أي تفسير لماذا اخذت هذه الاشكال هذا الاتجاه، كما انها لا تعني بالضرورة بداية لنشأة الأديان، كما لا يعقل ان تكون الأديان كلها نشأت بالطريقة نفسها، وإذا افترضنا جدلا انها بدأت هكذا فلماذا تنوعت بهذا الشكل بدون روابط مشتركة، هذا الى جانب ان المراحل التي وضعوها لتطور الدين لا تتناسب مع الحقيقة، ذلك

ان بعض المجتمعات البسيطة لديها دين يقوم على التوحيد، والتوحيد بزعم تايلور يرتبط بالمجتمعات الحديثة.

الاتجاه الوظيفي Functional Approach

إذا كان الاتجاه التطوري قد شدد على الحاجات العقلية، والحاجات العاطفية للمجتمع في تفسير نشأة الأديان وتطورها فان الافتراضات التي قدموها لم تكن مقنعة بما يكفي لأخذها مأخذا جديا لأنها أصلا كانت مجرد تخمينات. الاتجاه الوظيفي اتجه اتجاها أكثر توازنا لأنه لم يتورط في تخمينات عن أصل وتطور الدين، وانما اتجه نحو الوظيفة التي يؤديها الدين للتضامن والتماسك الاجتماعي. فالمجتمع بزعمهم يحتاج الى درجة معينة من التضامن، والاجماع القيمي، والانسجام والتكامل بين اجزائه لكي يبقى ويستمر في الوجود، والدين يساهم في تحقيق هذه المهمة، فهو يستطيع ان يوحد الجماعات والمجتمعات في نظام قيمي شامل، كما انه يسهل عملية الانسجام التي تحافظ على البناء الاجتماعي، ويعمل بمثابة سد منيع ضد التفكك والانحراف.

الطوطمية Totemism

يعد دوركهايم الأكثر تأثيرا على الاطلاق بين الذين فسروا الدين من وجهة نظر المدرسة الوظيفية، وكان قد استخدم عدة اديان لجماعات من سكان استراليا الأصليين. هذه الأديان التي سماها "الطوطمية" اعتبرها ابسط اشكال الدين. مجتمع استراليا الأصلي كان منقسما الى عشائر وكل عشيرة عبارة عن عائلة ممتدة بأعضاء يشتركون في الواجبات والالتزامات نفسها، مثلا العشيرة لديها نظام الزواج الخارجيexogamy أعضاء العشيرة

عليهم واجب مساعدة بعضهم البعض، يجتمعون في الحزن على الميت، ويشاركون في الانتقام من عضو العشيرة الأخرى إذا تعرض عضو من أعضاء عشيرتهم للظلم. كل عشيرة لها طوطم. والطوطم رمز، شعار للعشيرة مثل العلم الوطني، انه علامة تميز كل عشيرة عن سواها من العشائر، والطوطم أكثر من ذلك انه رمز مقدس ينحت على الايقونات، وهو اهم مقدس في شعائرهم، انه الشكل الأكثر حضورا في المبادئ الطوطمية، وهو بمثابة إله. يقول دوركهايم إذا كان الطوطم رمزا للإله، فانه يعني ان الاله والمجتمع شيء واحد ولذلك فانهم حين يعبدون الاله فانهم في الحقيقة يعبدون المجتمع، فالمجتمع هو الشيء الحقيقي للتبجيل الديني.

كيف يقوم الناس بعبادة المجتمع؟ الأشياء المقدسة تعد ارفع مقاما وسلطة من الأشياء الدنيوية ولاسيما الانسان، فالإنسان في علاقته بالمقدس يكون أدنى منزلة وأكثر اعتمادية على المقدس، هذه العلاقة بين الانسان والمقدس هي بالضبط نفس علاقته بالمجتمع، والمجتمع اهم وأكثر سلطة من الفرد، وفي ذلك يقول دوركهايم ان الانسان البدائي ينظر للمجتمع على انه مقدس لأنه يعتمد عليه اعتمادا كليا. والسؤال لماذا اذن لا يعبد الانسان المجتمع نفسه؟ لماذا اخترع طوطم مقدس ليعبد عن طريقه المجتمع؟ يجيب دوركهايم، انها طريقة أسهل للشخص عندما يتوجه بمشاعره نحو الرمز من ان يتوجه لشيء معقد مثل العشيرة.

دوركهايم يؤكد ان الحياة الاجتماعية تستحيل من دون قيم ومعتقدات أخلاقية مشتركة والتي تشكل ما يسمى الوعي الجمعي collective conscious وفي حالة غيابها ليس هناك نظام اجتماعي، ولا ضبط اجتماعي ولا تضامن

او تعاون اجتماعي ولا حتى مجتمع، والدين يعمل على تعزيز الوعي الجمعي. هذا وان عبادة المجتمع من شانه ان يقوي القيم والمعتقدات الأخلاقية الي تشكل القاعدة الأساسية للمجتمع.

وعلى الرغم من أهمية أفكار دوركهايم في تفسير الدين الا انه تعرض لنقد شديد من علماء اجتماع وليس من رجال دين، ذلك ان رجال الدين يعدون دوركهايم ملحدا لا دين له، اما علماء الاجتماع فانهم لم يجدوا رابطا حقيقيا بين الطوطمية والدين، وانه بالغ كثيرا في ربط عبادة الطوطم بعبادة المجتمع ذلك ان رؤيته للدين قد تنطبق على مجتمعات بسيطة وغير متعلمة حيث تكون العلاقات والمؤسسات الاجتماعية-الثقافية متماسكة بدين او بدون دين وان رؤيته لا علاقة لها بالمجتمعات الحديثة التي تنطوي على ثقافات وجماعات فرعية ومؤسسات متخصصة الى جانب نسق من الممارسات والمعتقدات، والمؤسسات الدينية. ولكن علماء الاجتماع يؤيدون دوركهايم في اعتقاده بان الدين يعزز الروابط الاجتماعية والتضامن الاجتماعي والمعتقدات الأخلاقية.

الدين وازمات الحياة Religion & Life Crises

من اهم الذين سلطوا الأضواء على أزمات الحياة وعلاقتها بالدين هو الانثروبولوجي مالينوفسكي Malinowski (1954)، ومثلما فعل دوركهايم درس مالينوفسكي مجتمعات امية وصغيرة الحجم لتطوير فرضيته عن الدين، واغلب امثلته مستمدة من دراسته الميدانية لمجتمع التروبرياند بالقرب من سواحل غينيا الجديدة وكما فعل دوركهايم أكد مالينوفسكي ان الدين يعزز القيم والمعايير الاجتماعية ويقود الى التماسك

الاجتماعي، ولكنه يختلف مع دوركهايم في ان الدين لا يمثل المجتمع كله والشعائر الدينية لا تقدس المجتمع. واختار مالينوفسكي مناطق معينة في الحياة الاجتماعية تهتم بالدين، وعليها بنى افتراضاته، هذه المناطق هي المواقف التي تبعث على الضغوط العاطفية مثل التوتر والقلق اللذين يملأن الحياة الاجتماعية، والمواقف التي تنتج هذه المشاعر بما فيها أزمات الحياة، مثل الولادة والبلوغ والزواج والموت. يقول مالينوفسكي Malinowski (1954) في كل المجتمعات أزمات الحياة هذه تحاط بطقوس دينية، ووجد ان الموت من أكثر الاحداث التي تبعث على الحزن والاضطراب، واكثرها تشويشا، وهي لذلك ربما تكون اهم مصدر للمعتقدات الدينية. والدين يتعامل مع الموت عن طريق الحفل الجنائزي الذي يعبر عن الاعتقاد بلاأخلاقية الموت، وهي عقيدة تتنكر لحقيقة لموت. وفي الحفل الجنائزي يخفف المعزون عن الثكالى بوقوفهم الى جانبهم. هذا السلوك التضامني يخفف الحزن والأسى ويقلل القلق والتوتر الذي يسببه الموت. والموت يبعث على الاضطراب الاجتماعي لأنه يزيل عضوا من أعضاء المجتمع، والدعم الذي تحصل عليه عائلات الموتى يؤدي الى التماسك الاجتماعي. ولاحظ مالينوفسكي ان الطقوس الدينية المرافقة لبعض النشاطات الاقتصادية مثل الصيد، من شانها ان تخفف القلق وتبعث على الطمأنينة والشعور بالسيطرة.

الدين والاجماع القيمي Religion & Value Consensus

رائد هذا الاتجاه تالكوت بارسونز الذي يقول ان الفعل الاجتماعي موجّه، ومسيطر عليه بوساطة المعايير الاجتماعية. فالنظام الثقافي يزودنا بدليل عام للفعل على شكل معتقدات وقيم وانظمة معاني Systems of

Meaning، والمعايير التي توجه الفعل ليست قواعد للسلوك المعياري فقط انها تتكامل وتنمّط بوساطة القيم والمعتقدات التي تزودنا بها الثقافة، فمثلا، عدة معايير في المجتمع العربي هي في الواقع اشكال تعبيرية عن القيم الدينية، مثل بر الوالدين واحترام الجيران وحسن الخلق. ولأن الدين جزء من النظام الثقافي، فان المعتقدات الدينية تزود الفعل الانساني بدليل عمل من شانه ان يحدد ما ينبغي وما لا ينبغي من الأفعال التي يقوم بها الناس والتي تخضع للتقويم، بمعنى ان الأفعال المستمدة من العقائد الدينية تمنح الناس فرصة لتقويمها وفقا لمعايير العقائد، فيقال هذا الفعل محمود وذاك الفعل مرذول، فالذي يكذب يكون سلوكه موضع استهجان وفقا لمعايير العقيدة الدينية، ومن يكون امينا او صادقا او يسلك سلوكا ايثاريا فان سلوكه يكون موضع استحسان، ومثلا يحرم الدين القتل، او الزنا او الغش، وهذا ينعكس على السلوك، حيث يعمل المعيار الديني بمثابة موجّه للسلوك، فيتجنب اغلب الناس اللجوء للقتل او ارتكاب الفاحشة او الغش (مع بعض الاستثناءات)، وبتأسيس مبادئ عامة ومرتكزات أخلاقية، يساهم الدين في الوصول الى اجماع، من شانه بحسب بارسونز ان يكون ضامنا لاستقرار وتنظيم المجتمع. وأنظمة المعاني التي أشار اليها بارسونز تعني الأفكار والرموز التي تستعمل لتعطي معنى لهدف من اهداف الحياة، وتساعد في تفسير المعاناة، وغياب العدالة، ووساوس الشيطان، انها باختصار تزودنا بصورة كبيرة للأحداث التي تبدو من دون الدين وكأنها نوع من الفوضى والعبث واللاعقلانية. Ballantine & Roberts (2009)

المدرسة الوظيفة التي يعد بارسونز احد ابرز اقطابها، تؤكد كما يقول "هارالامبوس" على الجوانب الإيجابية للدين فقط ويتجاهلون الجوانب السلبية، والواقع ان الدين الحقيقي ليس فيه جوانب سلبية، ولكن فيه ممارسات سلبية تعزى للدين وهي ليست منه، فمثلا عندما يعتدي قس من القساوسة جنسيا على طفل او يقوم رجل دين بالاستحواذ على الممتلكات العامة بحجة انه يأخذ حصته الدينية فان ذلك ليس من الدين في شيء، كما ان النقد الموجه للوظيفية يشير الى انها اهملت عمدا الانقسام الاجتماعي الداخلي الذي يقوم به الدين والذي يؤدي الى صراعات مميتة كما هو الحال بين الكاثوليك والبروتستانت او الهندوس والمسلمين او بين الشيعة والسنة، ومرة أخرى لا يبدو ان الدين او جوهر العقيدة هو المسؤول عن الانقسامات، الانقسامات من صنع الاطماع، فالإسلام لم يقل لا في الكتاب ولا في السنة ان المسلمين ينبغي ان يتبعوا المذهب الفلاني او الشخص الفلاني، او يكونوا شيعة او سنة، هذه مسميات وتقسيمات جاءت إضافات ثقافية من رجال كان هدفهم الحصول على السلطة والثروة وربما الشهرة، والحال ينطبق على باقي الأديان والمعتقدات، وجوهر الدين في كل حال يؤكد على الانسجام والتراحم والتضامن والتكامل وليس الانقسام والتباعد والتباغض، وقول منتقدي المدرسة الوظيفية بانها تجاهلت موضوع الانقسام الذي يسببه الدين هو نوع من الهرطقة الكلامية، يراد منه إبعاد التهمة عن المسبب للانقسام والصاقها بالدين لأغراض بعضها سياسية وبعضها فكرية وبعضها لا دينية.

خلاصة Conclusion

لقد تبين حتى الان ان الدين يعمل على استقرار وتكامل المجتمع، وفي الوقت نفسه يكون مصدرا للتباغض والتنافس والانقسام والصراع. مرة أخرى أقول ان الدين بذاته لا يعمل على تفريق الناس او وضع الحواجز والتمايزات بينهم، ذلك ان الدين في جوهره جاء لخلاص الناس من الخرافة والتعسف والاستعباد، ولكن القائمين عليه انقسموا بتأثير الاهواء والمصالح فصاروا شيعا وطوائف وأحزابا متناحرة لم تكن في أصل العقيدة، لا في الإسلام ولا في المسحية ولا في اليهودية ولا حتى في البوذية والكونفوشيوسية. لقد وجد كارل ماركس ان الكنيسة كانت تبرر السلطة القاهرة لأصحاب راس المال، وكانت تعمل على تخدير الفقراء الذين كان عليهم ان يصبروا لكي ينالوا الجنة، وقد كان ماركس محقا عندما وصف الدين المسيحي الذي تقوده الكنيسة على وجه التحديد، بمثابة افيون للشعوب المسحوقة فيما تتنعم فئة قليلة من ضمنها فئة رجال الدين بكل الامتيازات، تماما مثلما يحدث معنا في العراق واغلب الدول العربية الان حيث يستحوذ رجال الدين السياسي على كل شيء فيما لا يحصل المواطن على أي شيء، فلا تجد شارعا يصلح للمشاة ولا مشفى يصلح لعلاج المرضى ولا مدرسة تصلح لتعليم الأولاد، ولا كهرباء في الصيف ولا ماء صالحا للشرب بينما يدخل العراق من موارد النفط وحده ما يعادل دخول عشر دول من دول الجوار، ولكن هذه الثروة كلها تذهب في بطون اللصوص والسماسرة وتجار الليل بتأييد ومباركة رجال الدين السياسي الذين يتحصنون في مستوطنات خاصة تحت حماية الاتباع والجنازير والكلاب المدربة على

اكل لحوم البشر. وعلى الرغم من ان المدرسة التطورية والمدرسة الصراعية ترى ان الدين ولد في أحضان الخوف وانه شكل من اشكال الوهم او الاساطير، الا ان الحقيقة التي لا تقبل الجدل ان الدين كان على امتداد التاريخ، كما تقول المدرسة الوظيفية في علم الاجتماع، قوة تعمل على توحيد المجتمع وتماسكه عبر منظومة قيمية واخلاقية متكاملة. وقد كان للدين كما يقول براوني Browne (2010) دور فاعل في احداث التغيرات الاجتماعية الإيجابية، وفي الوقت نفسه ادّى دورا في نشوء الجماعات المتطرفة، في كل الأديان، ولكن تركيز المفكرين الغربيين كان على التطرف الإسلامي فقط، على الرغم من ان الحركات الإسلامية المتطرفة نشأت في مختبر المخابرات الأجنبية عن طريق جذب المحرومين، غير المتعلمين وغير الاسوياء مع المرتزقة من غير المسلمين الذين كانت تمدهم المخابرات الأجنبية بالمال والسلاح والمعلومات. التطرف الإسلامي في الواقع لعبة خطيرة نجح الغرب فيها بتخريب البلدان العربية بدون ان يخسر جنديا ومن دون ان يدخل في حرب ترهقه اقتصاديا. الإرهاب صناعة غربية جندت له الاجناد المخابراتية واموال ودماء وعقائد العرب الذين اندفعوا لتخريب بلدانهم بسبب سعة الفجوة بين الحاكم والمحكوم.

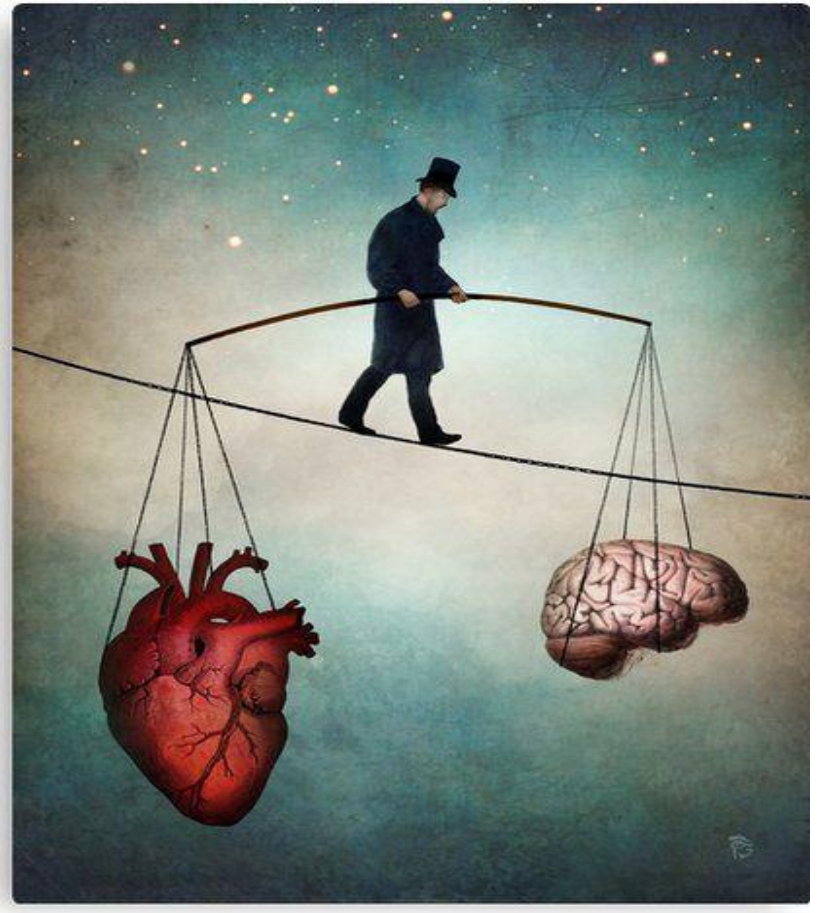

الفصل الثامن

توزان العمل الإنسانى مع القيمة الأخلاقية

القوة والسلطة والسياسة والدولة

Power, Authority, Politics & State

أسوأ أنواع السلطة هي التي تفرض عليك ان تذكرها ليلا ونهارا
ارنست هيمنجواي

السلطة السياسية في الغرب الرأسمالي غيرها في المجتمعات الأقل تقدما، وغيرها في الدول النائمة، السلطة السياسية في الغرب طبقية بامتياز، يقول فولتشر وسكوت (1999) Fulcher& Scott ان الشركات الكبرى بمقدورها ان تتآمر لتقويض سياسة الحكومة، ذلك ان اغلب أعضاء البرلمانات لهم صلات عمل او مصالح مع هذه الشركات، ولذلك فان هذه الشركات تملك القدرة المالية والسلطة داخل البرلمان تمنحها القدرة على التلاعب بسياسة الحكومة، وعليه فان اغلب الحكومات الرأسمالية تقع تحت هيمنة جماعات الضغط. بعض الناس يعتقدون ان الحكومة تعمل كأداة لتحقيق المصالح الخاصة التي تعمل من وراء ستار، والبعض الاخر يعتقد ان الحكومة الديمقراطية تعمل بمثابة حكم محايد يعمل لإحداث نوع من التوازن بين أصحاب المصالح. لمعرفة حقيقة ما يجري يتعين معرفة حقيقة وماهية القوة والسلطة.

طبيعة القوة والسلطة The Nature of Power and Authority

الأصل في العلاقة بين الجماعات والافراد مع بعضهم البعض هي في الواقع القوة والسلطة* Power &Authority فالقوة الاجتماعية تعني القدرة في السيطرة على أفعال الاخرين وتظهر في كل جوانب الحياة الاجتماعية، كالأسرة، والدين والمدرسة والنشاط الاقتصادي وبالطبع في الحكومة والسياسة. القوة ليست الممارسة التي يقوم بها مجلس النواب في تشريع القوانين فقط، او عندما يعترض عليها رئيس الوزراء او رئيس الجمهورية،

وانما أيضا عندما يؤدب الابوين الطفل، وعندما يفرض المعلم الواجب البيتي على التلاميذ، وعندما يحدد المدير التنفيذي للشركة الأسعار، وعندما يختار المنتج التلفزيوني البرنامج. القوة تكشف عن نفسها عندما يعلن رئيس الوزراء او رئيس الجمهورية السياسة العامة للبلاد، وعندما يطيح الجيش بالرئيس في السودان، وعندما تتظاهر الجماهير الغاضبة في الشرق الأوسط ضد السياسة الامريكية (في هذه المرحلة خنع الحكام واسكتوا أصوات الجماهير الغاضبة ولم تعد هناك أصوات ترتفع حتى مع اعلان الرئيس الأمريكي ترامب تأييد إسرائيل في ضم الجولان المحتل، ولم تظهر الجماهير الغاضبة مع نقل السفارة الامريكية للقدس... الجماهير الغاضبة هدأت مع هدوء الحكام وأصبحت ذكرى من الماضي). القوة تنطوي على إمكانية اصدار الأوامر واتخاذ القرارات التي تؤثر بشكل مباشر او غير مباشر على حياة وافعال الاخرين. القوة قد تستند الى أيديولوجيا خادعة قد تعمد الى انكار وجودها او تقلل من أهميتها ولكنها تعمل في الظلام بقوة، مثل اللوبي الصهيوني في أمريكا وأروبا، الذي لا يظهر للعلن ولكنه يملك تأثيرا خطيرا على صنّاع القرار في هذه البلدان. والتاريخ يزودنا بأمثلة لا حصر لها عن القوة التي تفرض نفسها بالسيف، وفي ذلك يقول بعضهم "ان

الفرق بين القوة power والسلطة authority: هو ان القوة تعني قدرة الفرد او الجماعة في التأثير على الاخرين والسيطرة على افعالهم، اما السلطة فإنها الحق الشرعي والرسمي الذي يسمح بإعطاء الأوامر واتخاذ القرارات. ، وهما في الغالب يستخدمان كمرادفات لان القوة مرتبطة بالسلطة والسلطة تحتاج قوة لكي تستمر في اصدار الأوامر وتنفيذها.

القوة تصنع الحق" وهي بكلمات ِثراسيماشوس Thrasymachus الذي يجادل سقراط في جمهورية افلاطون "العدالة ليست أكثر من مصالح الأقوياء" وفي رواية دانيال ديفوا "روبنسون كروسو" يوكد الكاتب ان من يملك القوة يملك السيادة وحالما يفقدها يتحول الى عبد. لكن القوة التي تعتمد على الأيديولوجية المجردة يقول شينوي Chinoy هي قوة غير مستقرة وانتقالية، ولن يكون الاقوى قويا بما فيه الكفاية مالم يحول القوة الى حق والطاعة الى واجب، كما يقول جان جاك روسو. وأولئك الذين يفرضون قوتهم بالقوة المسلحة فقط قد يواجهون في وقت من الأوقات عصيان تنفيذ اوامرهم مالم يكونوا على درجة من التحوط في الحفاظ على مواقعهم. وقد يستطيعون تأمين قوتهم بالضغط الشديد على المناوئين ليكونوا بلا حول ولا قوة، مع اضعاف شامل للنسيج الاجتماعي عن طريق إعطاء امتيازات كبيرة لفئة قليلة تدين لهم بالولاء ومن ثم بتحويل القوة power الى سلطة authority تديم سيطرتهم بوساطة عقوبات مؤسسية واخلاقية. وهذا النوع من القوة هو المعمول به في العراق منذ عهد الانقلابات وصولا الى "ديمقراطية" اللصوص الذين احاطوا أنفسهم بأسلاك شائكة وكلاب مدربة على اكل لحوم البشر وبضعة مئات من السماسرة والعصابات والمنتفعين والمنافقين الذين يأكلون معهم في صحن واحد في اول النهار ويكيلون لهم التهم في اخر النهار. لقد انتصر النفاق في العراق انتصارا ساحقا وهيمن على منظومة القيم الاجتماعية لدرجة ان الذي لا ينافق لا يجد لنفسه مكانا في مؤسسات الدولة والمجتمع، بمعنى ادق صار النفاق قيمة إيجابية وسلعة رابحة في سوق السياسة والاقتصاد والاجتماع بعد ان كان قيمة مرذولة.

عمليا يمكن الحصول على القوة من عدة مصادر؛ القوة المسلحة، المصالح الذاتية، الأيديولوجيا، واللامبالاة apathy فنظام عبد الكريم قاسم او صدام حسين مثلا حصلا على القوة من ثورة او انقلاب عسكري مصحوب بالعنف، واحكموا قبضتهم بالقوة المسلحة وإرهاب الناس وبث الرعب، ولكنهم عملوا أيضا على اسكات الناس بتقديم خدمات في التعليم والصحة والزراعة والصناعة، وعملوا على تحقيق بعض وعودهم. والان في عصر الديمقراطية الزائفة تعاقب حتى اللحظة خمسة رؤساء وزراء أطلق كلهم وعودا بتقديم خدمات في الصحة والتعليم والبنية التحتية ومحاربة الفساد ولم يحقق أي منهم ولو واحد في المائة من وعودهم، ذلك ان الذي يأتي مع جنازير المحتل لا يكترث ابدا بتحقيق وعوده للشعب الذي يحكمه، واهتمامه الأول إرضاء المحتل الذي وضعه على راس الهرم وتكفل بحمايته.

التبرير الاجتماعي للقوة بصيغتها الشرعية قد يأخذ عدة اشكال، منها القوة المقبولة اجتماعيا التي ترتبط بتقاليد مثل الاسرة المالكة في بريطانيا التي ما تزال على راس الهرم منذ عدة قرون، ومنها الولاء الحزبي الذي يتجاوز الأشخاص نحو أنظمة وسياسات تلتزم بقواعد يشترك فيها الجميع، مثلا في الولايات المتحدة الامريكية كما يزعمون ان الحكومة هي حكومة قوانين وليست حكومة اشخاص. وليس مهمّاً ان لا تحظى القوانين بشعبية، المهم ان تطاع طالما انها دستورية. والمعارضون قد يبذلون مجهودا لتغيير القوانين او الدساتير من دون اعلان العصيان او التمرد. وقد تكون السلطة شرعية عندما يكون الشخص ذا مؤهلات قيادية كاريزمية Charisma مثل شخصية نيلسون مانديلا، او كاسترو او لينين او ماو تسيتونغ. ومع

ذلك فان بناء القوة لم يُحدد بوضوح، انه في الواقع لا يملك أرضية مشتركة وهو مفهوم غير موثوق به لأنه موضع خلاف حتى بين المتخصصين. بعض المراقبين يعتقدون ان المدير التنفيذي في الشركات العملاقة في المجتمعات الرأسمالية الحديثة يتمتع بسلطة كبيرة جدا مستمدة من الموقع الذي يشغله. ولكن مثل هذا الاعتقاد موضع تشكيك مستمر، فالقوة او السلطة التي يتمتع بها المدير التنفيذي او السياسي يمكن انتزاعها بسرعة على طريقة مصباح علاء الدين السحري. ومهما يكن فان فهم القوة والسلطة يستلزم فهم السياسة.

السياسة والسلطة Politics & Power

التحليل الاجتماعي للسياسة يأخذ في الاعتبار العلاقة بين السلوك السياسي والبناء الاجتماعي. علم الاجتماع يقوم بتحليل السلطة والهيمنة في مواطن مختلفة من المجتمع، من مكان العمل الى الاسرة، وعلم الاجتماع السياسي يهتم بدراسة السلوك السياسي المباشر مثل التصويت في الانتخابات وانشطة جماعات الضغط، لكن علماء الاجتماع يعتقدون ان مديات السلطة السياسية ابعد من ذلك بكثير، فالسياسة تدخل في كل أنواع التفاعلات الاجتماعية، وكما يقول وزلي Worsley (1966: 16-17) "يمكننا القول باننا نتصرف سياسيا عندما نضع نوع من القيود على الاخرين لكي يسلكوا السلوك الذي نريد... وضع القيود على الاخرين في أي علاقة اجتماعية هو سياسة". وفقا لوجهة النظر هذه فان السلوك السياسي هو سلوك سلطوي، وهذا لا يقتصر على المؤسسات الحكومية، ولكنه يمكن ان يظهر في أي موقف اجتماعي. عندما يتخذ القرار السياسي فانه يصبح موضع تنفيذ،

والتنفيذ يستلزم القوة والسلطة لكي يأخذ طريقه الملزم. السياسة ببساطة ليست ما يفعله السياسي، انها أية ممارسة تستلزم ممارسة الضبط، ووضع القيود والاجبار في المجتمع، واية علاقة غير متكافئة او ليس فيها مساواة تملك ابعادا سياسية، ولان عدم المساواة موجود في الحياة الاجتماعية، فان اي بحث في أنماط الحياة الاجتماعية ينبغي ان يكون بحثا عن أنماط توزيع السلطة. كما ان الاتجاه الاجتماعي للسياسة يقوم دائما على تحليل عمليات السلطة في مجال العلاقات الاجتماعية، وعلى نتائج السلطة المرتبطة بالصراع او الاستقرار الاجتماعي. النظريات الحديثة للسلطة ذهبت بعيدا في تحليلها بكلا الاتجاهين، الضيق والواسع Micro & Macro. ميشيل مان M. Mann (1986) أكد على ان هناك أربعة مصادر للقوة الاجتماعية هي: الأيديولوجيا، والاقتصاد، والعسكر والقوة السياسية، وبدل ان يكون هناك بناء مفرد للقوة لكل مجتمع من المجتمعات، أكد "مان" ان هناك شبكات متداخلة للقوة والسلطة، كما أشار الى انه لا ينبغي الاعتقاد بان احدى أنواع القوة او السلطة المشار اليها يمكن ان تحصل على الهيمنة التامة كما وصفها كارل ماركس. مان كان مشككا بنظريات بناء السلطة التقليدية ولكنه هو الاخر سقط في فخ التوصيفات الاعتباطية في اعتماده على مفهوم المنظمات التي تمارس السلطة. ميشيل فوكو Michel Foucault (1979) هو الاخر كان مرتابا من التعامل مع المجتمعات المحصورة بأبنية منفصلة، ورفض بقوة أي تعميم بشأن التفسير الاقتصادي للسلطة، فوكو ذهب ابعد من مان في رفض فكرة البناء الواسع للسلطة Macro way، وكان ينظر للسلطة منظار الباب الضيق Micro، ويراها

واضحة في كل العلاقات الاجتماعية وفي عمل مختلف المؤسسات بما في ذلك السجون والعيادات الطبية. وهو في ذلك يكتشف العلاقة القريبة بين السلطة والمعرفة، ويقول انه حيث تستقر الأفكار وتوضع موضع الممارسة ويصبح الخطاب فعالا فان فكرة هيمنة السلطة الحاكمة مثلا تبدد الغموض عن حقيقة السلطة على المستوى الضيق Micro level بمعنى ان السلطة لا يمكن النظر اليها من الباب الواسع Macro أي باستحواذ طبقة بذاتها دون الاخرين على السلطة، وهو لذلك يعد السلطة بناء يشبه الشبكة ينتشر عبر نسيج الحياة الاجتماعية، ففي الحقل الطبي مثلا يقول فوكو ان طبيعة المعرفة لها سلطة مباشرة اذا وضعت موضع الممارسة في المؤسسات الطبية، ويتخذ من هذه السلطة على المستوى المؤسسي انموذجا للسلطة على مستوى "Micro"، بينما ذهب اخرون في توجيه الاتجاه نحو السلطة على المستوى العالمي الواسع Macro، مثل الشركات عابرة القارات التي ذهبت مع سلطتها وقوتها ابعد من الحدود القومية لأي بلد. Bilton et al (2002)

الطبقة والسلطة Class & Power

العلاقة بين الطبقة والسلطة السياسية كانت محور نظرية كارل ماركس، وينضوي تحتها الطبقة التي تحكم والطبقة التي تعمل، وهذه الثنائية كانت موضع نقاش مستمر من قِبل المؤيدين والمعارضين. مناقشة الطبقة العاملة كانت تتمحور حول وعيها الطبقي وفعلها السياسي، بينما ركزت مناقشة الطبقة الحاكمة على قدرة هذه الطبقة على الهيمنة على سلطة الدولة. لقد كان الماركسيون ينظرون للطبقة العاملة على انها اشكال نامية للعمل

السياسي الذي يعمل على تحدي النظام الاجتماعي الرأسمالي القائم، وإنها في النهاية ستنتصر على هذا النظام بالثورة، ومن جهة أخرى فان الطبقة الحاكمة التي تتحكم في أدوات الدولة ستؤول الى الزوال. منتقدو ماركس هاجموا نظريته السياسية بوجهيها، وأكدوا ان الطبقة العاملة فشلت في ان تكون أداة ثورية فعالة كما أراد لها ماركس، ثم رفضوا فكرة هيمنة الطبقة الرأسمالية على الدولة. المنتقدون الذين ينتمون لمدرسة الصفوة التقليدية، استبدلوا مفهوم ماركس عن الطبقة الحاكمة بمفهوم الصفوة السياسية او الصفوة الحاكمة، وقالوا ان الذين يحكمون هم خليط من كل الطبقات، والسلوك السياسي لهذا لا يمكن ببساطة عزوه للعلاقة بين الطبقات او الصراع الطبقي. ماركس كان يرى الطبقات الاجتماعية على انها فئات من الناس يشتركون في مصالح اقتصادية معينة، وكان يعتقد انه عندما يصبح أعضاء الطبقة على وعي بمصالحهم المشتركة فانهم سيقومون بتشكيل او الانضمام لحزب سياسي يمثل مصالحهم. كما ان وعيهم الطبقي وتضامنهم سوف يعزز فعلهم الجمعي ويجعل منهم طبقة بذاتها على حد تعبير ماركس نفسه. فاذا انتظم أعضاء الطبقة من اجل العمل السياسي فانه سيكون بمقدورهم العمل لأنفسهم من اجل مصالحهم الجمعية، ولن يعودوا يشكلون مجرد طبقة بذاتها، او تجمع من الافراد المتماثلين، لأنهم يملكون الوحدة والتماسك والتنظيم من اجل برنامج عمل مشترك يميزهم. ماركس كان يرى المجتمع الرأسمالي يمضي بقوة نحو القطبية، الانقسام الاقتصادي بين الطبقة العاملة والطبقة المالكة لوسائل الإنتاج الرأسمالي، أصبح ملحوظا أكثر وأكثر، كما أصبح ينعكس على استقطاب الوعي الطبقي. والطبقة

العاملة انتظمت في شبكة الاتحادات العمالية، جماعات الضغط، والأحزاب السياسية، وهذه كلها مجتمعة تشكل حركة اجتماعية تقدمية فعالة، هي الحركة العمالية، ويرى ماركس ان الأحزاب الشيوعية تلعب دورا قياديا فيها. من جهة أخرى، الطبقة الرأسمالية متورطة بشكل مباشر في ممارسة سلطة الدولة، واعضاؤها يمسكون بالمواقع القيادية في البرلمان والحكومة والمفاصل الأخرى للدولة، حيث يشكلون الطبقة الحاكمة، وسلطتها السياسية تنمو مع نمو الدولة، والصراع بين الطبقة العاملة والطبقة الحاكمة أصبح منظم سياسيا. اغلب علماء الاجتماع اليوم يتفقون على ان رؤية ماركس للاستقطاب الطبقي ليست بهذه الحدة، كما ان تطور المجتمعات الرأسمالية لم يؤكد توقعاته، ذلك لان المجتمعات الرأسمالية استوعبت نظرية الصراع وعملت على تحييد العوامل التي تقود للصراع، مثل رفع الأجور وتوفير الضمان الاجتماعي والصحي وتحسين ظروف العمل، والاهم امتصاص الوعي الطبقي المحفز للكفاح ضد الاستغلال. ومهما يكن فان المفاهيم النظرية لكارل ماركس على الرغم من اخفاقها في التطبيق في اغلب البلدان الشيوعية، وانهيار الاتحاد السوفيتي الذي كان يمثل امل العمال في التحرر، بقيت ذات قيمة عظيمة وقاعدة فعالة في فهم التوجهات المركزية للمجتمعات الحديثة.

خلاصة Conclusion

هذا الفصل كان مكرسا للتعريف بعلاقة السلطة والقوة بالسياسة والدولة، وقد تبين ان علم الاجتماع ذهب بعيدا في ملاحقة الأفكار والاتجاهات المختلفة في عالم سريع التغير اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا، واتضح انه

من المستحيل على علم الاجتماع الالتزام بخط فكري واحد للسلطة والقوة في المجتمع، ومن الخطأ التركيز على السياسة في بلد بعينه دون الاخذ في الاعتبار ابنية القوة الاوسع فيما وراء حدود الدولة القومية. وإذا كان الاتجاه الماركسي قد ترك اثرا حادا في الفكر السياسي والاقتصادي المعادي للرأسمالية، فان النظام الرأسمالي الذي بلغ شأوا رفيعا من التقدم والذي استوعب فكرة الصراع الطبقي وتجاوزها، فانه أسس لعلاقات قوة ابعد بكثير من أفكار كارل ماركس. ومهما يكن فان طبيعة السياسة والقوة في المجتمع لا تقتصر على الدولة ومؤسساتها، وانما تشمل أيضا كل العلاقات ذات الطبيعة الملزمة بين الجماعات الاجتماعية، من الاسرة الى المدرسة الى الشركات متعددة الجنسية والعابرة للقارات. النظام الرأسمالي تخطى حدود الدولة القومية في السياسة والاقتصاد والاجتماع، والدولة الحديثة بمقوماتها الجغرافية والسكانية والثقافية والسياسية هي صنيعة الاستعمار الذي بدأ ينحسر في النصف الثاني من القرن العشرين، الاستعمار الذي رسم الحدود والحواجز ونقاط التفتيش والهويات، كان قد فتح الباب واسعا لصراعات محلية وإقليمية من اجل حدود منتجة للحروب والأزمات لكي تنشغل الدول الصغيرة بأزماتها وتعتمد اقتصاديا وعسكريا على الدول العظمى التي كانت قد خططت لذلك قبل ان تصبح الدول دولا. التطور التكنولوجي والاقتصادي للبلدان الصناعية وصل مرحلة العولمة، والعولمة لم تعد تعني الاندماج الاقتصادي لسكان الكوكب، وانما هي غول افترس كل البلدان الصغيرة واستلب منها القدرة على اتخاذ القرارات المستقلة في السياسة او الاقتصاد او حتى في المعاشرة الزوجية بين السياسيين

وأصحاب المصالح. الدولة القومية استُلبت وأُفرغت من كل محتوياتها الأيديولوجية والسياسية والنفسية، وأصبحت تعتمد في الحماية الاقتصادية والسياسية على القوى التي تقود العولمة... والعولمة باختصار شديد اعادت انتاج الاستعمار الاقتصادي والسياسي والعسكري بأساليب جديدة عبر تغلغل شركاتها العملاقة في نسيج المجتمعات الأقل تطورا، وفي تحالفاتها السياسية وفي هيمنتها التكنولوجية. وإذا كانت سياسة ما قبل العولمة تقوم على مبدا "الحق مع القوة"، فان المبدأ نفسه عاد للواجهة مرة أخرى بوضوح أكبر مع ارباب العولمة والمقرطة (الديمقراطية) الجديدة برفقة شعارات زائفة عن حقوق الانسان وحرية الراي والاعتقاد.

الفصل التاسع

إرتباط الأخلاق بالنية وماهية القصدية

الانحراف والجريمة

Deviance & Crime

الجريمة هي نتاج الترف الاجتماعي
فلاديمير لينين

القصدية intentionality تصور فلسفي يصف توجه ونزوع الوعي أو الفكر نحو موضوع ما، والذي بفضله يصبح الموضوع واقعة داخلية أو معطى للوعي، تنعكس فيه ماهيته وجوهره، بهدف الوصول إلى معرفته. والقصدية ليست فكرة جديدة بحال من الأحوال، كما يشير إليها أصل اسمها نفسه، ففي الفلسفة الإغريقية كانت القصدية تشير إلى «قوة الروح العليا»، كما كان العقل عند الرواقيين حاملاً التوجه والاهتمام. أما في الفلسفة المدرسية (العصور الوسطى)[ر] فقد تمت معالجة القصدية في معرض التمييز بين العلوم النفسية والمنطق، فكانت الموضوعات والظواهر النفسية هي مقصودات أولى للفكر، يحصل عليها بالتوجه نحو الموضوع وإدراكه له مباشرة، أما التفكير في هذه المدركات وذلك برجوع الفكر إلى نفسه، فيسمى بالقصد الثاني وهو موضوع علم المنطق، فالقديس توما الأكويني Aquinas يفهم القصدية أداة للإدراك والوعي حيث يصبح الذهن بإمكانياته الباطنة معقولاً بما يطابق الواقع فيتم استيعاب الموضوع في الفكر على مستوى الحس وفي الشق العقلي. ولتفسير انتقال العقل إلى ما هو عام وكلي يضع أوكام Ockham مفهوم القصدية في إشارة منه إلى توجه الفكر والأفعال والرموز المنطقية والسيكولوجية نحو موضوع ما. أما حديثاً فقد تم استعمال هذا المصطلح عند الألمان مثل فرانتس برنتانو[ر] Brentano وهوسرل[ر] Husserl وكلاهما يرى أن هدف النظرية القصدية وصف وتحليل ارتباط الفكر بموضوع ما؛ للكشف

عن ماهية ذلك الموضوع أو الشيء. ولهذا فإن نظرية هوسرل في القصدية تدعى أحياناً «بالموضوعية».

وفاء ادريس نشأت مثل غيرها من الفتيات، ولكن قدرها ان تكون العنوان الرئيس للصحف العالمية في 27 من كانون الثاني عام 2002 بوصفها أول انثى تفجر نفسها في الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي، كانت في مقتبل الشباب ولو قدر لها ان تدخل الجامعة لكانت من ضمن الذين يقرأون هذا الكتاب. قصتها تبدو بسيطة، كان عليها ان تحمل متفجرات للحدود مع إسرائيل، كما أراد لها مخطط العملية وهو اخوها، وبدلا من ان تنفذ المطلوب فجرت نفسها على اول جندي إسرائيلي صادفته، ثم أعلنت قيادة مجموعة شهداء القدس عن استشهادها. عملها هذا كان بموافقة القيادة السياسية للمجموعة. لماذا حدث ذلك؟ ما الذي جعلها تقوم بهذه العملية "الانتحارية" وتأخذ معها حياة اخرين؟ هل هي مندفعة أيديولوجيا لتشارك في الصراع الفلسطيني- الإسرائيلي؟ والاهم هل هي منحرفة لتقوم بهذا الفعل؟ وإذا كانت كذلك فما هو المعيار؟ يتساءل بالانتاين وروبرتس Ballantine & Roberts (2009). وفاء ادريس نشأت في فلسطين، وكانت قد تزوجت في سن مبكرة ولكنها كانت عاقر، وبسبب ذلك فان المرأة بلا أطفال في المجتمع الفلسطيني ليس لها دور تؤديه، ولا مستقبل لها، ذلك ان أحدا لا يفضل الارتباط بعاقر مطلقة، حيث ان قيمة المرأة في المجتمع الذكوري ترتبط بعفتها وقدرتها على الانجاب، فان لم تتوافر فيها هذه المواصفات فإنها ستكون عبئا على عائلتها. في ظل وضعها اليائس هذا اختارت ان تقوم بعمل انتحاري لكي تتخلص من احباطها وفي الوقت نفسه تجلب لعائلتها الشرف والثروة. الاخريات اللواتي لحقن بها كانت لهن قصص مشابهة.

طبعا تحليل بالانتاين لا يخلو من انحياز او سوء فهم للثقافة العربية، فاذا كانت وفاء تعاني من مشكلات واحباطات، فان ذلك ليس سببا كافيا

للانتحار، ذلك ان الناس جميعا الأغنياء والفقراء في الغرب او في الشرق لا تخلو حياتهم من مشكلات واحباطات ربما أكثر بكثير من قصة الطلاق او عدم الانجاب ولم يدفعهم ذلك للانتحار، وقد أغفل عمدا الأسباب العقائدية والقناعة بان حياة المجتمع اهم من حياة الفرد.

وسؤالنا يقول بالانتاين: هل كانت هذه المرأة منحرفة؟ ام هي شهيدة وتستحق التمجيد الاجتماعي لفعلها هذا، كلا وجهتي النظر تعتمد على الذي يحكم في هذا الموقف. هل هي ضحية ظروفها؟ هل هي عاجزة وتفتقر للمكانة الاجتماعية في مجتمع ذكوري؟ هل هي مدركة تماما لعدالة ما تقوم به؟ هل تتبنى موقفا فكريا او عقائديا يجعلها تسترخص حياتها من اجل الكرامة؟ من هذا المثال المفتوح نقف امام جملة من التعقيدات عندما نتحدث عن الانحراف. في هذا الفصل سنتعرف على المنحرف، وتحت أي ظرف يحدث الانحراف، وبعيون مَنْ يعد الفعل منحرفا.

ما هو الانحراف What is Deviance

الانحراف يعني تلك الأفعال التي لا تتطابق مع المعايير والقيم السائدة في مجتمع معين، والانحراف بهذا المعنى محدد بمعايير الثقافة والزمن، فالعلاقة الجنسية بين اثنين خارج مؤسسة الزواج يعد انحرافا في الثقافة العربية، وهو ليس كذلك في الثقافة الغربية. وحيث تتغير الثقافة تتغير معها معايير الانحراف، فمثلا في المجتمع الغربي كانت المرأة التي تدخن او تضع مساحيق التجميل او تتعاطى المشروبات الكحولية في الأماكن العامة تعد منحرفة، في الوقت الحاضر لم تعد كذلك. في المجتمع العربي الى وقت قريب كان وضع مساحيق التجميل قبل الزواج نوعا من الانحراف واليوم

لم يعد الامر كذلك. Haralambos et al (1991). اغلب الناس يرون الانحراف وكأنه تجاوز على الأخلاق والدين والمعايير السياسية، ولكن مفهوم الانحراف في علم الاجتماع أوسع من ذلك بكثير، فإلى جانب السلوك الجنسي خارج مؤسسة الزواج، او الابتعاد عن القيم الدينية، او التحزب السياسي، هناك الانحرافات عن المعايير المألوفة، مثل التناول المفرط للكحول، تعاطي المخدرات والجنسية المثلية والبغاء والانتحار والتطرف واللصوصية والاحتيال ومثلها كثير، كل هذه تعني الانخراط في سلوك غير طبيعي بمقاييس المجتمع. ليس هناك سلوك منحرف بذاته الا إذا وضع امام محك معايير المجتمع. وكما قلنا في البداية فان المعايير قد تختلف من مجتمع لأخر وقد تتغير عبر الزمن. وعلى هذا الأساس فان التماثل مع توقعات مجتمع معين قد تعني انحراف عن توقعات مجتمع اخر، فمثلا الإرهاب الثوري قد تعده المجتمعات المستقرة انحرافا ولكن أعضاء ومؤيدي الحركات الثورية تعده سلوكا طبيعيا. في كل هذه الحالات يخضع الانحراف لوجهة نظر الأكثرية التي لها قدرة على الانتشار وعلى جعل وجهة نظرها تؤخذ في الحسبان، وهذه الرؤية تنسجم مع نظرية التوصيف labelling theory وهي قريبة الصلة بالتفاعلية الرمزية. ووفقا لوجهة النظر هذه فان التوصيف بالانحراف يصدر عن الجماعة الاجتماعية المهيمنة او التي تتمتع بقوة معيارية ملزمة، وهذا يفسر لنا موقع الأقليات العرقية في المجتمعات التي تحتضنها، حيث تعامل على انها منحرفة وينظر لها بارتياب بسبب انتهاكها معايير الأغلبية العرقية.

منظور الانحراف Deviance Perspective

مفهوم الانحراف في علم الاجتماع قد يختلف نوعا ما عنه في علم النفس على الرغم من ان تفسيراتهما تتداخل أحيانا، فعلم النفس يرى الانحراف من منظور التركيب النفسي للفرد، والمنحرف لذلك هو انسان شاذ، فيما يرى علم الاجتماع الانحراف مثل مخلّفات الطريق في مسيرة المجتمع او نتيجة لتعثر مسيرته، والتداخل مع علم النفس يحدث عندما يخلق المجتمع في مسيرته أناس ذوي شخصيات غريبة او شاذة People with Odd Personalities، وفي كل حال نظريات علم الاجتماع تنظر للانحراف من زاوية:

ـ نماذج الاجماع: والتي تنظر للمجتمع على انه اما ان يكون قاعدة واسعة الانتشار للتوافق حول ما هو صحيح وما هو غير صحيح (الاجماع القيمي) او يكون في حالة انحطاط عندما لا يحصل اجماع قيمي. صورة المجتمع هذه تضع الانحراف شاهدا على ان المجتمع يعمل بشكل منسجم ولكن في مسيرته تظهر بعض اشكال الانحراف عندما يعجز بعض الافراد عن مجاراة المعايير الاجتماعية، او ان المجتمع مريض وتعاني انساقه من خلل في أداء وظائفها، كما هو الحال في العراق بعد الاحتلال الأمريكي الذي يعاني من اضطراب او تعارض في عمل مؤسساته.

ـ نماذج الصراع: والتي ترى المجتمع ينطوي على جماعات بمصالح وقيم مختلفة، ويحتمل ذلك ان بعض الجماعات تستهدف مصالح الجماعات الأخرى، وفي ذلك فان الانحراف لا يبدو مستغربا، انه يظهر وكأنه جزء

من الصراع المستمر بين الجماعات التي تسعى كل منها للمضي في طريقها. Gomm (1989)

الانحراف الجيني Genes & Deviance

في الماضي كانت المناقشات تميل الى اهمال البعد الاجتماعي للانحراف، فالسلوك المنحرف كان ينظر له على انه مسالة فردية خالصة متعلقة بالجينات، وفقا لوجهة النظر هذه فان الافراد الاعتياديين يتوافقون مع التوقعات الاجتماعية، والذين لا يفعلون ليسوا اسوياء، فالشكل غير الطبيعي يعكس عقلا وسلوكا منحرفا. مثل هذا الزعم ينكر الحقيقة التي تقول ليس هناك سلوك مستقل عن التأثيرات الاجتماعية. عدد كبير من الكتاب في القرن التاسع عشر وبعضهم الى اليوم يزعمون ان السلوك يمكن تفسيره في ضود التركيب البيولوجي للفرد. نظرية التطور كانت الرائدة في قبول فكرة التسلسل التطوري من الحيوانات الدنيا الى الانسان. وهناك من مازال يعتقد ان الانسان يحمل عددا كبيرا من الموروثات الحيوانية في تركيبته الجينية. فقد تطور الانسان الأبيض بحسب زعمهم أسرع من الانسان الأسود وان الطفل الابيض وصل مرحلة تطور الأسود البالغ نفسها. بمعنى ان البالغ الاسود لم يتطور ابعد من تطور طفل ابيض في خصائصه وانماط سلوكه (نظرية عنصرية ما زالت قائمة)، هذه الافتراضات تعزز النظرة المعاصرة للانحراف كما يدّعي فالشر وسكوت Fulcher &Schott (1999).

احدى الاتجاهات سيئة السمعة لنظرية التطور المتعلقة بالسلوك المنحرف هي نظرية سيزار لومبروزو Cesare Lombroso (1836-1909)

الذي ربط الجريمة بخصائص منحطة Atavistic أي يرجعها الى سلوك الانسان قبل تطوره الحالي، فالمجرمون برايه لديهم فشل حتمي في التطور البيولوجي يحول بينهم وبين نموهم الكامل بشريا، انهم يظهرون خصائص أقرب الى خصائص القرود، وأحيانا لديهم ملامح وحشية تعطيهم خصائص تشريحية مميزة، مثل التضخم في حجم الفكين، أذرع طويلة، جمجمة سميكة، انف مفلطح وهكذا. هذه الخصائص المنحطة يقول لومبروزو تقودهم لتفضيل أنماط من السلوك تبدو طبيعية بين القرود والوحوش، ولكنها إجرامية في المجتمعات البشرية. هذا النزوع الاجرامي واضح في خصائصهم الشخصية المنحطة كما يزعم لومبروزو، والمجرم كما يعتقد كسول، يحب وضع الوشم على جسده ويميل الى العربدة. كما يعتقد ان 40% من مجموع المجرمين يولدون مجرمين من هذا النوع، انهم يندفعون للجريمة بدافع تركيبهم البيولوجي، اما بقية منتهكي القوانين فان فعلهم الاجرامي يحدث بالصدفة، او بسبب بعض الظروف، ولكنهم لا يملكون خصائص منحطة تجعلهم مجرمين بالولادة. نظرية لومبروزو والافتراضات العرقية المؤيدة لها كانت قد استُبعدت منذ زمن طويل، وعلى الرغم من ذلك ما يزال بعض الناس يرون الجريمة ملازمة للخصائص الفطرية، فالعنف او العدوان مثلا لا ينظر له بوصفه من

مجرم بحسب مواصفات لومبروزو قتل تسعين ضحية من النساء BBC News

خصائص الذكور فقط وانما هو شكل متطرف للخصائص الجينية، حيث ان المجرم العنيف في اجرامه يُعتقد انه يملك جين Y إضافي. وعلى كل حال العلاقة بين التركيب البيولوجي والسلوك الاجتماعي ليست بهذا الوضوح، على الرغم من وجود أساس بيولوجي للسلوك العنيف. وما يزال الجدل قائما حول تأثير العوامل البيولوجية والمواقف الاجتماعية التي تستثير السلوك المنحرف، فسلوك الجندي اثناء الحرب يستلزم العنف، وهذا السلوك يدخل ضمن إطار العمل المنضبط ضد العدو. وهذا العنف يتم التغاضي عنه او تشجيعه وربما يكافئ عليه ويوصف بانه بطولة وشجاعة، ولكن عندما يهاجم أحدهم مشجعي الفريق الخصم في لعبة كرة القدم، فان هذا السلوك يدان ويعد نوعا من التخريب الذي يتعين إيقافه. ليس هناك تفسير بيولوجي للعنف حيث انه يكون في موقف معين عمل بطولي وفي موقف اخر عمل منحرف. هذا طبعا لا يعني ان رد الفعل الاجتماعي المختلف في الموقفين هو الافتراض الراجح في استبعاد التفسير البيولوجي. والحقيقة هي عندما يمتلك بعض الناس ميلا نحو السلوك العنيف فان التفسير البيولوجي يصبح مقنعا، وبالإمكان إيضاح متى وأين يمكن التعبير عن هذا الميل في السلوك الاجتماعي او الاحجام عنه وفقا لردة فعل المجتمع إزاء العنف. ومهما يكن فان تفسير الانحراف يجب ان يفهم عن طريق عمليات التنشئة الاجتماعية، حيث يتعلم الناس إعطاء معنى لسلوكهم، وخلال عملية التأديب المبكرة التي يتمكن فيها الانسان من التمييز بين السلوك المرغوب فيه والسلوك المنحرف.(Fulcher & Scott (1999

السلوك المنحرف والبناء الاجتماعي Deviant Behaviour & Social Structure

على الرغم من الاليات العديدة التي تعزز التماثل conformity فليس هناك مجتمع او جماعة في مجتمع يخلو تماما من بعض أنواع الانحراف عن المعايير السائدة. والسلوك المنحرف يتدرج من الهفوات البسيطة الى الجريمة والخيانة. من وجهة النظر النفسية، أصل السلوك المنحرف يكمن في الشخصية، في الحاجات غير المشبعة، والدوافع غير المسيطر عليها او المشكلات العاطفية. فرويد وجد جذور الانحراف في الغرائز البيولوجية، تلك التي تحاول الانفجار بوجه تحفظات الثقافة، على الرغم من ظهور التوترات اثناء التفاعل بين الحاجات او الدوافع وبين النظام الاجتماعي. النظريات التي توكد فقط على قوة هذه الدوافع من الواضح انها غير كافية لتفسير ما يحدث من خرق لوسائل الضبط الاجتماعي في اوقات معينة. التفسيرات النفسية للسلوك غير التقليدي او السلوك الاجرامي كان عليها ان تتجنب الاعتماد على الدوافع الفطرية وحدها، وعلى كل حال فرويد نفسه اقترح اثناء تحليله لديناميكيات الشخصية، ان الافراد يهملون الاملاءات الثقافية بسبب خصوصية خبراتهم الاجتماعية، واهمال الابوين او المتطلبات المفرطة لهم ، او ممارسة السلطة الغاشمة او الصراع المستمر بين الابوين امام الأطفال قد يقود كل ذلك الى نزوع سيكولوجي لرفض او عدم احترام الاملاءات الثقافية لان السنوات المبكرة ذات أهمية قصوى في تكوين الشخصية، كما ان عدم الانسجام مع المعايير الثقافية يعكس فشل عملية التنشئة الاجتماعية، مثل عدم زرع احترام الاخرين او عدم الالتزام

بالقيم الاجتماعية السائدة، او تشجيع المشاعر العدائية، او حتى نقل السلوك المعادي للهيئة الاجتماعية للأطفال مباشرة.

مصادر التحليل السيكولوجي للانحراف وجذوره في سيرة الشخص تبدو مناسبة وضرورية لفهم الحالات الفردية. فكل مجرم او منحرف او غريب الاطوار او مضاد للمجتمع لديه تاريخ خاص له علاقة بأفعاله، لكن الحقائق حول شخصية الفرد او خبراته لا ينبغي اخذها في الحسبان عند تتبع الاشكال الخاصة للانحراف لدى الجماعات او الفئات الاجتماعية، ذلك لان الجريمة والانحراف ومعدلات الانتحار متذبذبة من سنة لأخرى وحتى من موسم لآخر، فالمقامرة غير المشروعة، عدم الاكتراث بالمعايير الجنسية، والفساد السياسي يزداد او يقل حسب تغير الظروف، وان اغلب حالات الانحراف نادرا ما تتوزع بشكل متساوي في كل أجزاء المجتمع، السرقة والسطو والاعتداء تحدث بشكل متكرر غالبا لدى الطبقة الدنيا، والاختلاس والاحتيال embezzlement لدى الطبقتين الوسطى والعليا. عصابات الاحداث المنحرفين تتواجد في الغالب في الاحياء الحضرية الفقيرة. رجال الطبقة الدنيا يرعون البغايا أكثر من رجال الطبقة الوسطى. حقائق مثل هذه يمكن فقط تفسيرها سيسيولوجيا ولحد ما وفق مبادئ علم النفس الاجتماعي، فمنظور علم الاجتماع انتهاك القوانين والأعراف يتوقف على خصائص الثقافة والمؤسسات الاجتماعية التي يحدث فيها، انها العلاقة بين انسان وانسان اخر، الدور الذي يؤدونه، والمؤسسات والقيم التي تؤثر على شكل ومعدل وتوزيع السلوك المنحرف، ولان الثقافة والمؤسسات الاجتماعية لا يمكن ان تتكامل كليا، مع تعقيدات وتنوع العناصر التي تتداخل فيها، هناك

دائما نزوع نحو اللاتماثل متأصل في الحياة الاجتماعية نفسها. وقوة هذا النزوع نحو الانحراف تختلف باختلاف المؤسسات الاجتماعية، والتي تظهر في الغالب جزئيا وتكون حادة أحيانا في بعض أجزاء المجتمع. انهيار المؤسسات في العراق بعد الغزو الأمريكي، وتدهور منظومة القيم أدت الى ظهور أنواع من الانحرافات لم تكن مألوفة ابدا، مثل العصابات، والعشائر والجنسية المثلية والبغاء العقلي، وسرقة المال العام، كلها امثلة على حدة الانحرافات في المجتمع. المجتمع المفكك ينطوي على ظواهر منحرفة شديدة التنوع، مثل صراع الدور والصراع الثقافي والانفصال بين معاني العقوبات الاجتماعية وأهدافها، واشكال أخرى لعدم التماثل والتناقض. الجماعات والافراد الذين يتعرضون أكثر من غيرهم للضغوط الناشئة عن التفكك المؤسسي، هم أكثر احتمالا لانتهاك المعايير الاجتماعية، واستجاباتهم تعتمد على قوة او ضعف منظومة القيم، والتوقعات والحاجات التي تنبثق من الصعوبات الناتجة عن ظروفهم Chinoy (1965)

الاختيار العقلاني والنظريات التفاعلية Rational Choice &Interaction Theories

لا أحد يولد منحرفا يقول بالانتاين وروبرتس Ballantine &Roberts (2009) فالأفراد يتعلمون الامتثال للقوانين او انتهاكها خلال عمليات التنشئة الاجتماعية، لهذا فان السلوك يكتسب اثناء عملية التفاعل التي تحدث في مراحل الحياة المختلفة. والسؤال لماذا يتعلم بعض الافراد ليصبحوا منحرفين فيما يتعلم اخرون الامتثال للمعايير الاجتماعية؟ **الاختيار العقلاني** يركز على تحليل "الفائدة والثمن" لخيارات الفرد، بمعنى ان الفرد يملك

حرية اختيار الفعل الذي يعتزم القيام به ويحسب حساب الخسارة والربح عند شروعه بالعمل المنحرف، فاذا رجحت كفة الربح في الفعل المنحرف انجرف خارج حدود المسموح به وإذا غلب على تفكيره الخسارة فانه سوف يحجم عنه ويلتزم بالمعايير.. الاتجاه الاخر يستند الى نظرية **"التفاعلية الرمزية"** التي تفترض ان الافراد يتعرضون لفرص الانحراف فاذا انحرفوا فانهم سيكونون امام عقوبات توصيف يوسمون بها من قبل نظرائهم وافراد عائلاتهم ورمزية التوصيف (الوسم) سيكون لها أثر بالغ السوء على حياتهم وعلاقاتهم. فالمجرم الذي يدخل السجن مثلا يصعب عليه الحصول على عمل ويصعب عليه الحصول على زوجة وعلى احترام وتقدير الاخرين. وفقدان التقدير الاجتماعي لوحده كفيل بردع اغلب الناس عن الانحراف. أصحاب الاختيار العقلاني والتفاعلية الرمزية يركزون على القضايا ذات المستوى الصغير Micro level اما نظرية **الضبط الاجتماعي** فإنها تشدد على أهمية امتثال الناس الدائم للمعايير وتجنبهم ارتكاب اعمال منحرفة، فاذا كان الناس أحرارا في كل ما يفعلون، فمن المحتمل انهم يرتكبون اعمالا منحرفة، لهذا فان العيش مع الاخرين او بالقرب منهم يستلزم مراقبة الافراد لسلوكهم للعيش بسلام ولتجنب العقوبات والنواهي الاجتماعية، انها باختصار عملية ضبط اجتماعي.

والسؤال المتكرر في علم الاجتماع هو: كيف يمكن للنظام الاجتماعي ان يأخذ مداه في ظل مجتمع سريع التغير. والجواب الأكثر عمومية هو ان النظام ينتج عن المعايير الاجتماعية التي تعزز النظام والتوقعات، وعندما يفشل الناس في الالتزام بالمعايير، او عندما تكون المعايير ضعيفة او غير

واضحة فان استقرار وديمومة النظام الاجتماعي كله ستكون مهددة، والناس في العادة يتواشجون مع بالمجتمع عبر أربعة عوامل أساسية هي: **الارتباط** Attachment مع الاخرين الذين يحترمون قواعد المجتمع وقيمه، ذلك ان الافراد لا يريدون ان يكونوا موضع رفض من قبل الناس الذين يحترمونهم او الذين يعيشون معهم. - **الالتزام** Commitment بالأنشطة التقليدية (كالمدرسة ومكان العمل) تلك التي لا يريدون تعريضها للخطر **الانغماس** Involvement في الأنشطة التي تجعلهم منشغلين كليا بالأدوار والتوقعات التقليدية التي لا تقبل تعمد الأذى. **الاعتقاد** Belief بالقواعد الاجتماعية للثقافة، والتي يخضعون لها عبر عمليات التنشئة المبكرة والتي تُلقن لهم مع المعتقدات التقليدية

خلاصة Conclusion

على الرغم من ان موضوع الانحراف متعدد الابعاد وينطوي على تعقيدات تفسيرية شديدة التنوع قد تصل الى التعارض، الا انها جميعا تتفق على الاطار العام للانحراف الذي يعني الخروج على المعايير الاجتماعية السائدة، النظريات المبكرة التي يربطها بعض علماء الاجتماع بالحداثة اخذت اتجاهين مختلفين، اتجاه يهتم بردود الفعل الاجتماعية التي تعطى مفهوم الانحراف معنى معياريا مستمد من القواعد الثقافية للمجتمع، وتعزو الفعل المنحرف الي التنشئة الاجتماعية والاضطراب الاجتماعي الذي سماه دوركهايم الانومي او اللامعيارية او التفكك الاجتماعي الذي يعطي فرصة لبعض الافراد للتحرر من المعايير الصارمة او التمرد عليها كما حدث في العراق بعد الاحتلال الأمريكي. والاتجاه الاخر تبنى منطلقات المدرسة

التطورية التي من ضمنها الاتجاه البيولوجي الذي تزعمه لومبروزو والذي يرى ان الانحراف والجريمة له علاقة بالتركيب الجيني للأفراد وان المجرمين لديهم خصائص بيولوجية مميزة، ويدخل ضمن هذا المنظور الاتجاه النفسي الذي يعزو الانحراف الى الدوافع الفطرية او الغرائز مثل غريزة العدوان التي تدفع بعض الناس الى التعبير عن غرائزهم حالما تتوفر الفرصة او تضعف المعايير الاجتماعية. الوظيفية البنائية والتفاعلية الرمزية كانت لهما وجهة نظر تفسيرية تنبثق من طبيعة المجتمع الذي لا يخلو في مسيرته من الانحرافات التي تعود الى تنوع مكوناته وتعارضها والتي تقود الى عملية توازن، فلولا وجود الانحراف والجريمة بزعمهم لما استطعنا معرفة صحة وسلامة المجتمع، والجريمة هنا تعمل عمل النبه لوجود خلل في البناء الاجتماعي او في وظائفه، واهتمت نظرية التوتر المنبثقة عن التيارات الماركسية الجديدة بعملية الصراع بين الذين يملكون كل شيء والذين لا يملكون أي شيء، وهذا الوضع غير المتكافئ يخلق توترا وصراعا من اجل السلطة والقوة ويدفع باتجاه الانحراف. ثم يأتي دور النظريات النسوية التي حمّلت النظام الابوي الذكوري مسؤولية تدني مكانة المرأة واحداث انحرافات نتيجة استغلال المرأة اقتصاديا وجنسيا. اتجاهات ما بعد الحداثة وجهت نقدا لاذعا للتيارات الفكرية التقليدية التي ازدهرت في مرحلة الحداثة وعدّتها قاصرة عن تفسير أسباب الجريمة ودوافعها في المجتمع الحديث الذي شهد تبدلات ليس فقط على مستوى التركيب البنيوي للمجتمعات وانما على نوع الجريمة وشكلها ومعدلاتها، وانكرت عليها عزو الانحراف والجريمة لذوي الياقات الزرقاء، واعتبرت

جرائم ذوي الياقات البيضاء أكثر خطرا على الرغم من انها محاطة بالسلطة والقوة.

وبعد هذا فان الانحراف والجريمة يبقيان مسالة نسبية ذلك ان معايير المجتمع تتبدل وتتطور بتطور المجتمعات فما يبدو انحرافا قبل ربع قرن قد لا يكون كذلك اليوم، كما ان إيجاد نظرية تفسيرية شاملة يصعب تحققها عمليا حتى مع العولمة بسبب التنوع الثقافي وغياب الوحدة البنيوية والمعيارية للمجتمع البشري.

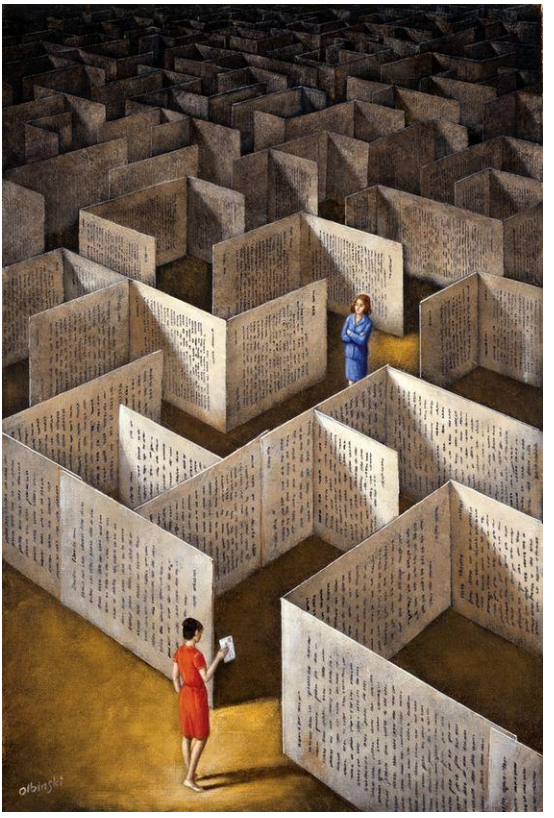

الفصل العاشر

القيم الأخلاقية العليا فى الفلسفة وعلم الإجتماع

التعليم

Education

الطفل الذي اقتصر تعليمه على المدرسة هو طفل لم يتعلم
جورج سانتيانا (فيلسوف امريكي من أصل اسباني)

يندرج هذا البحث ضمن مبحث القيم،وهو يعالج قضية الأخلاق بين الاتجاه الوضعي والمعياري،دراسة تحليلية مقارنة بين ليفي برول وبرجسون،كنموذجين لهذه الموازنة،وفق رؤية إسلامية.وعليه فإن إشكالية بحثنا تنصب حول مسألة الأخلاق،هل هي وضعية تعنى بما هو كائن،أم هي معيارية تعنى بما ينبغي أن يكون عليه الإنسان في سلوكه؟وتندرج ضمن هذه الإشكالية المحورية إشكالات أخرى جزئية كثيرة أهمها:ماهي خصائص ومميزات وأسس الاتجاه الوضعي في الأخلاق؟وكيف عالج ليفي برول مسألة الأخلاق والدين؟وماهي أسس فلسفته الوضعية؟وماهو المنهج الذي ارتضاه لدراسة الظاهرة الأخلاقية؟وفي المقابل:ماهي خصاص ومميزات الاتجاه المعياري في الأخلاق؟وما هي وجهة نظر برجسون في الأخلاق والدين؟وماهو المنهج الذي اعتمده أيضا في دراسة الأخلاق؟دون أن ننسى وجهة نظر الإسلام في الأخلاق؟ لقد ذهب أتباع المدرسة الاجتماعية الفرنسية ومنهم ليفي برول-نموذج هذه الدراسة التي نحن بصددها-إلى اعتبار الأخلاق علما وضعيا يعرض لدراسة العادات والتقاليد والشرائع ونحوها كما تتمثل بالفعل عند جماعة بشرية تعيش في زمان معين ومكان محدد،وتقوم هذه الدراسة على منهج تجريبي استقرائي هو منهج العلوم الطبيعية التي تطمح المدرسة الاجتماعية إلى جعله منهجا للعلوم الاجتماعية كلها،والغرض من ذلك هو التوصل إلى توجيهات تنفع عمليا في رفع مستوى الفرد والمجتمع معا.وقد رفض أصحاب هذا الاتجاه

أن يكون الخير ضرورة عقلية تدرك بالحدس العقلي،وأخضعوا علم الأخلاق للتجربة المطلقة،وأقروا بنسبية الأحكام الأخلاقية.وأنكر ليفي برول وجود علم نظري للأخلاق،من حيث أن العلم لا يمكن أن يكون معياريا من حيث أنه نظري،وهو منهج يضع المشكلة الأخلاقية وضعا جديدا يغير كيانها تغييرا كاملا ،ويسعى إلى هدم التصور التقليدي الفلسفي التأملي(المعياري) لعلم الأخلاق .في حين يرى أصحاب الاتجاه التقليدي أن الأخلاق علم من العلوم المعيارية تدرس الطرق والوسائل التي ينبغي أن تتبع في السلوك،ويرسم المثل العليا والمباديء المطلقة،ويمثل برجسون-النموذج الثاني لهذه الدراسة المقارنة- الاتجاه المثالي في الأخلاق الذي يندرج ضمن الاتجاه المعياري،فالخير الأسمى هو غاية الأخلاق لدى أتباع هذا الاتجاه،وهو يدرس بالعقل بواسطة الحدس،هذا الحدس أو الاستبطان الذي ارتضاه برجسون منهجا في دراسة الأخلاق،بل يعد جوهر فلسفة الديمومة البرجسونية .وقد خلصنا في ختام هذا البحث إلى جملة من النتائج أهمها:أنه لا تزال السيادة للاتجاه المعياري في الأخلاق على الرغم من المحاولات التي بذلها علماء الاجتماع ومن بينهم ليفي برول، في تحويل طبيعة هذا العلم من المعيارية التي تعنى بما ينبغي أن يكون إلى الوصفية التقريرية التي تعنى بما هو كائن.ووجهة نظر الإسلام تتبنى الاتجاه المعياري في الأخلاق،من حيث أن علم الأخلاق يظل دوما علما من العلوم المعيارية التي تكتسي طابعا نظريا وتطبيقيا معا.

توماس ذو التسعة أعوام تلميذ فاشل، فهو غير قادر على القراءة والكتابة، وغير قادر على التعايش مع اقرانه، وبسبب الاحباطات كان يسيء التصرف أحيانا. لقد كان فاشلا منذ ان كان عمره ثلاث سنوات، لكن فشله بدأ قبل ذلك كما يقول ابواه. لقد قالوا له مرارا وتكرارا انه لا يصلح لأي شيء. لاحظ معلموه انه بطيء التعلم وليس له أصدقاء ولهذا فانهم وصفوه بانه فاشل. توماس صدّق ابويه ومعلميه لأنه لم يكن يملك أية حجة يعارض فيها احكامهم. الضربة الموجعة الاولى تلقاها من ابويه والثانية من معلميه والضربة الثالثة قبوله فكرة توصيفه بانه فاشل. كان توماس الطفل في خطر، ذلك انه كان يملك الخصائص التي تجعله فاشلا في المدرسة وفي المجتمع. ربما لم يكن يصلح لأي شيء، وربما يدخل نفسه في مشكلات مع القانون ما لم يتدخل أحد للعناية به وتشجيعه ليدرك انه يمتلك قابليات وان قابلياته ذات قيمة. الاف ربما ملايين مثل توماس تسربوا من المدارس ودخلوا عالم الجريمة او ظلوا على الهامش، لان أحدا لم يكترث بهم. توماس اديسون مثل توماس هذا كان أبكما (سمعه ثقيل) بطيء التعلم وقليل الأصدقاء لدرجة ان المدرسة طردته وارسلت معه رسالة الى امه تقول فيها ان توماس بطيء التعلم وان المدرسة لا تستطيع الاحتفاظ به مع التلاميذ. كانت امه معلمة وعلى درجة من الفطنة، وعندما قرأت الرسالة امامه لاحظ توماس دموعها تنزل بهدوء، سألها توماس بانكسار: ماذا تقول المدرسة؟ قالت تقول المدرسة إنك ولد عبقري والمدرسة ليس لديها معلمون لتدريس العباقرة. سحبته بسرعة من المدرسة وتولت تعليمه في البيت. تذكرها فيما بعد وقال " امي هي التي صنعتني كانت مؤمنة بي" لم يحصل على أي

تعليم رسمي، وعمل بائعا متجولا يبيع الصحف في القطارات. عندما مات اديسون في عمر الرابعة والثمانين كان قد اخترع 1093 اختراعا من اهمها المصباح الذي أضاء العالم، والبطارية التي تحتفظ بالطاقة وغيرها كثير. المدرسة الأولى هي الام والمدرسة لا يمكن ان تعطيك المعرفة ولكنها تعمل على توجيهك وتدلك على الطريق.

في هذا الفصل سنتناول حالة التعليم في العالم، الأطر النظرية للتربية والتعليم والبيئة الاجتماعية للمدرسة.

حالة التعليم في العالم State of the World's Education

كل المجتمعات الحديثة تهتم بتعليم الأطفال عبر نظام التعليم الوطني، وفي اغلبها يكون التعليم مجانيا وإلزاميا لسن معينة، المنظمات العالمية المهتمة بالتعليم صار لها مساهمات مهمة في هذا المجال، مثل اليونيسكو UNESCO (منظمة الأمم المتحدة للثقافة والتربية والعلوم) التي أصبحت المركز العالمي لمناقشة الأفكار التربوية وتطبيقها، وصار بمقدورها تزويد الدول ببرامج تدريب المعلمين، ودليل المناهج، والكتب المقررة، كما انها تقوم بجمع المعلومات الإحصائية عن الإنجازات التربوية في كل انحاء العالم. العديد من الدول تبنت معايير اليونيسكو في مؤسساتها التربوية مثل نموذج السنوات الست في التعليم الابتدائي ونظام السنوات الثلاث للتعليم المتوسط ومثلها للتعليم الثانوي. والتعليم الرسمي هو المعتمد في كل دول العالم.

التعليم الرسمي Formal Education يشمل المدارس الممولة حكوميا ويهدف الى تعليم المناهج المعدّة سلفا والذي توسع بشكل مضطرد في العقود

القليلة الماضية ليشمل غالبية السكان في معظم بلدان العالم، على الرغم من ان الفجوة مازالت واسعة نسبيا بين النخبة والفقراء وبين الذكور والاناث، ولكن هذه الفجوة بدأت تتقلص تدريجيا، فالإناث المسجلات في المرحلة الابتدائية في الوقت الراهن تقريبا مساوية لنسبة الذكور في اغلب بلدان العالم.

في المدرسة الثانوية، عالميا ارتفعت نسبة الاناث من 32% في عام 1950 الى 45% عام 1990 (Boli 2002:311) والاناث دخلن التعليم العالي بنسب تفوق نسب الذكور في عدد كبير من البلدان. التعليم أصبح قضية عالمية، وما اعتبر معرفة جوهرية يتعين تدريسها في المدارس يعتمد بالدرجة الأساس على درجة تطور البلدان والقيم الثقافية والايديولوجيا السياسية الى جانب دليل المعايير العالمية. القادة يعتقدون ان التعليم ضروري للتنمية الاقتصادية ولازدهار النظام السياسي ورفاهية المواطنين. المعيار العالمي للتعليم أثر تأثيرا بالغا في النظم التربوية لدول افريقيا، اسيا، وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط بغض النظر عن النظام السياسي او مستوى الثراء. وفي ذلك كتب بولي Boli (2002:312) يقول "أصبح التعليم عملية اجتماعية عالمية، يعكس ويساعد في خلق المجتمع العالمي الذي يعيش مرحلة التشكل"

جودة التعليم يتم الحكم عليها جزئيا عن طريق نسبة المعلمين الى الطلاب ومعدلات المتعلمين. نسبة المعلمين الى الطلاب تختلف باختلاف تطور البلدان، فهي معلم واحد لكل 13 طالبا في اغلب اقطار اوربا الغربية، معلم واحد لكل 15.8 طالبا، في أمريكا الشمالية، واحد لكل 60 طالبا في كل من

تشاد، الكونغو، مالاوي، موزمبيق وراوندا، واحد لكل 72 طالبا في اثيوبيا. وبيانات الجدول 10.1 توضح ان أضعف نسب التعلم هي في البلدان العربية، ولاسيما الاناث، واعلى النسب هي للدول المتحولة مثل سنغافورة وماليزيا وتايوان وكوريا. العرب في اخر الركب في التعليم وسنبقى اخر الركب في كل مجالات الحياة ما لم نعط التعليم أولوية في التمويل والإدارة والنوعية. التعليم الواسع انتشر بسرعة عبر العالم، بتأثير سهولة الاتصالات والنقل. والعولمة تستمر في جعل بلدان العالم أكثر انفتاحا بعضها على بعض، والاقطار المتطورة اقتصاديا لها تأثير بالغ الأثر على مستويات واشكال التعليم في العالم كله. فالمناهج التربوية الوطنية في البلدان الفقيرة تشبه النموذج الاستعماري التقليدي في التعليم الواسع، شكلا ومضمونا مع تغييرات طفيفة تتناسب مع الثقافات المحلية، فالرياضيات والعلوم مثلا تدرّس في المدارس في كل انحاء العالم منذ الحرب العالمية الثانية حتى الان، على الرغم من ان الدول المتقدمة أدخلت العلوم بجودة اعلى ونوعية قابلة لمواكبة التطورات مقارنة بالبلدان الأخرى التي ماتزال في مرحلة المحاولة والخطأ.

نظريات المستوى الصغير في التعليم Micro-level theories

على مستوى التحليل الصغير اهتم علم الاجتماع بالبحث عن التفاعل داخل البيئة المدرسية على المستويات كافة، بما في ذلك التفاعل بين الطلاب داخل الفصل وخارجه، وبين الطلاب والمعلمين

التفاعل الاجتماعي داخل الفصل: التفاعل داخل الفصل يقع ضمن الاهتمامات النظرية للتفاعلية -الرمزية التي تأخذ في الحسبان الرموز التي

تؤثر على الإحساس بالذات او شكل التراتب الاجتماعي. الأطفال لديهم القدرة على خلق الفوارق بين الافراد والجماعات في درجة التأثر والتأثير. الشخصيات والجماعات الأكثر شعبية بين الطلاب هي القضية الرئيسة لأغلب الطلاب لاسيما في الدراسة المتوسطة والى حد ما الثانوية. والشخصية الشعبية هي الشخصية المحبوبة التي يعرفها الجميع ولها تأثير مباشر على الاقران. والطالب ربما يزيد شعبيته بان يكون جذابا او يمثل المدرسة في المنافسات الرياضية او يأخذ دور القائد في مجموعة او عدة مجموعات. الصعوبة هي ان هذه المواقع قليلة جدا وغالبا تقود الى التنافس مما تستلزم خسارة بعض الافراد في هذه المنافسات، في أمريكا الخاسرون في المنافسات هم المنحدرون من الخلفيات المتدنية اقتصاديا، الذين لا يستطيعون مجاراة المنحدرين من خلفيات غنية في شراء الألبسة المميزة غالية الثمن او التدريب في المراكز الرياضية والترفيهية او المشاركة في الفعاليات الكشفية. الرابحون في هذه المنافسات يمتلكون القدرة على الدخول الى عالم الماديات والمصادر الرمزية (مثل الملابس والاحذية ذات الماركات العالمية) التي تجعلهم أوضح ظهورا وارفع مكانة بين نظرائهم في المدرسة وربما تيسر لهم الحصول على موقع الصدارة وتنمّي لديهم مهارات القيادة التي تشعرهم بتقدير عالي للذات. Eder et al (1995) الأبحاث وجدت ان الاناث أكثر معاناة من الذكور في تقدير الذات self-esteem. والشعور بالذات مسالة شخصية بالمقام الأول، ولكنها مسالة مهمة جدا، فالطلاب بين سن السادسة والثامنة عشر الذين ينفقون اغلب وقتهم في المدرسة، صورة الذات لديهم تتأثر بشدة بمكانة أي منهم داخل

جماعة الاقران والتي تنعكس في النهاية على مستوى الأداء والتحصيل العلمي والذكاء والمقبولية.

نظرية الاختيار العقلاني Rational Choice Theory

هذه النظرية تركز على تحليل ثنائية الفائدة/التكلفة في العلاقات الاجتماعية، والطلاب مثل غيرهم من فئات المجتمع يأخذون في الحسبان التكلفة، باي معنى من المعاني، المال، العلاقات، تقدير الذات او أي عامل اخر، يأخذون في الاعتبار الفائدة أيضا، فاذا كانت الفائدة تفوق التكلفة فانهم سيقررون التصرف بطريقة معينة، ولكن إذا كانت التكلفة تفوق الفائدة فعلى الاغلب يبحثون عن اتجاه اخر للفعل. والسؤال هو كيف تؤثر معادلة الفائدة/ التكلفة على القرارات في التعليم. الطلاب الذين يفكرون بترك المدرسة يذهبون نحو تحليل التكلفة التي سيتحملونها نتيجة هذا الفعل، فالقرار هنا يمكن ان يبنى على تقدير الذات المتدني، وينطبق الامر على المعلم الذي يختار البقاء او الانسحاب من مهنة التعليم بقرار عقلاني يأخذ في الاعتبار الربح والخسارة. طبعا لدينا الوضع مختلف بعض الشيء فالمعلم لا يستقيل ولا يترك العمل الا بالموت او التقاعد، لان الفرص المتاحة امامه معدومة، لكن معلم في أمريكا او إنكلترا لديه بدائل كثيرة وبمقدوره الحصول على عمل اخر في أي وقت يشاء. ولو توفرت الخيارات نفسها لمعلمينا لهجر نصفهم هذه المهنة التي لم يعد المعلم فيها يحظى بالاحترام لا من الطلاب ولا من ذويهم كما ان الدخل الذي يحصل عليه ليس مغريا.

النظريات الواسعة Macro-level Theories أينما تحدث وحيثما تكون المضامين فان التعليم يزود الافراد بالمعلومات والمهارات التي يعدها

المجتمع مهمة من اجل تهيئتهم للعمل والعيش في المجتمع. في بعض القرى الهندية يتجمع الأطفال في سقيفة لدرسهم الصباحي قبل ذهابهم للحقول للمساعدة في رعي القطعان، معدل سنوات التعليم في الهند ثمان سنوات (UNESCO 2005) وفي بعض المناطق الريفية، تعلم القراءة والكتابة يعد ضروريا او ممكنا لاسيما للإناث. أطفال القرية يذهبون للمدرسة والواحهم في أيديهم، ولكن عندما تحتاج اسرهم المساعدة في الحقول او في رعاية الصغار فان الولد الأكبر غالبا يبقى في البيت، على الرغم من ان السنوات الأولى في المدرسة تعد الزامية بالقانون، ولكن ليس كل الناس يحصلون على التعليم. تعلُم كيف يبقى الانسان على قيد الحياة، وكيف يزرع الحبوب، وكيف يهتم بالأسرة ويصنع الملابس مهارات أساسية للبقاء تأتي قبل التعليم، وهذه تأخذ كل جهد ووقت الانسان. والتعليم في القرى الهندية بهذه الصورة له ما يماثله في العراق وفي اغلب بلدان العالم الثالث.

التعليم الأساسي هدف ولكنه ليس من السهل تحقيقه حتى في كثير من المناطق الحضرية في العالم النامي. والتعليم الواسع لم يكن متاحا ولم يكن هدفا حتى بداية القرن العشرين، حيث أدرك أصحاب القرار في حينها ان التعليم ضروري من اجل التنمية الاقتصادية والمشاركة السياسية.

خلاصة Conclusion

هل أصبح التعليم التقليدي في خطر فعلا ام ان مثل هذه المخاوف موجة عابرة ستزول حتما في المستقبل مثل كثير من الموجات المؤقتة؟ في هذا الفصل نوقش التعليم من منظور علم الاجتماع فقط، وربما يكون للتربويون والفلاسفة واهل علم النفس راي اخر. المدرسة تؤدي جملة من الوظائف

التي تُعد الانسان للحياة الى جانب الاسرة وجماعة الاقران والجيرة والمجتمع المحلي، ولكن التعليم داخل جدران المدرسة والجامعة أصبح في خطر، والتهديد الذي يواجهه ليس تهديدا وهميا او غامضا او مجهول المصدر، لقد غزت البرامج التعليمية كل جوانب الحياة اليومية، فاذا اردت ان تعرف سبب الصداع النصفي الذي يأتيك بين حين واخر فليس عليك الا ان تضغط زر البحث فيأتيك التشخيص وحتى العلاج، وربما يؤدي ذلك في المستقبل المنظور الى الاستغناء عن الطبيب الا في الحالات الجراحية او الحالات الملتبسة. وإذا اردت معرفة استبدال ماسحات الزجاج لسيارتك او معالجة الصدأ فيها او استبدال جزء من اجزاءها فمن السهل إيجاد الإجابة عبر ماكينة البحث search engine في YouTube او Goggle وإذا اردت ان تأخذ درسا في الإحصاء وتطبيقاته، ستجد المعلومات جاهزة بالصوت والصورة على YouTube، فما حاجتنا للمدرسة والجامعة إذا كان الانترنيت يغنينا عن الجلوس ساعات طويلة امام بعض المعلمين الذين لا يحسنون تعليمنا العلم او المعرفة التي نحب، بينما يوفر لنا الانترنيت أكفأ المعلمين والأساتذة وبدون مقابل. الواقع ان التعليم التقليدي في خطر حقيقي، والمدرسة او الجامعة الافتراضية قد تعمل على استلاب قوة التعليم المدرسي والجامعي لصالح التعليم في العالم الافتراضي، لاسيما وان الشركات العملاقة التي أصبحت تهيمن على اغلب اقتصادات الدول المتقدمة والنامية على السواء تعمل على تشجيع الانتساب للعالم الافتراضي للتدريب والتعلم ليس فقط من اجل تقليل التكاليف وانما أيضا لاستثمار الوقت، وتخطى عتبة الروتين البيروقراطي في المؤسسات التعليمية، ثم

الحصول على تعليم عالي المستوى بإدارة اكفأ الأساتذة وفي كل الاختصاصات العلمية والمعرفية. التعليم التقليدي قد ينقرض في المستقبل، فاذا حدث ذلك فان شكل وتركيب ووظائف المجتمع كلها ستتبدل، ولا أحد يستطيع التكهن بنوع او شكل او هيئة مجتمع المستقبل. فهل سيتحول الناس الى ما يشبه الآلات التي تتحرك بأجهزة التحكم عن بعد؟

الفصل الحادي عشر

مذهبا نيشه والذرائعية

التحضر والحضرية

Urbanization & Urbanism

يبدأ التحضر مع انتقال الانسان من الكهف والغابة
الى القرميد والخزف

شوبنهاور وكيركجارد ونيتشه والذرائعية

من المُمكن بلا شك وضع نظم لاكان الثلاثة في صورة سرد تاريخي، سرد يتتبع في مجاز ماركسي سوقي صُعودَ وأُفُولَ نَجْم الحضارة البرجوازية. وسيُمثِّل هتشسون وهيوم والنظام الخيالي لحظة تفاؤل وثقة بالنفس بارزة؛ حيث لا يزال على الطبقة الوسطى، التي لا تزال متفائلة وتغمرها روح البهجة، أن تسجل كاملًا النتائج الموحشة لأنشطتها، وتستمتع بمشاعرها الإنسانية، وتظلَّ قادرة على تصور المجتمع باعتباره مجتمعًا قائمًا على الروابط الشخصية. أما ما تلا ذلك مع كانط وهيجل فهو النظام الرمزي الأكثر تجريدًا وتنظيمًا وموضوعية، وهو نظام ـــ للمفارقة ـــ اجتماعي وغير اجتماعي في نفس الوقت. وهذا هو ما يمثل أوج ثقافة الطبقة الوسطى، بأسسها الليبرالية والنفعية العظيمة، وحماسها للمساواة والخير الإنساني، ودعمها الباسل لحقوق الإنسان والحريات الفردية.

صورة العالم في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين تبدو قاتمة، بسبب التكدس الحضري، فلأول مرة في التاريخ أكثر من ثلاثة مليارات انسان (نصف سكان العالم تقريبا) يعيشون في المدن، اغلبهم في تكتلات حضرية عملاقة، ينطوي كل منها على عدة ملايين من البشر. في كل سنة 30-20

مليون انسان في كل انحاء العالم يتركون قراهم ويتجهون نحو المدن. هذه الحركة السكانية ادت الى تكدس سكان العالم بطريقة غير مسبوقة. اغلب هؤلاء يعيشون في مدن مليونية عملاقة. الغالبية العظمى لهذه المدن في البلدان الأقل تطورا (البلدان النامية). الملاحظ انه لا توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين الحجم والقوة، ذلك ان ساو باولو أكبر حجما من نيويورك ولكنها لا تملك قوة التأثير التي تملكها نيويورك، وبومبي أكبر حجما من لوس انجلس ولكنها لا تساويها في القوة، كما ان لندن وواشنطن أصغر حجما من طوكيو او مكسيكو ستي ولكنهما الأكثر قوة سياسيا وماليا.

من الواضح ان النمو في حجم السكان لا يصلح استخدامه كمعيار وحيد، ذلك ان التعاريف المتفق عليها للمدينة تأخذ في الاعتبار الحجم زائدا الكثافة السكانية، ولكن العوامل التي يأخذها علماء الاجتماع في الحسبان اكثر من غيرها، هي الثقافات والعقليات Cultures & Mentalities ومع ذلك فان مشكلة النمو السكاني لا يمكن اهمالها، بعض المدن تبدو فعلا مكتظة بالسكان ومحصورة في بقعة جغرافية صغيرة، والفقراء الذين يتكدسون في مراكز المدن ويشكلون احياء خاصة Ghettos يتعرضون لمخاطر كبيرة تهدد حياتهم، وممتلكاتهم وراحتهم النفسية، من جهة أخرى نمو المدن له جوانب إيجابية، وحتى في العالم القديم كانت المدن تعد قمة المدنية او الحضارة واهم مراكز التجارة، وفي العالم الصناعي الحديث، توفر المدن السكن الملائم لأعداد هائلة من العمال الذين تحتاجهم المصانع، الى جانب المحلات التجارية والخدمات الأخرى التي تديم بقاؤها. واليوم فان مدن ما بعد الحداثة مثل نيويورك ولندن وباريس وروما، توفر خدمات مالية

وإعلامية واتصالات وسياحة وترفيه وتجارة تجزئة مزدهرة، تعد أكثر أهمية من المدن التي نشأت بتأثير التصنيع، فمدن ما بعد الحداثة تعلن عن نفسها كمدن استهلاكية مبهرة وتعمل بشكل دائم على تغيير عرض الفرص في التفكير والرؤية وتقديم الجديد. لوس انجلس مثلا توصف بانها المدينة المثالية لمدن ما بعد الحداثة العملاقة، ولكنها ليست المدينة العالمية الوحيدة التي تقدم نفسها على انها مصنع الاحلام Dream Factory، وملامح الجاذبية التي تتمتع بها مدن ما بعد الحداثة تظهر في قدرتها على تقديم خيارات أكثر لأسلوب حياة الافراد، وهذه في الواقع ليست قضية تهم الفرد وحده، انها خيارات تخضع بقوة لاتجاه الثقافة العام لسكان المدينة، وفي نفس الوقت تخلق مشكلات جديدة. Alexander & Thompson (2008)

التحضر والحضرية والنمو الحضري

Urban Growth, Urbanization & Urbanism

قد لا يبدو الاختلاف كبيرا بين التحضر والحضرية والنمو الحضري ولكن التمييز بينها ضروريٌ من اجل إدراك المعنى المراد من كل منهم في السياق. فالنمو الحضري urban growth يعني الرقم المطلق للسكان الذين يسكنون المناطق الحضرية ويدخل ضمن ذلك التحول من الريف الى المدينة، وازدياد حجم سكان المدينة الى جانب الزيادة الطبيعية التي تحدث بفعل التوازن بين عدد الولادات وعدد الوفيات. والتحضر urbanization يعني نسبة ساكني المدن الى عدد السكان. وعلى اية حال، فان التحضر والنمو الحضري يستخدمان بشكل مترادف وكلاهما متعلق بالجانب الايكولوجي، بمعني ادق كلاهما يرتبط بالسكنى داخل المدينة، أي بالمكان.

وفي عالم اليوم أصبحت الحلول الرقمية والبناء التحتي الذكي من سمات الحياة الحضرية. اما الحضرية urbanism فإنها تعني طريقة حياة، أي انها تتحول من مجرد مكان للسكنى الى مكان للهوية، فينتسب لها الافراد كما كانوا ينتسبون لعشائرهم، فيقال "سمير بغدادي، وسامي الموصلي، واحسان كركوكلي" وهكذا تكون المدينة هوية لقاطنيها. لويس ويرث (1938) كتب يقول من اللازم التوقف عن اعتبار الحضرية مجرد هوية، ولا بد من الذهاب ابعد من خط الحدود الاعتباطي للحضرية وان يؤخذ في الاعتبار التطور التكنولوجي في النقل والاتصالات، الى جانب العلاقات بين سكان المدينة الاصليون والمهاجرون التي أصبحت ميزة خاصة لها كما سنرى في السياق.

الفرد والمجتمع Individual & Society

وفقا لسجلات مكتب الإحصاء الفدرالي الأمريكي للعام 2000، فان نسبة النساء في عمر من 20 الى 24 سنة اللواتي لم يتزوجن تضاعفت من 36% الى 73% في العقود الثلاثة الأخيرة، وللأعمار من 30 الى 34 تضاعفت ثلاث مرات من 6% الى 22% بعض هذه النسوة وليس كلهم أمهات وحيدات Single Parents وهؤلاء يشكلن مجموعة ذات نسبة نمو عالية جدا. الحقبة نفسها شهدت ارتفاعا كبيرا في نسبة سكان المنزل Households، وهي ان يعيش الأشخاص في منزل لا يرتبطون فيه برابطة عائلية (لا رابطة دم ولا مصاهرة). Hobbs & Stoops (2002). الواقع ان السبب الرئيس لهذا التغير الديموغرافي في التركيب العائلي يعزى بالدرجة الأولى لارتفاع مستوى التعليم والطموح المهني

للمرأة الشابة في المجتمعات الغنية، فالمرأة اليوم قادرة أكثر من أي وقت مضى على اعالة نفسها، وعدد كبير من النساء الشابات يبتعدن عن الزواج والانجاب المبكر، او يعملن على تأجيلها لفترات لاحقة في دورة الحياة. وبما ان دورة الحياة قد تمتد لعمر الثمانين فان المرأة يمكنها ان تتزوج في عمر مبكر وتستمر لفترات طويلة لكن الغالبية يعملن على تأجيل الزواج للاستمتاع بحقبة الشباب من دون التزامات عائلية، وهذا الخيار لا يوفر ظروفا مثالية لتكوين اسرة.

الملامح المميزة لمدن ما بعد الحداثة تعكس التكدس الجغرافي للأفراد المتماثلين نوعيا في مناطق معينة داخل المدينة، مثل تجمعات الشباب العزاب في مراكز المدن. مثل هذه التجمعات كانت في المدن المبكرة تشمل الأشخاص المتماثلين مهنيا او طبقيا او عرقيا، وهذه النزعة يمكن ملاحظتها في مدن اليوم أيضا، لاسيما بالنسبة للجماعات العرقية التي تضخمت بالمهاجرين الجدد. مدينة ما بعد الحداثة لاسيما المدينة المليونية العملاقة غنية بالتباينات، فالضواحي ربما لا تزال متميزة بقاطنيها من ذوي الدخول العالية، ولكن المناطق الحضرية مختلفة بدرجة عالية. Watters (2001)

القبلية الجديدة Neotribalism

القبلية (العشائرية) الجديدة Neotribalism تعد اهم سمات مدن ما بعد الحداثة حيث يتجمع السكان في مجموعات ثقافية متمايزة، يقوم بعضها على العرق او اللغة او الدين، لاسيما المناطق الحضرية التي يقصدها المهاجرون الجدد، والفئات ذات المستوى الاقتصادي المنخفض التي تشكل احياء الغيتو Ghetto (احياء اليهود) ذات الأعراق المتشابهة، ومع ذلك

فهناك فئات ثقافية أخرى تتشكل بشكل متزايد. والشباب العزاب الذين لا يحضون بدعم عائلي مع أولئك الذين لديهم دعم من جماعات مماثلة لهم في الاتجاهات يرتبطون تقريبا بعلاقات قبلية في طبيعتها، وهؤلاء وان كانوا مختلفين في خلفياتهم الاجتماعية والعرقية والثقافية فانهم بالتقادم يتماسكون، عن طريق التشارك في الطعام والسفر والعمل وتبادل الهدايا والخدمات ومساعدة بعضهم في نقل الأثاث وتجديد السكن مما يجعلهم متقاربين أكثر وكأنهم من قبيلة واحدة. وتعبير القبيلة هنا يطلق مجازا للتعبير عن الانتماء الثقافي للجماعة وأسلوب حياتها بغض النظر عن الخلفيات الاجتماعية والعرقية للأفراد.

القبلية الجديدة بمنظور علماء الاجتماع هي الخصائص التي تشكل العلاقات الاجتماعية في مرحلة ما بعد الحداثة، ومن امثلتها الأخرى تجمعات جماعات الجنسية المثلية، حيث انهم يجدون في مدن مثل سان فرانسيسكو، نيويورك ولندن هويتهم الثقافية التي يمكنهم الإعلان عنها بدون تحفظات، وتأكيدهم على اختيار طريقة الحياة المناسبة لهم، ولكن التعايش بين مختلف الجماعات الثقافية لا يخلو من بعض التوترات في مدن ما بعد الحداثة، ذلك ان الرأي العام مثلا ينظر للمثليين على انهم السبب في انتشار وباء الايدز AIDS وذلك من شانه ان يقدح شرارة العدائية ضدهم، كما ان الهجمات الإرهابية التي تنسب للمسلمين هي الأخرى جعلت كل مسلم موضع شبهة.

عبر التاريخ كانت المدينة وجهة الافراد الباحثين عن حياة أفضل، وهي موضع احلامهم وكوابيسهم في ان واحد، فيها امل وخوف، مكان مثالي ومصدر للبؤس. المدن القديمة نشأت كمراكز دينية، حيث كان الكهنة وذوي

السلطة يهيمنون على الفلاحين في القرى المحيطة ويأخذون منهم الفائض الزراعي بالترهيب او الترغيب، وعندما بدأوا ببناء المراقد المقدسة البسيطة وجدوا فيها سلطة غير محدودة سرعان مما دفعتهم للتوسع في بناء مراكز عبادة أكثر تعقيدا من النواحي المورفولوجية والوظيفية، فبنوا المعابد والاهرامات والقصور والمحاكم. هذه الأصول المقدسة مازالت شاخصة في مدينة مثل القدس، وهي مدينة كانت منذ القدم مكانا مقدسا لليهود والنصارى والمسلمين. والواقع ان القدس ليست المدينة المقدسة الوحيدة هناك مدن أخرى كثيرة لها قدسية خاصة عند مؤيديها، كما ان مدن ما بعد الحداثة تنطوي في داخلها على شواهد رمزية مقدسة، وهي حتى قبل بناءها كانت تبنى أولا في عقل المخططين والمعماريين والمستثمرين الذين يقومون بتجسيد أفكارهم التي لا تخلو من القداسة او الرمزية التي تعني كثيرا للسكان والزائرين، وكانوا يستطيعون اشعال الخيال الشعبي العدائي عندما يرمزون للانقسام، واللامساواة والمهددات العقائدية، وفي ذلك تصبح المدينة كابوسا للناس، فالمساجد في نيوزيلندا وبعض المدن الغربية كانت هدفا لهجمات إرهابية لأنها كانت تمثل رمزا من رموز "الإرهاب الإسلامي" على حد زعمهم. الارهابيون الذين هاجموا المراكز الإسلامية ليسوا فقراء ولا ينقصهم التعليم ولكنهم يستجيبون للأعلام المضلل الذي خلق من الإسلام عدوا وهميا. Friedland & Hecht (1996)

نمو المدن The Growth of Cities

أهمية المدينة لعلم الاجتماع تكمن في حقيقة انها توفر مختبرا لدراسة الثقافات والعلاقات الاجتماعية المتنوعة، فمثلا دراسات نمو المدن قدمت

لنا صورة نظيفة عن العوامل المادية المفضلة لطرز البناء والتوزيع السكاني للمكان والتنوع الثقافي والمهني. والواقع ان لعملية التحضر تاريخ طويل، وكل مرحلة لها صلة وثيقة بالعوامل الاقتصادية والسياسية والجغرافية، العامل الأول المهم هو زيادة الإنتاج الزراعي، الذي حرر سكان الحواضر من البقاء في الحقول، وبحلول القرن الرابع 4000 B.C.E. قبل الميلاد كان الهلال الخصيب بين دجلة والفرات قادرا على انتاج فائض غذائي لإطعام اوائل المدن الكبيرة، ومثلها في حوض نهر الهند Indus River الذي يعرف اليوم بباكستان، وكذلك في حوض النيل بحلول منتصف القرن الثاني قبل الميلاد.2500-1500 B.C.E وفي اوربا بدأت الحياة الحضرية في اليونان القديمة بحدود النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد .1800 B.C.E وفي الحقبة 500-400 B.C.E بدا العصر الذهبي لدويلات المدن، مثل أثينا، التي أصبحت على قدر من الشهرة كمكان لإنتاج الفلسفة والفن. وفي مطلع القرن الأول الميلادي نهضت روما كإمبراطورية لتكون أعظم مكان لنمو الحياة الحضرية، وهي حقبة امتدت لأربعة قرون لاحقة، اعقبتها حقبة مظلمة استمرت 600 سنة، ولم تستعد المدن الاوربية مكانتها حتى القرن الحادي عشر الميلادي، حيث بدأت الحياة تدب فيها من جديد وتدخل في ميدان التجارة العالمية، فقامت مدن تجارية مهمة مثل لندن وباريس وفلورنسا وفينيسيا. والى جانب الطبقة التجارية كانت المدن المزدهرة حديثا تنطوي على عمالة واسعة في قطاعات مهنية حيوية مثل صناعة الجلود، والنجارة، والحدادة

والمجوهرات، فيما عملت هذه المدن على تهميش بعض الناس مثل اليهود الذين حصروا في احياء خاصة Ghettos.

في النصف الثاني من القرن الثامن عشر أُولى المدن الصناعية بدأت بالنمو في بريطانيا ثم تبعتها اوربا وامريكا. مدينة مانشستر البريطانية يمكن اعتبارها اول مدينة صناعية رئيسية، حيث ازداد عدد سكانها من عشرة الاف نسمة الى أكثر من مئة ألف في عام 1840، وفي عام 1844 كتب فردريك انجلز وصفا دقيقا لظروف العمل القاسية التي كانت تواجهها الطبقة العاملة في مانشستر، بقوله "ان المائتي بيت في مانشستر القديمة كان قد هجرها سكانها منذ زمن، لتكون ملاذا لأسراب العمال الذين قدموا اليها من الريف الإنكليزي والريف الأيرلندي. ولقد تم بناء كل سنتيمتر بين هذه البيوت لتكون سقفا للأكداس الهائلة من العمال الفقراء الذين كانوا يدفعون بدلات ايجار باهظة في مساكن لا تصلح لسكنى البشر والذين استغلوا استغلالا بشعا، فيما أصبح مالكي هذه المساكن اثرياء على حساب صحة وجوع العمال" Tucker (1978:584). في أمريكا كانت ظروف النمو الحضري مشابهة لما حدث في اوربا في القرن التاسع عشر. اول مدينة مستعمرة كانت أمستردام الجديدة التي أصبحت تعرف فيما بعد نيويورك كانت قد أنشئت في عام 1630 وكانت تختلف قليلا عن قرى القرون الوسطى الاوربية. في النصف الأول من القرن التاسع عشر استُحدث فيها نظاما جديدا للنقل والصناعة قاد الى التوسع الحضري وظهرت للوجود مدنا صناعية مثل بفلو، كليفلاند وديترويت. النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد نشوء المدن المليونية الرئيسة كنتيجة لموجات الهجرة الواسعة

باتجاه المدن الصناعية مثل نيويورك وشيكاغو اللتين تجاوز عدد سكانهما المليون نسمة في نهاية القرن. وبالتدريج نزح الأغنياء من مراكز المدن الى الضواحي، لهذا اتسعت المدن باتجاه الحزام المحيط. وبمنتصف القرن العشرين حركة اللامركزية الحضرية كانت تمضي قدما. الطبقة الوسطى نزحت نحو الضواحي وصارت الضواحي تتمتع بخدماتها المستقلة مثل المحلات التجارية الكبرى والمراكز الصحية، وشبكة المواصلات، لذلك انتفت حاجة سكان الضواحي لمراكز المدن. اما مراكز المدن فقد أصبحت تعج بالمشكلات الاجتماعية، مثل الفقر، والازدحام والتكدس البشري، والمدارس السيئة والجرائم. في السبعينات من القرن الماضي، صار اغلب الأمريكيون يعيشون في الضواحي ولاسيما الأغنياء تاركين مراكز المدن تعاني من نقص في الموارد. وبسبب ذلك حاولت الحكومة الفدرالية تطوير اليات تجديد المراكز الحضرية لوقف التدهور والتآكل الحضري، لكن النتائج لم تكن متوازنة، حيث ان المساعدة في بناء منازل قليلة الكلفة لم تكن الحل الأمثل من دون توفير فرص عمل مناسبة. المدن في شمال شرق ووسط غرب الولايات المتحدة والتي كانت تسمى "الحزام الأبيض" Snowbelt فقدت بريقها الصناعي التقليدي وبدأت تنحط وتحولت من حزام ابيض الى حزام صدئ، وتحولت القوى العاملة الى الجنوب والغرب حيث كانت مدن "الحزام الشمسي" Sun-belt تجدد نفسها. التحول من عصر الصناعة الى عصر المعلومات غيّر ملامح التطور الاقتصادي، ولكن المدن التي اكلها الصدأ لم تتغير كثيرا، وبدلا من ذلك ازدهرت مدننا

أخرى كانت قادرة على التكيف مع عصر ما بعد الصناعة والعولمة.
Alexander & Thompson (2008)

خلاصة: Conclusion

اعطى علم الاجتماع المعاصر أهمية قصوى لرموز وثقافة المدينة في مجتمع ما بعد الحداثة، ولم يهمل الحقيقة المتعلقة بحركة السكان، تلك الحقيقة التي كانت تضع موضوع السكان في قلب اهتمامات علم الاجتماع ولازالت ومن المحتمل ان تبقى كذلك في المستقبل، فمن دوركهايم الى لويس ويرث، ظلت الكثافة النسبية لسكان المدن العامل الأكثر حيوية في المدن الحديثة الى جانب العدد واللاتجانس. وإذا كانت المدينة قد نشأت لأغراض دينية وتجارية فان الرموز الثقافية والعلاقات الاجتماعية ومستوى الخدمات التي خلقتها كفيلة بالحفاظ عليها من التآكل كمكان لأحلام واماني البشر المحيطين بها، الساعين لتحسن ظروف حياتهم المادية والخدمية. مدن اليوم مازالت كما كانت منذ نشأتها جاذبة لهجرات واسعة من الأرياف. لقد أدت عمليات النزوح المتواصلة الى خلق مدن مليونية عملاقة تستوعب اكداسا هائلة من البشر. وعلى الرغم من ان المدينة كانت الى وقت قريب تعمل على صهر المهاجرين الجدد في ثقافة المدينة، الا ان مدنا مليونية كبيرة مثل بغداد والقاهرة ومكسيكو أصبحت متريّفة بسبب طغيان المهاجرين الريفيين عليها. وبسبب ذلك نقل الريفيون قيمهم وعاداتهم الى قلب المدن وقلبوا المعادلة راسا على عقب، حيث أصبحت القيم والعادات الريفية هي السائدة بعد ان هجرها سكانها الحضريون الاصليون واتجهوا نحو الضواحي. حتى المدن الاوربية والأمريكية المتعددة الاجناس

التي لها تاريخ حضري طويل، أصبحت مراكزها تعج بالمهاجرين فيما اتجه الأغنياء صوب الضواحي. وإذا كان نصف سكان العالم يعيشون في مراكز حضرية فان المدن التي بدأت تتضخم بشكل غير مسبوق تعاني من ضعف قدرتها على توفير السكن والعمل والخدمات للأعداد المتزايدة للوافدين الجدد. المدن الحديثة المتعددة الأعراق التي دخلت مرحلة العولمة خسرت وظيفتها التقليدية في الاندماج الاجتماعي لأفرادها بسبب التطور التكنولوجي الذي ساهم في خلق ثقافات متعددة غير قابلة للإذابة في ثقافة المدينة، فالأقليات العرقية والدينية واللغوية صار بمقدورها ادامة الصلة مع ثقافاتها الاصلية، وبالتالي أصبحت قادرة على التجمع في احياء ومدن خاصة بها لتشكل تعددية ثقافية غير مسبوقة في ثقافة المدينة من شانها ان تقاوم الاذابة في الثقافة الكلية. والخلاصة ان مدن المستقبل ستبقى خارج لعبة العولمة تحتمي بأسوارها الثقافية التقليدية.

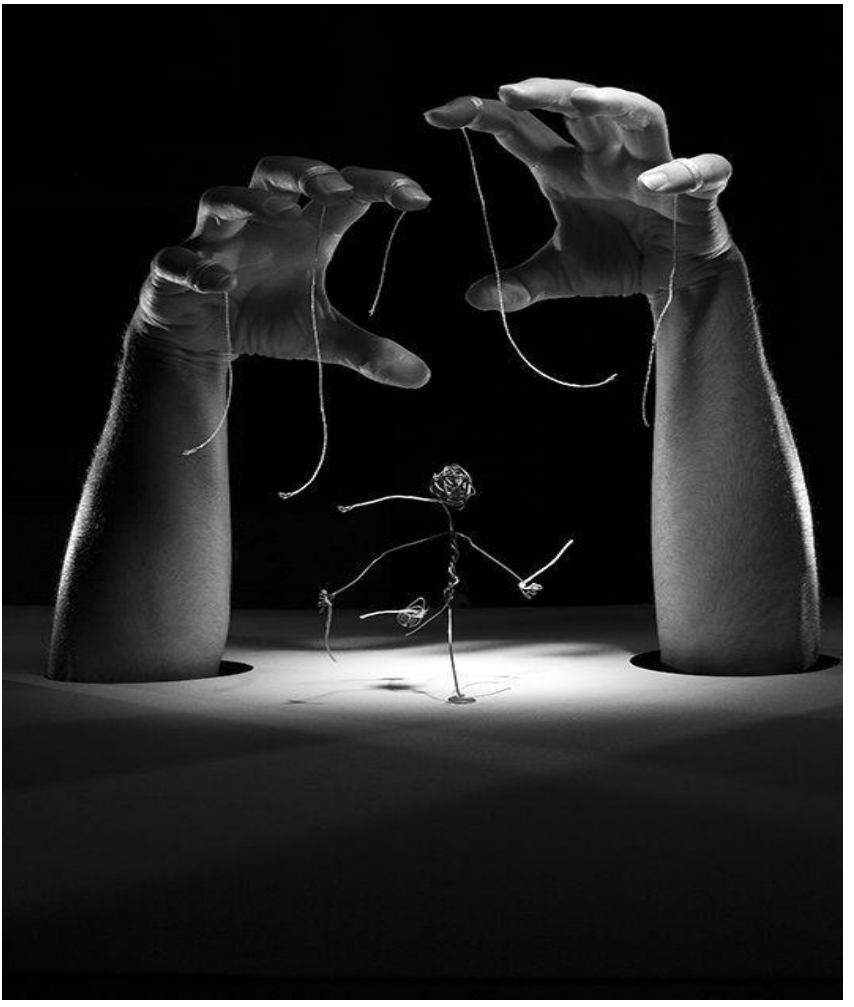

الفصل الثاني عشر

التغير الاجتماعي، السلوك الجمعي والحركات الاجتماعية

Social Change, collective behaviour Social Movement

ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم
الرعد 11

التغير الاجتماعي يحدث دائما، في كل مكان وزمان بتدخل الانسان أحيانا وبدونه أحيانا أخرى. كل شيء يتغير من أكبر المجرات الى أصغر الفايروسات، بدون تغير يستحيل الوجود، والعالم يتحول الى نوع من العدمية، شكل من اشكال الوهم. وسواء كان التغير ملموسا او خفيا، سريعا او بطيئا، كارثيا او هادئا، فانه يوثر على الانسان، ويعدل سلوكه ونظمه وعلاقاته. يقول رالف دارندروف Ralph Dahrendorf (1959:162) "كل عناصر المجتمع معرضة للانقسام والتغير ... في كل لحظة يتعرض المجتمع للتناشز والصراع. والصراع الاجتماعي يحدث في كل مكان وزمان" دارندروف مثل كارل ماركس ينظر للتغير منظور الصراع، فيما ينظر مفكرون اخرون للتغير منظور الوظيفية البنائية، او الرمزية او الظاهراتية، ومهما كان الاتجاه النظري الذي يفسر التغير، فان الحياة لا تبدو ممكنة من دون تغير. والتغير الطبيعي الذي يحدث خلال تفاعلاتنا اليومية، يتبع الخط التطوري الذي لا يمكن تجنبه والذي نتأقلم معه تلقائيا، المشكلة تكمن في التغير المفاجئ الذي يقود الي الفوضى، التغير الذي يعبث بالبناء الاجتماعي المستقر والمتماسك ويحوله الى بناء ممسوخ بلا معايير، هذا النوع من التغير يستثير الخوف وعدم الثقة ويقود الى الخراب. ومن امثلة هذا النوع من التغير ما حدث للعراق بعد الغزو الامريكي في 2003، والذي أدى الى الفوضى وحفّز الغوغاء للخروج الى الشارع والعبث بممتلكات الناس ومؤسسات الدولة، فنهبوا واحرقوا وقتلوا ولم يسلم منهم

البشر ولا الحجر ولا الدواب فضاعت المعايير والضوابط القيمية او اختفت او تبدلت. ثم صار النهب والسلب وسرقة المال العام والعبث بالأمن حصة الأحزاب الدينية والسياسية التي نهضت فجأة من الرماد، وتغولت وقوّضت هيبة الدولة فلاذ الناس بالعشيرة والطائفة والعرق من اجل الحماية، وتحولت الدولة العراقية الى ما يشبه بقايا دولة من ازمان العصر الحجري، واختفى مفهوم الوطنية وتحول الولاء للوطن الى ولاءات محلية هزيلة. Alwan (2019)

كان التغير يرتبط تقليديا بالاختراع، والابتكار والانتشار والتبني، الى جانب الحروب والكوارث الطبيعية، ولكن التغير الذي يحدثه الانسان بفعل التطور التكنولوجي أخطر واهم بكثير من التغييرات التي تحدث نتيجة العلاقة مع الطبيعة، فالتغير الطبيعي كان الانسان فيه سلبيا ويتعامل مع نتائجه فقط، اما التغيير المخطط فانه من صنع الانسان وانه يقود الى ما اسماه عالم الاجتماع الألماني دورشميدت Dürrschmidt and Tylor (2007) "مجتمع المخاطر". والواقع ان التغير الاجتماعي الذي يحدث في المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا يحدث بشكل منظم، مقصود ومسيطر عليه الى حد ما ولكن نتائجه بعيدة المدى غير قابلة للتنبؤ.

تحليل التغير الاجتماعي Analysing Social Change

يمكن النظر للتغير الاجتماعي بإحدى طريقتين او كلاهما، التحول الذي يحدث نتيجة **ثورة شاملة**، يدخل ضمنها التغير الذي تحدثه الحروب والأزمات والكوارث والحركات الاجتماعية والسلوك الجمعي والثورة السياسية التي تطيح بنظام سياسي وتضع اخر بدلا عنه، ثم الثورة التي

تحدث نتيجة **للتطور التدريجي** الذي يحدث بسبب التفاعلات اليومية، وتراكم التغييرات التي تؤدي في النتيجة الى التحول بما يشبه الثورة التي تعمل على تبديل النظام الاجتماعي بنظام آخر، تحول هادئ ربما لا يحتاج الى العنف. وعلماء الاجتماع الذين يتحدثون عن الثورة الاجتماعية، يشيرون الى ظاهرة تختلف عن تلك التي تطيح بالأنظمة السياسية وتستبدلها بأخرى، الثورة الاجتماعية تعني التغيرات الجذرية في الممارسة الاجتماعية مثل تحول المجتمع من مجتمع الحداثة (الصناعة) الى مجتمع المعلومات او المجتمع الرقمي. بعض علماء الاجتماع المحدثين يمزجون بين رؤية اسلافهم من علماء القرن التاسع عشر الذين تحدثوا عن مراحل التغير طويل الأمد والتغير الثوري الذي ينقل المجتمع سريعا من حالة الى أخرى بدون مراحل. الفين توفلر Alvin Toffler (1970) قال ان المراحل التطورية التي تحدث عنها علماء الاجتماع الأوائل تم تجاوزها بسبب تعقّد التغيرات المعاصرة، ولكنه هو الاخر لم يستطع التخلص من عقدة المراحل فقسم التغيرات الشاملة للمجتمعات البشرية الى ثلاث مراحل:

ـ موجة التحول الأولى: بدأت منذ عشرة الاف سنة، عندما زرع أحدهم اول بذرة ليبدأ عصر الزراعة، حيث هجر الانسان البداوة واستقر على هيئة تجمعات قروية وخلق قاعدة ثقافية واسعة، والأرض كانت المصدر الوحيد للثروة

ـ الموجة الثانية: عصر الالة او عصر الصناعة الذي بدأ بعد منتصف القرن الثامن عشر، وفيه هجر عدد كبير من السكان ثقافة القرى الزراعية من اجل العمل في مصانع المدن، هذه المرحلة توجت بالحرب العالمية الثانية،

وتخللها طغيان الالة واستخدام السلاح النووي، ومصادر الثروة فيها، الأرض، قوة العمل ورأس المال.

ـ الموجة الثالثة: عصر المعلومات او عصر المعرفة، وهذه المرحلة تغطى عصرنا الحالي، وتقوم على العقل أكثر من العضلات، قوتها مستمدة من تكنولوجيا المعلومات، ومصادر الثروة فيها، مشروطة بشكل متزايد بامتلاك المعرفة/ المعلومات.

نموذج المراحل الثلاث للتطور التاريخي، له تاريخ طويل، فعلماء اجتماع القرن التاسع عشر، لم يكن يخطر ببالهم اختراع الكومبيوتر، ولكن رؤيتهم المستقبلية كانت تنطوي على اهتمام متزايد بالمعرفة العلمية وما يرافقها من التغيرات الاجتماعية، والمحللين المعاصرين مثل توفلر كانت لهم القدرة على مقارنة خصائص عصر الكومبيوتر مع بعض وجوه العصر الصناعي المبكر. الخصائص المركزية لعصر الصناعة كانت تتمثل في المركزية والمعيارية، في ضوئها كل شيء كان يمضي نحو الكتلة (المقادير الكبيرة)، من الإنتاج الواسع الى التدمير الواسع. وكانت مهمة عمال المصانع تحويل خط الإنتاج الى أطول ما يمكن من اجل انتاج منتجات متماثلة، وكان ذلك بمثابة نقطة الالتقاء ربما الوحيدة بين نظام الحزام الناقل للإنتاج الرأسمالي الغربي والإنتاج الاشتراكي في عصر الاتحاد السوفيتي، وكانت البيروقراطية وبناء السلطة الهرمية في عصر الصناعة تنطوي على أخطاء مميتة، ولكنها في كل الأحوال كانت على درجة من الكفاية لإنتاج كميات كبيرة جدا من البضائع عالية الجودة، وكان الجانب السيء فيها انها كانت متماثلة. ثم اندفع المنتجين الكبار تحت ضغط المنافسة الى تنويع الإنتاج

لإرضاء الاذواق المختلفة. وحين دخلت تكنولوجيا الكومبيوتر أحدثت نقلة نوعية في عمليات التنوع الإنتاجي، فصناع السيارات مثلا زادوا من أنواع السيارات واشكالها واحجامها والوانها لتناسب مختلف شرائح المجتمع ومستويات الدخل، حتى اقداح القهوة الرتيبة كانت قد عرفت التنوع الهائل منذ مطلع التسعينات من القرن الماضي لإرضاء اذواق الزبائن، حتى أصبح الزبائن اليوم يشكون من كثرة الخيارات. ليست السيارات او اقداح القهوة او الأثاث او البضائع المنزلية او الاف البضائع الأخرى التي كانت تُنتج وفق معايير محددة في عصر الصناعة ولكن حتى كثير من وسائل الترفيه والثقافة كان انتاجها واسعا ومتماثلا في الأسواق الكبيرة. علماء الاجتماع الماركسيون من مدرسة فرانكفورت الألمانية وجهوا نقدا لاذعا لنمط إنتاج الثقافة الرأسمالي المعياري، حيث اعتبروا ذلك محولة لتنميط السلوك وفق الأيديولوجيا الرأسمالية.

بعض علماء الاجتماع غير الماركسيين كانوا متشائمين من التغيرات الاجتماعية المرافقة لعصر المعلومات مثل تزايد أنماط الاسرة واختفاء الشكل التقليدي للأسرة النووية التي رافقت عصر الصناعة (انظر فصل الاسرة) التي فيها يعمل الاب فيما تبقى الام في البيت لإدارة شؤون الاسرة ورعاية الأطفال، وظهور اشكال جديدة للعائلة بما فيها عائلة الزواج ثانية، وعائلة المعاشرة خارج مؤسسة الزواج، والاسرة المختلطة Blended Family، والاسرة أحادية الابوين، والاسرة الافتراضية. Alexander & Thompson (2008)

خلاصة Conclusion

هل نحن بالفعل نواجه ثورة اجتماعية، يتحول فيها النظام الاجتماعي من شكل الى اخر. المؤشرات كلها توحي ان شكل المجتمعات البشرية تشهد تغيرا غير مسبوق في سرعته وايقاعه وثقافته. النظريات التقليدية للتغير الاجتماعي لم تأخذ في الحسبان القفزة النوعية التي تسببتها تكنولوجيا المعلومات على الرغم من تفاؤلهم بان المعرفة العلمية يمكن ان تحدث تغييرات جوهرية في بنية المجتمعات وتؤثر بشكل مباشر على البنى الاجتماعية، ولكن الخيال الاجتماعي لم يصل الى حد التكهن بنوع الاسرة في عصر المعلومات ولا في شكل التواصل الاجتماعي الذي عبر حدود الدولة القومية ليجعل من كوكب الأرض كله رقعة واحدة تسمح لكل اللاعبين العبث بالبيئة والثقافة والاسرة. التغير الذي تحدث عنه علماء الاجتماع الأوائل كان أساسه الصراع بين الطبقة العاملة وأصحاب راس المال، وكانت الحركات الاجتماعية تنحصر في المطالب المادية، فيما تبدل شكل هذه الحركات وتغيرت أهدافها ورموزها وحتى زخمها البشري. الحركات الاجتماعية في زمن المعلومات أصبحت تبحث عن مطالب غير مادية، مثل تغيير دور المرأة ومكانتها، والحركات المناهضة للعنصرية والحركات المناهضة للعولمة، ومناصرة البيئة. والاهم ان هذه الحركات أصبحت قادرة على جمع اعداد هائلة من المناصرين في زمن قياسي يحسب بالدقائق والساعات وليس بالأيام والاشهر كما كان يحدث في الماضي، ذلك كله بفضل وسائل التواصل الاجتماعي التي غزت العقول قبل البيوت، وعلى الرغم من انها اثرت بشكل مباشر على أنماط السلوك والعادات

وأسلوب الحياة، فان مخاطرها لم تتضح بعد، ذلك ان الاستخدام غير العقلاني للتكنولوجيا الحديثة ربما على رأي، بعض علماء الاجتماع يحمل لنا مخاطر غير منظورة ستظهر نتائجها في المدى الطويل. ولكنها في كل الأحوال أصبحت قادرة على احداث تغييرات بنيوية وثقافية شاملة ليس فقط بسبب تنامي الحركات الاجتماعية والسلوك الجمعي وانما بسبب سوء استخدام التكنولوجيا الرقمية التي خلقت لنا مجتمعات افتراضية عملت على تغيير منظومات القيم التي تحافظ على الحد الأدنى من إنسانية الفرد والمجتمع. الحق اننا نحيا في قلب عاصفة من التغيرات الاجتماعية التي لا أحد يدري مدياتها او وجهتها، ولكنها تستثير كثيرا من المخاوف على مستقبل الجنس البشري.

الكتب والمراجع

Bibliography

Adam B, (1995) *Timewatch: The Social Analysis of Time*, Cambridge, Polity Press.

Alwan FJ, (2019) Social change: the case of Patriotism in Contemporary Iraq, Paper Accepted for Publication in Periodical Journal (Hawliat) of EinShams University, Egypt.

Alexander J and Thompson k, (2008) *A Contemporary Introduction to Sociology: Culture and Society in Transition*. London, Paradigm Publishers.

Anderson E, (2000) *Code of the Street: Decency, Violence and the Moral Life of the Inner-city*, New York. W. W. Norton.

Ballantine G H, and Roberts K A (2009*) Our Social World: Introduction to Sociology*, Los
Angeles and London, Pine Forge Press.

Bauman Z, (1992) *Intimations of Postmodernity*, London, Routledge.

Ballantine J H, and Roberts K A, (2009) *Our Social World: Introduction to Sociology*, London, Pine Forge Press.

Beattie J, (1985) *Other Cultures: Aims, Methods and Achievements in Social Anthropology*, London, Routledge ang Kegan-Paul.

Beck U, (1992) *Risk Society*, London, SAGE.

Beck, U, (2000), *What is Globalization*, Cambridge, Polity Press.

Beker D, et al (1987), Post-Imperialism, Boulder, CO, Lynne Reiner.

Berger P and Luckmann T, (1969) "Sociology of Religion and Sociology of Knowledge", in Robertson R (ed) *Sociology of Religion*, |Harmondsworth, Penguin

Berger P, (1973) *The social Reality of Religion*, London, Penguin Book Ltd

Bettelheim B, (1969) *The Children of the Dream*, London, Thames & Hudson.

Bilton T, Bonnett K, Jones P, Lawson T, Skinner D, Stanworth M and Webster A, (2002) *Introductory sociology*, New York, Palgrave, Macmillan.
Boli J, (2002) "Globalization" in Levinson D, Cookson P & Sadovnik A (eds) *Education and Sociology: An Encyclopaedia.* New York, Routledge- Falmer. PP. 307-13
Broom L, Selznick Ph, and Darroch D B, (1981) *Sociology: A Text with Adapted Readings*, 7th ed, New York, Harper & Row Publishers.
Brown A, (1986) "Family Circumstances of Young Children". *Population Trends*, Vo. 43
Browne K, (2010) *An Introduction to Sociology*, 3rd ed, Cambridge, Polity Press.
Carrington Ch, (1999) *No Place Like Home: Relationships and Family among Lesbians and Gay Men*, Chicago, University of Chicago Press.
Castells M, (1996) *The Information Age: The rise of the Network Society*, Malden, MA, Blackwell, Vol. 1,
Castells M, (1997) *The Information Age: The rise of the Network Society*, Malden, MA, Blackwell, Vol. 2.
Castells M, (2002) "Material for an Exploratory Theory of the Network Society" in Tim Jordan & S. Pile (eds) *Social Change*, PP. 123-128, Oxford, UK: Blackwell
Cheal D, (1991) *Family and the State of Theory*, Hemel Hempstead, Harvester Wheatsheaf.
Chinoy E, (1971) Society: *An Introduction to Sociology*, New York, The Book Press.
Curtiss S, (1977*) Genie; a Psycholinguistic Study of a Modern-Day "Wild Child*", New York, Academic Press.
Dahl R A, (1989) *Democracy and its Critics*, New haven, Yale University Press.
Davis K, (1940) "A Final Note on a Case Extreme Isolation" *American Journal of Sociology*, 52 PP. 432-37
Delphy C, (1977) *The main Enemy*, London Women's Research and Resources Centre.

Diani M (1992) "The Concept of Social Movement" *Sociological Review*, 40, 1-25
Domhoff G W, (1998) *Who Rules America? Power and Politics in the Year 2000*, 3rd ed Mountain View, CA: Mayfield.
Durkheim E, (1893) *The Division of Labour in Society*, Glencoe, IL, The Free Press. Reprinted 1964
Durkheim E, (1897) *Suicide*, Glencoe, IL, The Free Press. Reprinted 1951
Dürrschmidt J and Taylor G. (2007*) Globalization, Modernity and Social Change*, Hampshire, Palgrave, Macmillan.
Eder D, Evans C and Parker S, (1995) *School Talk: Gender and Adolescent Culture*. NJ, Rutgers University Press.
Edwards S, (1984) *Women on Trial*, Manchester, Manchester University Press.
Elliot F R, (1996) *Gender, Family and Society*, Basingstoke, Macmillan.
Featherstone M, (1998) "City Cultures and Postmodern Lifestyle" in Marsh, Campbell R and Keating M, (eds) *Classic and Contemporary Readings in Sociology*, Essex, Pearson Education Ltd.
Foucault, M, (1979) *Discipline and Punish: The Birth of the Prison*, New York, Vintage
Freese J, Powell B, and Steelman, (1999) *Rebel Without a Cause or Effect: Birth Order and Social Attitudes*, Washington, DC, American Sociological Association.
Friedland R and Hecht R, (1996) To Rule Jerusalem. Cambridge, Cambridge University Press.
Fukuyama F, (1992) The End of History and the Last Man, New York, Free Press.
Fulcher J and Scott J, (1999), *Sociology*. New York, Oxford University Press.
Gans H, (1962) Urbanism and Sub-urbanism as Ways of Life: A Re-evaluation of Definitions, in Arnold Marshal Rose (ed) *Human Behaviour and Social Process*, 625-648, Boston, Houghton, Mifflin.
Gans H (1967) *The Levittowners*, New York, Pantheon.

Geertz H & Clifford G, (1975) *Kinship in Bali*, Chicago, University of Chicago Press.
Gergen K J, (1991) *The Saturated Self: dilemmas of Identity in Contemporary Life*, New York, Basic Book.
Giddens A, (1984) *The Constitution of the Society*, Cambridge, Polity Press.
Giddens A, (1989) *Sociology*, Cambridge, Polity Press.
Giddens A, (1990) *The Consequences of Modernity*, Cambridge, Polity Press.
Giddens A, (1999) *Runaway World: How Globalization is Reshaping Our Lives*, London, Profile Books.
Giddens A, (2007) *Europe in the Global Age*, Cambridge, Polity Press.
Gittins D, (1993) *The Family in Question: Changing Households and Familiar Ideologies*,2nd ed, London, Macmillan.
Gomm R, (1989) "Deviance and Social Problems" in McNeill P and Townley Ch (eds) *Fundamental of Sociology*,2nd ed, Cheltenham, Stanley Thornes Publishers.
Gomm R, (1989) "Development, Underdevelopment and Migration" in McNeill P and Townley Ch (eds) *Fundamental of Sociology*,2nd ed, Cheltenham, Stanley Thornes Publishers.
Goody J, (1968) "Time: Social Organization" *in International Encyclopaedia of the Social Sciences*, Vol. 16, PP. 30-42, New York, Macmillan.
Gouldner A, (1971) *The Coming Crisis of Western Sociology*, London, Heinemann.
Gottfredson M R and Hirschi T, (1990) *A General Theory of Crime*, Palo Alto, CA: Stanford University Press.
Hall E, (1959) *The Silent Language*, New York, Doubleday & Company.
Hall E, (1984) *The Dance of Life: The Other Dimension of Time*, New York, Doubleday & Company Inc.
Hall E, (1987) *Hidden Differences*, New York, Doubleday & Company Inc.
Hall E, (1989) *Beyond Culture*, New York, Anchor Books. Doubleday & Company Inc.

Haralambos M, Smith F, O'Gorman J and Heald R, (1991) *Sociology a New Approach*, Oxford, Causeway Books.
Haralambos M, (1993) *Sociology: Themes and Perspectives*, London, Collins Educational.
Harris J R, (1998) *The Nature Assumption: Why Children Turn Out the way They Do*, New York, The Free Press.
Held D, (1995) *Democracy and the Global Order*, Cambridge, Polity Press.
Hirschi T, |(2002) Causes of Delinquency, New Brunswick, NJ, Transaction Publishers.
Hobbs F, and Stoops N (2002) *Demographic Trends in the 20th Century*. U.S. Census Bureau, Available online at http://www.census.gov/prod/2002pubs/censr-4.pdf
Hurd G, Ashton D N, Brown R K, Duncan P, Dunning E, Holloway S W, Johnson T J, McIntosh M, and Zubaida S, (1978) *Human Societies: An Introduction to Sociology*, London, Routledge and Kegan Paul.
Hofstede G, (1991) *Cultures and Organizations: Intercultural Cooperation and Its Importance for Survival*, London, Harper Collins Publishers.
Hofstede G, (2001) *Culture's Consequences: Comparing Values, Behaviours, Institutions and Organizations Across Nations*, London, SAGE Publications.
Hurd G, Ashton D, Brown R, Duncan P, Dunning E, Holloway S, Johnson T, McIntosh M and Zubaida S, (1978) *Human Societies: An Introduction to Sociology*, London, Routledge & Kegan Paul.
Jewson N, (1994) "Family Values and Relationships", *Sociology Review*. Vol. 3 No 3.
Kanter R M, (1989) *When the Giants Learn to Dance: Mastering the Challenges Strategy. Managements and Careers in the 1990's*. New York, Simon & Schuster.
Kaplan H B and Johnson R J, (1991) "Negative Social Sanctions and Juvenile Delinquency: Effects of Labelling in a Model of Deviant Behaviour" *social Science Quarterly*. 72 (1) 117.

Krug E, Mercy D J, Zwi A, and Lozano R, (2002) *World Report on Violence and Health*. Geneva, Switzerland, World Health Organization.
Lawson A, (1988) *Adultery: An Analysis of Love and Betrayal*, New York, Basic Books.
Levine R V, (1988) "The Pace of Life Across-Cultures" in McGrath (ed) *The Social psychology of Time: New Perspectives*, California, SAGE Publication Ltd.
Macionis J, and Plummer K, (2002) *Sociology: A Global Introduction*, Essex, Pearson Education Ltd.
Malinowski, B, (1954) *Magic, Science and Religion and other Essays*, New York, Anchor Books.
Mann M, (1986) *The Source of Social Power*, Vol,1, Cambridge, Cambridge University Press.
Marx K, (1976) (1843-44) "contribution to the Critique of Hegel's Philosophy of Law" in K. Marx and F Engels, *Collected Works*, Vol.3, London, Lawrence & Wishart, PP. 174-75.
Marx K and Angels F, (1967) *The Communist Manifesto*, Harmondsworth, Penguin.
Matza D, (1964) *Delinquency and Drift*, New York, Wiley.
McCarthy, J. D, & M Zald, (1978) (eds) *Social Movement in an Organizational Society: Collected Essays*. New Brunswick, NJ: Transaction.
McEvoy A and Brookings J B, (2008) *If she is Raped: A Guidebook for the Men in Her Life*, 4th ed, Abridged, Tampa, FL: Teal Ribbon Books.
McGrew A, (1992) "A Global Society" in Hall D, Held D & McGrew T, (eds) *Modernity and its Future*, Cambridge, Polity Press.
Mead M, (1963) *Sex and Temperament in Three Primitive Societies*, 3rd ed, New York, Morrow.
Mead M, (1970) *Culture and Component*, Garden City, New York, Natural History Press.
Merton R, (1968a) "Social Structure and Anomie" *American Sociological Review*. 3 (October) 672-82.